تحسين كرمياني

زقنمـــــوت

رواية

***{عندما نفقد حبيبة نكتب قصيدة ،
وعندما نفقد وطناً نكتب رواية ،
فالرواية هي مفتاح الأوطان المغلقة
بوجوهنا . . !!}***

(أحلام مستغانمي)

لحظة عبرت (مها) ممر الزقاق . كان (ماهر) منشغلاً بتهشيم **زجاج** الفرحة في عينيه .

***

زقاق مخادع ، متعرج ، بيوته طينية ، غير متناسقة البناء ، وصباح البلدة بعسر يتنفس ، متوشحاً بأدخنة سوداء تصعد كأغوال غاضبة من معامل عمل (الجص) البدائية ، وأخرى تصعد مثل أشباح تتسابق قبل أن تتعانق لتخنق فضاء البلدة برائحة التنانير وهي **تزف** بشرى نضج خبز الصباح ، وثالثة لنيران تشعلها أيد عابثة في إطارات ممزقة أو أكوام كراتين مرمية خلف وأمام الدكاكين ، يتجمهرون حولها كسبة يبكرون الخروج ليقفوا ببنطلوناتهم المثقوبة وعيونهم الغائرة ، يقفون على **باب الله** في انتظار مركبة ملاّك تقف ، يهبط بعقال يضبط (شماخه) على **طاسة** رأسه ، بعينين صقريتين تترسب فيهما بقايا نعاس أزلي ، تدور حوله **حلقة** متوسلة ، أفواه تتصارخ وتتنازل عن أجرة اليوم ، بعد دقائق **ملغومة** بالحسرات والدفعات ورائحة الدخان والغبار المتصاعد من جرّاء مرور المركبات العاطسة على شارعٍ لم يذق طعم **(مكانيس)** البلدية منذ دهور .

بإصبع متحجر ، سيجارته لا تفارق فمه ، يؤشر إلى من يمتلك جسماً وعافيًة ويتحمل العمل كـ **حمار** مطيع ، أصحاب الحظ ، يركبون

حوض مركبة ملوثة ببول وبراز حيوانات أليفة ، لتنطلق بهم إلى حقول زراعية تتوزع أطراف البلدة .

أذناب الليل ترتمي بثقلها ، توشح المنزويات والمنعطفات ببقايا عتمة هاربة ، باستثناء أصوات باعة ، يتجولون عبر أزقة متعرجة ، على رؤوسهم كراتين وصينيات ، صائحين بما تسع حناجرهم على ما يبيعون .

(ماهر) على عادته يخرج كل صباح ، حاملاً كتاباً شعرياً وحفنة أوراق ، في معظم صباحات خروجه ، لم يشعر بعصافير بطنه تضج **بنشيد** الجوع ، أمّه أذعنت لصلابة عقله ولم تعد تدعوه ولا تلح عليه ليتناول فطوره ، يترك البيت ، مخترقاً مكر الزقاق ، يقف برهة زمنية وجيزة ، على شارع (جلبلاء) الفريد ، فرادته نجمت كونه الشارع الرسمي للبلدة ، مذ تأسست ولد ، وظلّ أسفلته مقاوماً ومتماسكاً لإطارات مركبات تمرق ومسرفات حربية قاسية تحفر ، لنزاهة الجيل القديم في أداء الأعمال الخدمية .

تشبه البلدة من علٍ سفينة عتيقة الطراز ، يشقها نصفين غير متعادلين سيف مقوس من (جؤجؤها) إلى (كوثلها) ، طرف عال وآخر منخفض ، وعلى حوضه **يعجن** كل نصف عام طفل .

بوقفته ، يبدو (ماهر) كسائح تعب ، وقف يلتقط أنفاسه ، أو دليل تاهت عليه **خريطة** رحلته ، وقف يسترجع أوراق ذاكرته ، قبل أن ينطلق إلى آفاقه .

قد تستغرق وقفته بضع دقائق ، قبل أن ينطلق عابراً **حوض** الشارع الإسفلتي ، لينفرد في خرس جبال عشوائية ، لم تهذبها **هجمات** الفصول ولا **ترهلات** العصور ، ما تزال منسية ، خارجة عن أطماع الجشعين ، ترتفع وتنخفض من غير تدرج تضاريسي ، جبال

تنبطح أحياناً لتغدو مساحات أراض صالحة لزراعة **ديمية** سنوات المطر ، قبل أن ترتفع فجأة من غير **مقدمات** سفحية ، أكثر المعلومات راسخة في أذهان ناس البلدة والمؤرخين والجغرافيين وأصحاب المعلومات العابرة ، أنها أي تلك الجبال ذيول منفلتة ، تابعة لسلسلة جبال (حمرين) المارة شرق البلدة ، لتغطس منتصف البلاد في واحات ملحية ورمال متحركة ، جاهزة ، تنتظر **أدنى** ريح لتنهض أفاع أسطوانية تزأر وترعب لتشكل ستاراً رمادياً زاحفاً تغرق نصف البلاد بـ **موجة** كآبة مزمنة ، لتقضي على آمال الفلاحين ، وتنهي حياة **نصف** أصحاب الربو ، فاسحة المجال أمام مخالب الحلزون العنيد ، هذا المرض العضال ، عصي العلاج ، لينتج تعساء جدداً يسدون الفراغ المتواصل ، عبر كل الأحقاب البائدة .

(ماهر) حين يعبر الشارع واضعاً قدميه على **مفتتح** الجبال ، يترك خياله كحصان منفلت ، يسرح في ضباب تام وغبار خانق بحثاً عن كلأ ، ذاكرته دائماً جائعة ، كلأها قصائد تدغدغه ليلاً ، تسلبه نصف نومه ، ومع الفجر تدفعه ، فيخرج **شبه** مجنون ، يلهث خلف أسراب كلمات **تضج** في فضاء (مغوّش) ، بغية ترويضها .

كسله المتواصل ضيّع عليه **وفرة** أفكار وجملة قصائد ، فهو حين ينام ، تأتيه قصيدة أو تدغدغه فكرة **يتكاسل** أن يدونها ، لا يمتلك إرادة حازمة كي ينهض حريصاً من سريره ، ملتقطاً قلماً وفاتحاً دفتراً ليكتب ما يشعر به ، تعود أن يترك كل أمر مستجد للصباح ، رغم إدراكه سلفاً ، أنّ كل صباحاته **غير** رباحات .

يهرب بحثاً عن كلمات **ضاجعت** مخيلته وولت تلوذ خارج فراشه .

ما بالها تبتسم ، ما بالها تنحت عينيها فيَّ ، ما بال (مها) هذا الصباح؟ (قال لسانه)

في صباحات متعاقبة ، تخرج (مها) ، تفرغ أحشاء صفيحة القمامة وتهرب داخلة البيت ، أيّاماً لم تتحرك فيه **دودة** الوله و**دعسوقة** التعجب ، لم يشعر بشبق يرضخه لإلقاء نظرة وتحرير ابتسامة إعجاب بوجه فتاة من الزقاق ، عقله مفروغ من **حمّى** العواطف ، رأسه أسير فوضى كلمات تتناطح داخل زنازين سمّاها (الفراهيدي) أوزاناً توزن **هذيانات** حفنة صعاليك وحشد عاطلين ، قبل أن تمنح تصاريح **رسميّة** لتغدو أشعاراً مقبورة في دفاتر تتهرأ مع الوقت .

لا أحد في الزقاق غيره .

غسل الزقاق ، مسح أسطح البيوت بعينين مفضوحتين ، كي يغلبه الظن (مها) تقف من أجل شخصٍ ما ، ما زالت تمطره بنظرات حيرته ، ترسل **بريق** أسنانها من خلال انفراج شفتيها ، أخيراً تأكد ، وحده يقف لصق جدار ، تبعد وقفته عن بيت (مها) مائة خطوة .

(مها) تناديني .! (قال لسانه)

مشى .

كل شيء يسير معه ، البيوت والسماء ، خوفه المتنامي ، الوشاح الحاجب للرؤية ، قدماه المتخاصمتان .

تهادى صوت :

«صباح الخير ماهر .»

صباح انفلق ، بعدما كان يائساً ، متعباً يرتمي على **بلدة** كسلانة ، اخترق عالماً ليس بريئاً ، عالماً **ضاجاً** بأحلام تنتهكها كوابيس الواقع ، تلك حقيقة ليس من المستحب كتمانها ، (ماهر) قلبه مضخة تختلف

عن مضخات أبدان شباب البلدة ، فيها وظائف غامضة ، أحلام لم تكشف النقّاب عن نفسها ، كوابيس ما تزال تتشبث بجذور وحدانيته ، تطبع بـ **عملة** الصراحة ، والصراحة قادته إلى **ملهى** الشعر ، فهو واضح وصريح ، غاضب ومتمرد ، لا يرغب أن يحجم عالمه الشعري عن **سكاكين** واقع سخيف يسكنه .

صباح انطلق كصاروخ من فم قاتل ، ليهدم مدينة نائمة بين **مقابر** قصائد رديئة ، اكتفى ببسمة ، ظنها كافية لإعادة إعمار **خرائب** قلبه .

وصل رأس الشارع .

توالدت عنده رغبة ، دفعته أن يلقي نظرة يقين ، كي يطمئن قلبه ، كي تقر عيناه ، أو يفند رؤيا شيطانية أربكته في **صبحٍ** جديد ، خرج ليلقي القبض على **أرقٍ** هارب .

(مها) ما تزال واقفة ، رفعت كفها بحركة عشوائية ، مقصودة من غير ظن :

(مها) تستهدفني .! (قال لسانه)

دخلت **هي** البيت .

وصل **هو** الجبال .

بدأت مشاعره تتفاعل ، قلبه **غيّر** نهجه ، تطايرت ضرباته كدرداب طبل بيد جاهل ، فكره انفلت يطارد **باقة** حقائق تتناثر في اتجاهات شتى ، تحرك لسانه سريعاً :

اليوم بدأ الخريف
كل شيء هادئ ومؤنس وشفيف
القبّرات تتغزل بدثار البرد اللطيف
وميض (مها) يناديني

مسحوراً أهذي في حوار طريف

يشبه وجيب قصائد

مسرورة

تلهو

ببحر الخفيف .!

****

مشى شاقاً متاهات جبال بدت جديدة ، جناحان من نور ينبتان له ، من غير شعور ظلّ يفتح يديه ، مبرزاً صدره ، ساحباً شهيقاً غير مألوف ، يتمعن **كرنفال** دنيا تتشكل وتضمحل ، **لا خوف** ، **لا آلام** ، بدأت تقبله مواطناً مطيعاً ، كامل الأوصاف ، فارغ الأطماع .

أسير حلماً ظلّ يمشي .

جلس على حافة جبل يطل على وادي (العاقول) ، ماء مطر متراكم ، طيور تصعد وتهبط متلبسة بأوهام السمك ، تخترق الماء وتخرج ، ظلّت تلعب أو تتوهم بأن ما تلحظه في طيرانها أسماك ماكرة يتعذر خداعها .

في تلك النزهة تطايرت أوراق قديمة ، بدأت تتكشف من بين ذرات التراب ، جبل ليس بغريب على ذاكرته ، ممر قديم يخترقه ، يقول كتاب التأريخ إن رجال (القادسية الأولى) مرّوا فيه لملاقاة (الفرس) في واقعة (حلوان) ، لسحق آخر فلول بني (ساسان) ، عبق حوادث حصلت في أزمنة سحيقة ، صليل سيوف وسنابك خيول وأنهر دم ودسائس ومكائد **فوق** العادة ، فقرات دخلت ذهنه يوم قادهم مدرس مادة التأريخ ليقفوا على الممر ويشرح لهم كيف مر الرجال ركباناً وراجلين ، عابرين الفراسخ الوعرة وشاقين المتاهات الحافلة بالوديان

للقضاء على آخر الفلول المتحصنة حول نهر (الوند) ، كونه ممراً حيوياً وموقعاً استراتيجياً **يتخوصر** دولة خيرات وموارد أبدية .

فكره تشبع بالوقائع ومن يومها ظلّ يخرج باكراً للجلوس على حافة الجبل المطل على ممر **النصر** ، يجلس ساعات ، فكره **يطفر** واقعه ، ليسقط في أزبال الضجيج والكوابيس .

رسم (مها) يحاول **قفل** كل الماضي .

ضجيج التأريخ من أعماقه غاضباً يبارز سطوة (مها) .

الحب والتاريخ عالمان متشامخان . (قال لسانه)

الحب يقرّب الأشياء ، جاذبية تلغي كل عارض يصد ما بين قطبين ، متنافرين أو متماثلين ، الحب مغناطيس البشرية ، مذ **خلع** الله ضلع آدم وحوله لنصفه الممتع .

فكرة تلح عليه ، أنسب ما وجده ، تسمية الأشياء المتجاذبة بـ **ميسم** الحب ، الرغبة المشتعلة ما بين الأرض والسماء ، مطر ، المطر **دموع** الحبيب/السماء على **خدود** الحبيبة/الأرض ، الحب ما بين سماء رحيمة وأرض الضواري والوحوش .

التأريخ . . تدوين لآلام البشرية ، تدوين لوقائع ناقصة ، كل مؤرخ يميل إلى حيث كفته ، **يطمس** ويشوه ، يكتب ما يناسب **سلطته** الحاكمة ، حريّة التعبير لا تنسجم مع متطلبات المؤرخ ، طالما العالم منقسم ، إلى دول **مؤمنة** وأخرى **كافرة** ، لا وسطية بين العالمين المتقاتلين ، الوسطية في الآخرة ، يسمونهم أصحاب (الأعراف) ، لا هم يتذوقون **خيرات** الجنّة ولا **فاكهة** الشتاء المسعورة ، جالسين متحسرين على حسنة واحدة كانت تكفل رجحان كفة ميزان الفردوس ، ينتظرون رحمة الله التي وسعت كل شيء .

شعوب الدنيا الفانية ، تتغذى بـ **فيتامينات** الكراهية **وبروتينات** التقوقع و**مخاط** التحزب و**نكاسة** العرقية ، كل الجوانب المعتمة والحسّاسة منها مهمّشة ، أحواض الدماء والدسائس ، الفقر ، الجوع ، المكيدة ، اغتصاب الحقوق ، تلك هي مفردات **قاموس** تأريخ ما زال ينطق من غير صدق ، في **ماضيه** الدموي ، في **حاضره** الفوضوي ، و**مستقبله** المهدور ، أو المنحور .

لا . . لا . . التاريخ والحب قطبان متضادان . (قال لسانه)

شعر الليل تحول إلى كائنٍ خامل ، تشبع جسده بسحر مضيء ، مده بفيوض قوة جعلته ينهض ويواصل السير .

مذ بدأ الشعر يحرمه ليله ، مذ بدأ ينهضه باكراً ويلقيه خارج **معتقل** البيت ، متسكعاً يبحث عن أوهام تغريه ، هناك فوق التلال ، بين طيّات المنحدرات المحيقة ببلدة (جلبلاء) يمتلئ صدره بحبور طاغٍ ، يتحرر من خوانق البلدة ، من كوابيسها ، من ناسها ، من **تابوتِ** البيت ، يتحول إلى صيّادٍ مستجد يطارد كلمات تناسب لهيب مشاعره ، تنسجم طردياً مع فوران النغم لقصائد تولد وتعيش ناقصة ، قبل أن تتكدس مهملة بين أوراق حياته .

(مها) نجمة هبطت صباحاً من مجرتها ، وقفت تلملمه ، ترسم خريطة جديدة لأحلامه ، صغيرة ، مغناجة ، بسمتها تدمر أعصاب كل صاحب **أرق** نضجت شهوته ، ميعة جسدها واضحة حين تمشي ، رغم فضفاض ثوبها ، يتمكن أي خيال عادي من الوصول من غير عسر إلى تكوينات جسدها ، نظرة واحدة كفيلة أن تعطي بدقة **قيمتها** الأنثوية .

مشيت تلبية لإلحاحها

قلبي ملكها

قدماي تبحثان عن أرض تستوعب نداء (مها)
كي تستقر
أيها التائه .
قف لحظة وانتظر .؟
هذا درس واضح واعتبر
أنّ الحياة
في كل عصر
في كل مصر
مزنة مطر
اغتنمها .
قبل أن يمضي قطار العمر
درس الحياة
حطب
يلهم مواقد الشعر!

***

حب بدأ يتوغل إلى **فكر** ضاج ، عقل (ماهر) محجوز لمطارق تدك على سنادين (الفراهيدي) ، أشياء التأريخ المتراكمة في ذاكرته **تحجز** كل الفراغات ، عندما يغيب الشعر **يضج** التأريخ ، يجتهد لرسم مشاهد سمعها من مدرس مادة التأريخ ، من بعض الكتب ، لا يعنيه وجود اختلافات واضحة ما بين المسرود في كتب منهجيات الدراسة ، وبين ما يتعلق بذرات التراب وشقوق الجبال ومخلفات الطلول ، لم يشغل نفسه بسحر المقارنة ، لم يجد دافعاً لمعرفة سر التباين والفضائح الواضحة ، فهو يعلم أن **كل** حكومة شمولية ، تأريخها مزيّف ، تصرف

الغالي والنفيس ، تضحي بالروح والدم ، بالمال والشعب ، لإخراج قطار التأريخ ، بكامل حمولته ، من على سكة الحقيقة ، تبتكر وسائل شيطانية مقنعة عندما يكون المرء غبياً أو خاملاً ، أو مخدراً بمصل التسيس ، تجاهد لتدوير عجلاته الرخوة ، لتمشي عربة زمنه ، بأي طريقة تناسبها ، عرجاء ، شوهاء ، وفق إيقاعات أيديولوجياتها .

شغل شاغل يشغل ذاكرتي
يا شعر أين مهارتي
من (جؤجؤ) بلدتي
وحتى (كوثلها) .
تتمرد حيرتي
قصائدي لم تعد تناسب
سيرتي
أرميها على حصى بلدتي
تتشكل في الأفق
ملامح قلعة
كلما أدنو منها
تنأى
تغتصب أميرتي . . !

***

قدماه لم تتعبا ، قطع مسافات طويلة من غير استراحة بين وديان وقمم ومنحدرات .

وقف .

برك مياه تتناثر مع الحافات الملتوية لسلسلة التلال الممتدة مع

البلدة ، تجمعات مائية تخلفها أمطار الشتاء والسيول الجارفة ، تأتي من أمكنة قصية ، تتجمع لتمر بوادي البلدة ، تمر بمحاذاة بيوت طينية تتآكل في كل عام جرّاء **غضب** السيول ، لتجرف **وجبة** منازل فقيرة ، قبل أن تعكر ماء نهر البلدة بملوحة طاغية .

استوقفته أسماك كبيرة ، لم يفكر بسبب وجودها في هكذا أماكن ، من جلبها وألقاها ، ربما المطر يلقي بيض الأسماك المحمولة على رفوف الغيوم في تلك الأماكن رزقاً للحيوانات ، كانت تسبح بحرية تامة ، سعيدة ، بعيدة عن أطماع الصيّادين ، ثارت غريزته لصيدها ، تفاعلت فكرة ، أن يجلب أدوات الصيد في الصباحات التالية ، فكرته بدت رغبة لحظوية ، ولدت وماتت في بضع ثوان ، وجد ما يشغله ، ما أيقظ ينابيع الشعر ، أكبر من أحلامه الأخرى .

تعب فكره أتعب جسده ، شيء ضاغط خلخل **منظومة** تنفسه .

استدار . . سريعاً وصل الزقاق .

(مها) تمثال يعطي الزقاق رونقاً آخر .

(ربتما) ظلّت منحوتة في وقفتها مذ مر بها وحتى لحظة عودته ، صبر العاشقة صخرة تكسر شراسة الرياح ، تمتثل بروح وليدة ، منفوخة الجسد ، تشعر أنها ألغت الزمنية وطفرت حقبة كاملة إلى حديقة الحلم ومواسم النضوج .

(ماهر) عقله بدأ يفسر الحوادث ، توصل إلى قناعة مطلقة ، فلسفة لا شك يعتورها ، حمولة كل فتاة اكتوت بـ **لهيب** الوله ، في الصبر تحديداً تفوق حمولة الرجل ، في كل مجالات الصمود ، في الحزن ، في الحب ، في الغضب ، في القصاص ، الرجل أقوى جسدياً لحكمة الخالق ، أراد أن يكون الرجل **ملك** البريّة ، والمرأة **ملكة** المنزل ، باتحاد

القطبين تلتئم **جراح** الأرض ويكتمل **مشهد** الحضارة البشرية .

المرأة كائنة مائية ، كومة مشاعر تحترق أسرع ، تغضب أسرع ، تنجرف أسرع ، عنيدة ، صلبة ، تقاتل من غير تردد ، أوان التأزمات النفسية ولحظات التوتر تغدو من غير **زيت** رعداً وبرقاً وناراً .

(ماهر) و (مها) تبادلا بسمة واضحة ، ما عاد يتذكر ، أو يعرف كيف تجرأ ، كيف انساقت مشاعره ، كيف عيل صبره وتخلى عن إرادته ، غمز برمشي عينيه ، غمزة تحرش ، في بلدة (جلبلاء) الغاطسة في عباب القبلية ، تلك الغمزة كافية لتأجيج صراع دموي يمتد ليلتهم عشيرتين إلى حرب (مهاوية) على غرار حرب (البسوس) ، طويلة الأمد ، تأكل أجيالاً من الطرفين ، حرب لا تقبل (الفصل) بسبب حركة **رمش** ذكري بوجه صبيّة خرجت من بيت الطاعة .

(مها) تقبلت غمزته ، بلباقة ، بلطف ، وجدتها هدية ثمينة ، تصريح معلن أن البضاعة صارت ملكها ، لم تكن غالية الثمن ، وقفة وبسمة ورفع يد كانت كافية للقبض على **سلعة** الحياة النفيسة وزهرتها ، عليها أن تحافظ على جوهرة نادرة ، أن تستثمرها ، سحبت شهيق النصر ، تألقت بسمتها ، شعّ ضوء لامع من عينيها ، (ماهر) عاد من خوفه ، لم تعد غمزته جرماً سيقوده إلى حرب جاهلية ، رآها تفتح ثغرها ، تطلق آهة طويلة ، بانت أسنانها ، بيضاء لامعة ، بان لسانها ، أحمر شاحباً ، سمع **صهيل** أغوارها ، تحول إلى ذرات هواء ، راحت تسحبه عبر شهيق عميق إلى أنفاقها اللانهائية .

(مها) تحبني . (قال لسانه)

تأسيس عالم جديد يمر عبر بوابة الوله ، يتجرد الجسد من خوفه ، من أحزانه ، من فلسفة البلادة ، من فوضى الكوابيس ، من الجوع ، من

السهر ، من خوانق البيت وأخلاق مفروضة ، عالم سيتشكل ليخلد أو ليموت ، تلك هي فلسفة الحياة في بلاد لا تنام إلاّ على نفحات نيران الحروب ، حروب داخلية تستعر ، حروب خارجية تتشكل ، حروب على الشعب .

حرب (الجيران) مشتعلة .

في الحرب تفقد عقول الساسة بشريتها ، حيوانيتهم تبرز وتخنق عقولهم بفلسفة الغاب ، يفقدون توازنهم ، ينسلخون من قيافتهم البشرية ، في الحرب يكتشف الحاكم أن لسانه يسكب درر البطولة وجواهر حفظ الكرامة ، يطول لسانه ، يخرج على الناس ، حاجزاً كل وسائل البث المباشر ، وكل **صحف** البلاد ، لابساً حلّة المحارب ، متمنطقاً سلاحه ، لسانه يمطر المصاغي بخطب تداوي أوان التعاسة جروح الأكباد الحائرة ، وتشبع أوان القحط البطون الخائرة ، تتشكل جمل لسانه سحراً لتغتصب عقول رعية فارغة ، فينتفضوا بحثاً عن موائد الغيرة للفوز بولائم العز .

حاكمان يتخاصمان ، أو كبشان يتناطحان ، يتبادلان التهديد ، يتراشقان بالوعيد ، كل حاكم من وراء متاريس رعيته ، من مكان لا تمسه شواظ الحرب ، بشطارة ومهارة ، بحذلقة يبرز **عضلات** حكمته ، وقدسية حربه ، كلا الطرفين ، سيفاهما الناس ، مطايا ضحايا لحمل أوزارهم ، يجلسان ، يوجهان بعصا الحكمة قيادة أرواح الجموع المتلاطمة **نحو** الفضاء ، وأجسادهم الفقيرة المنخورة بالرصاص والشظايا وحرائق الكيمياويات لتوسيع مقابر الوطن ، وزيادة أيام العطل الرسمية للبلاد .

الناس أوان الحروب نيام ، ينتظرون عربات الخير الموعود ، عطايا حكّام جدد ، يجيئون بطريقة ما ، بثورة دموية ، بثورة بيضاء ، بانقلاب

عسكري ، بأيّة طريقة ، بتسوية ، بغدر ، بإرادة قاهرة تفرضها قوى خارجية ، غالباً ما تكون طريقة ملتوية ، مظلمة ، تدفن دسائسها داخل جدران القصور الرئاسية ، تحاك سراً ، يتم قتل الحضور فيما بعد ، بطرق مقنعة ومتاحة ، يتم **تخوين** بعضهم ، وبعضهم تهيأ له مكيدة مبيدة ، والبعض يتم تصفيتهم في الحروب ، كل من شهد الأسرار الخطيرة لابد أن يغادر باحة البيت الرئاسي وفناءات أروقة السلطة ، أن يموت إكراماً لعيون الحاكم الجديد ، وحده الظافر بالزعامة يمتلك السر ، ليس من بشري آخر يستحق مشاركته خفايا الدولة ، حتى زوجته وأولاده .

وحيداً . . لا يمتلك شجاعة لقول أسراره ، إذا رغب في يوم ما أن يدوّن مذكراته ، بعد زوال نعمته .

كل زعيم يمتلك خزائن أسرار
ينوء بثقلها ليل نهار
حمار
يحمل كومة أسفار
قبل أن يسترد الزمن وعيه
وتهب الجموع لدحر الأشرار
يسقط الزعيم
مكللاً بأشواك العار
كما صار
عليه فلك الغدر
يدار . . !

***

حكّام العصر ، يشتركون في شعار كوني ، إظلام ما تبقى في الدنيا من بقايا ضياء .

أخيراً . .

الفرح لاح

أخيراً . .

طويت تاريخ الجراح

وغادرتني

مراكب الأتراح

حين فجرها

(فجر . . مها)

في فجري

أسكت المتاعب

استفاق شعري من عيني طفلة العجائب

وعانق

خرس الصباح . . !

****

أمّ (ماهر) قرويّة سليلة (بيت دين) ، وحيدة رجل إلى وقت قريب صاحب دعاء مستجاب ، عاش حياته في قرية نائية تلتصق بـ (تل الجن) ، تبعد عن بلدة (جلبلاء) بثلثي نهار مشياً على الأقدام .

رجل خرج ليلاً ، وجد آلاف العيون الوامضة تخدش ظلام الليل ، عاد يرتجف تاركاً ماء الساقية يغرق حقله ، زوجته هرعت إلى صاحب الكرامات ، سامعاً هز رأسه ، عمل بصمت تميمة ، أمرها أن تخيطه على دشداشته ، وأخرى تضعها في دورق ماء وتسقيه قبل الغروب لمدة سبعة أيّام .

من تلك الحادثة خافت الناس ، قبل أن يخرج صاحب الكرامات من صمته ويخدر عقولهم :

«أعلموا أن الشياطين كل مساء يحتشدون على التلّة مكبلين بالأصفاد ، لا يتجرؤون الدخول إلى منازلكم ما دمت فيكم .!»

الناس لم تصدق كلامه ، قبل أن يجدوا أحد المستهزئين بكلام صاحب الكرامات ممزقاً في العراء قرب التلّة ، كان لا يتوانى من إشاعة كلام صاحب الكرامات متبوعاً بقهقهات عالية ، وجدوه منهوشاً ، فتأكدوا من أن الجن كل مساء يكبلون على المرتفع الترابي كي لا يغشوا أهل القرية بفضل (بيت الدين) .

وصل الخبر إلى البلدات المترامية ، فتدافعت الناس تطلب علاجات روحانية لعلل غامضة تتفشى فيهم .

كل جمعة ، بعد وصول القطار ، تندلق من أحشاء العربات قوافل الناس ، بشتى أشكالهم وألوانهم ، متعبون كأنهم جاءوا من آخر الدنيا ، يبذلون جهداً لتسريع خطواتهم ، يزحفون ساحلين أطفالاً ذكوراً وإناثاً لا يسكتون ، حفاة ، أشباه عراة ، كأنهم خلقوا للبكاء وتعذيب أولياء أمورهم .

قبيل الظهر بساعة ونصف الساعة يعج البيت بصخبهم ، ينهمك صاحب الكرامات بهمة ونشاط ، غير عابئ بشيخوخته ، يحرص على توفير سبل الراحة للضيوف ، يلاطف الصغار ، يمرر يديه الخشنتين على رؤوسهم الحليقة ، تنتابهم نوبات ذعر وهم ينحتون عيونهم بوجه رجل مسن يسترسل **ذقنه** لحية ثلجية طويلة ، يرشق وجوه الكبار بابتسامات متوازنة ، تعتبرها الناس فأل خير ، وبوادر بشارة تعلن بوضوح قرب تحقيق المراد .

أكثر المبتلين بالعلل شبه المستعصية ، أرهط شباب ، منهكين ، عيونهم غائرة ، وجوههم فقدت التماعات العافية ، ألسنة أمهاتهم تعلن صراحة وبيقين لا يتزعزع :

«يا جدّي . . ابني مسكون بوباء الخبال .»

الخبال يعني عندهم بحكم المنطق المردة والشياطين ، وبتفسير **شعبي** أدق يعنون الجن .

شبّاب تعذر عليهم إيجاد أضلاعهم المبتورة ، أينما وجهوا سفن رغباتهم الجسدية ، أينما وجدوا فتاة ناهدة ، جاهزة لتكملة **دين ودنيا** أحدهم ، وإقامة نواة أسرة في **مراحيض** المستقبل ، كان باب الرفض يوصد قبل وصولهم ، أكثر الأسباب شيوعاً ، هيمنة نعرة العرقية على عقول الناس ، تأتي الطائفية سبباً ثانوياً ، في مواقف كثيرة لم تشكل

عائقاً عصياً ، عندما **يطفح** كيل منزل بسبب قرب **سقوط** أنثاهم .
ندماً تدخل كل أنثى متعالية **برمودا** الشيخوخة .

جيش عوانس ، لا شاب في البلدة يرغب في الاقتران بهن ، رغم تناثر دعوات مغرية ، تطلقها علناً ، عبر ألسنة النسوة وألسنة آبائهن تسنيداً للدعوة ، من يرغب أن يتزوج عانسة ، يعفى من المهر ، مؤخره ومؤجله ، بعض تلك العوائل قدّمت مغريات أخرى ، صرحت أنها تقدم أثاثاً كاملاً لمن يتقدم لخطبة عانسها ، بعدما استفحل الأمر ، وغرقت البلدة بالعوانس والشباب المتمردين ، تنازلت كل العائلات عن **ذهب** العروس .

لم تجد تلك المغريات المعسولة صدى لدى شباب خاضعين لسلطة البيت ، كل واحد يعرف أن المرأة بعدما يتم الدخول عليها ، تفقد صبرها فتخرج من فمها **أفعى** المشاكل .

كل أم في البلدة صاحبة القرار ، كلامها (فيتو) يفند كل نقاش ، الآباء عاجزون عن خوض أشواط ملاسنات عقيمة ، علمتهم التجارب ، ثرثرتهم نهايتها محسومة ، مهما امتلكوا من براهين وأدلة تقر برجحان أفكارهم ، و (قوامون) هم الشرعي عليهن ، لابد أنهم يخضعون لحكمة شائعة :

«الأم أقدر من الرجل **على** قراءة مستقبل أبنائها .»

كلام تتباهى به النسوة ، بعدما تراجع الأب من قيادة مركب البيت رغم عداوة الزمن وتقلباته ، رغم الفوضى الحاصلة ، الآباء خلقوا طعاماً لحروب المجانين ، أفكارهم لم تعد **حوافز** تدفع الحياة نحو الصلاح ، النساء وجدن في اضمحلال قدرات الآباء العقلية فرصة لاستلام قيادة مركب البيت ، قبل أن ينتقلن لكراسي السيادة

والسلطة ، خرجن من بلادتهن ، حملن في ضبابية الأيّام راية الرجولة ، رحن بـ **جهر** القول يؤكدن ، أنهن قادرات على تحدي المصاعب وحمل أوزار الحياة وقيادتها نحو شاطئ السلام بعدما فشل الآباء في تحقيق ذلك منذ نشأة الخليقة .

حكيمات عند الشدّة ، اكتسبن الخبرة سريعاً في ظل حروب تتلاحق ، لم يعد البيت مكانهن ، خراب قديم أجّل تحقيق الرخاء العالمي ، ولى زمن **ناقصات** العقل والدين ، تسلحن بجرأتهن المضمرة ، لم يترددن في خوض دهاليز الزمن **العصيّة** لمواصلة تمشية أمور البيت ، بعدما كان الرجل **يرقد** عليها ليلاً ، ها هو يرتخي لينام على ظهره وتركب **هي** عليه ، وراء كل خطوة خطوة لاحقة ، يمتلكن على حد زعمهن ، قدرات شبه تنبؤية ، الجنّة تحت أقدامهن ، لما لم تخضع الأرض وتخمد تحت نعالهن ، قلوبهن أصفى من قلوب الرجال ، قلب الرجل مشغول بهموم دنيا الحروب ونعيم الآخرة ، لم يعد لديهم رؤية واضحة في **تقشير** الزمن من ترسباته ، الأمهات بوسعهن استحضار لوحة حياة أبنائهن ، طالما **دنياهن دينهن** ، كل أم تختار البنت المناسبة لمزاجها ، لا يحق للابن الإفصاح عن خلجاته ، لم يعد الجمال مشكلة ستعقد الكثير من رغبات الشباب ، كلهن يمتلكن الفجوة نفسها ، **والحرارة نفسها** في الفراش .

أرهط شباب تسكنهم الشياطين والأبالسة ، يسهرون الليالي ، عيونهم متحجرة في الفراغات ، في الفراغات تحوم أشباح ، إنها الشياطين ، مع حلول الليل ، عندما يخلدون إلى فراشهم ، عندما تكون الشوارع خاضعة لسدنة الظلام ، تهبط مواكب الشياطين ، يمارسون التعذيب الروحي عليهم ، عمليات فورية تجرى ، **تنويم شيطاني** ، ليس

بوسع الشيطان تحقيق أهدافه التدميرية للروح البشرية ، ما لم يغطس الجسد في بركة النوم ، حين يغلبهم النوم يصارعون شراسة الكوابيس .

لم يعد أحدهم يمتلك كما كان شهية مفتوحة ، يبرد طعامه بين يديه ، يتحجر ، العينان تحدقان ، رغبة التقيؤ حاضرة ، لا شيء غير الماء ، يخرج الشاب المصدوم من ذهوله ، يمده بأيّام أخر للبقاء ، أجسادهم بدأت تضمر ، عظام الأجساد طفقت تبرز ، الأب ، الأم في نفير متواصل ، تتهاوى السبل ، تنهار المعنويات ، تدخل العائلة مضمار السباق نحو تلك القرية ، قرب (تل الجن) حيث صاحب الكرامات يمتلك آخر العلاجات النافعة .

صباحاً يأتون وحتى المساء .

القريبون يأتون ويغادرون مشياً أو على ظهور الحمير ، بعضهم يأتي من مكان بعيد ، عليه أن ينام في (بيت الدين) ، ليس بمتناول اليد وسيلة نقل ترجعه ، فالقطار يمر بالقرية صباحاً ، والقطار الراجع يأتي بعد ساعتين ، وهذا الوقت لا يكفي الناس كي يعودوا متعافين .

في تلك الأيّام ، لم يكن (ماهر) موجوداً ، لم يكن أبوه قد تعرف على أمّه ، لم تكن الطرق معبدة ما بين البلدة وقراها ، كانت القاطرة وسيلة تواصل وحيدة ، بتعثراته ، بقذفات بخاره ، بعربات خشبية منزوعة النوافذ .

توجد ممرات ترابية متعرجة ، تخترق سلسلة غير مأمونة من الجبال والمنحدرات ، تلك الممرات تغدو متعذرة في الشتاءات ، تنحسر مياه الأمطار لتشكل موانع مائية عصية ، الوصول إلى البلدة على ظهور الحمير أو سيراً على الأقدام ، يتطلب حساب كل الاحتمالات الواردة ، على المسافر أن يحسب حساب مبيته في البلدة حتى اليوم اللاحق ،

القرويون هندسوا حيواتهم وفق نظام مبرمج ، فهم يتبضعون في كل أسبوع مرة ، البعض كل شهر مرة ، كل واحد برمج حياته وفق طول يديه وسعة رزقه .

أقوال تحكيها الأم في كل مناسبة ، بعدما صاغ القدر نسيج حياتيهما ، حياتها وحياة الأب ، ضمن محيط لم يجدا فيه سوى **سمكة** واحدة ، تلك السمكة أسمياه . . (ماهر) .

صاحب الكرامات الذي جعله القدر أن يغدو جد (ماهر) بنى غرفتين إضافيتين للزوّار ، غرف بيته لم تعد تستوعب زحف الناس ، بدأ صيته ينتشر مع مد الأمراض المتناسلة ، وراحت القوافل البشرية تتواصل .

عندما تكون إنساناً في بلد مجنون ، في بلد تستقيم بالنار والرصاص ، تهبط عليك كوابيس اليأس وتأكلك هلوسات الضجر ، لم تعد العقاقير الطبية توقف هذياناتك ، حتماً تتقهقر أوان الضيق إلى فطرتك ، إلى عالم الغيب والشهادة ، متوسلاً ، عند النجاة من الغمّة وزوال المصيبة ، ستمشي على سكّة الله لعباده .

القطار المار بالقرية يتجه نحو بلدة (خانقين) ، أحياناً يفرغ حمولته البشرية كاملة ، قبل أن ينطلق فارغاً إلاّ من طاقم السياقة وشرطي حارس يرافق القطار ، تحسباً للطوارئ ، ذلك الشرطي بشاربيه الكثّين ، يشهر دائماً صفداً بيديه ، يحبس كل فرد لم يقتطع تذكرة سفر في عربة خشبية ، بغية تسليمه إلى شرطة البلدة ، لم تشفع ولا تنفع الأعذار ، يطلق سراحه بعد أن يغرم ثلاثة أضعاف ثمن التذكرة ، أو السجن لثلاثة أيّام في محجر لا يصلح إلاّ مخزناً للمهملات لمن لا يملك نقوداً .

مساحة البيت سمحت للجد ببناء غرفتين لا أكثر ، رغم رغبته الدائمة ، في بناء مجموعة غرف تحسباً لارتفاع نسبة الزائرين ، كان يخشى أن يضيق بهم البيت ، ويكتشف نفسه في **ورطة** تسيء إلى سمعته ، أو **ينجبر** الى اللجوء إلى وسيلة إعطاء **تواريخ** حجز للمعلولين على غرار الأطباء في عياداتهم الخاصة .

لم يمتلك حيلة تخرجه من حيرته ، عرف عنه أنه كان يعتمد على الله ، لا يطلب العون من أحد ، يحسب الاعتماد على العباد في الكثير من المواطن ، إشراكاً بالخالق ، اللجوء إليه يحسبه وساطة ، كون العبد – كما يصرح في كل محفل وتجمع – يحتاج إلى جسرٍ كي يرتبط بخالقه ، الأنبياء والأولياء الصالحون كانوا جسوراً متينة ماً بين العباد وخالقهم ، هذا زمان ما بعد الأنبياء ، رجال صالحون **دس** الخالق فيهم بعض الكرامات ، لتيسير أمور العباد ، رسالة علنية لمن يشكك بقدرة الخالق وعظمته في التحكم بمجريات الكون ، علنه وغيبه .

جاره رفض بيعه مساحة من حوش بيته ، قيل رفضه جاء من باب الغيرة والحسد ، رغم أن جاره كان الشخص المستفيد الأكبر من تلك الزيارات البشرية إلى (بيت الدين) ، كان يمتلك دكاناً توسع رزقه مع زيادة نسبة الزائرين ، لم يلح الجد عليه ، رغم إلحاحات الناس بضرورة مفاتحته بالموضوع ، كون القرية بدأت تثير اهتمام الناس ، مما يلفت أنظار الحكومة ، قد يسهل الأمر بتعبيد طرقها ونصب مضخة ماء صالح للشرب .

لم تحرك ألسنة الناس صاحب الكرامات ، ظلّ يسمع ويهز رأسه ، الناس في وادٍ تاهوا وظلّ الجد في مرتفع يواريهم ، لم يدر بخلد أحد أن الجار طلب سراً من صاحب الكرامات **ابنته** الوحيدة زوجة **ثانية** له

مقابل بضعة أمتار يتنازل له من حوش بيته .

الجد ترك أمره لله ، وجد بناء غرفتين كبيرتين ، توفران له فرص استقبال حشد يربو على الأربعين زائراً وزائرة ، عزم وتوكل ، اشتركت في عملية البناء ابنته التي غدت أم (ماهر) فيما بعد ، كانا يصنعان الطين ويعملان (اللبن) بعد جفافه ، تحوّل الجد إلى بنّاء ، الأم عملت بهمة رهط شباب ، أكدت أكثر من مرة ، أن الجد كان ماهراً في البناء ، كدأب أهل القرى والأرياف ، الذين يبنون بيوتهم بسواعدهم اليابسة .

غرفة للنساء . . غرفة للرجال .

في أيام الصيف لم تكن هناك مشكلة أو ضيق في استقبال الزائرين ، كان فناء البيت واسعاً ، وسطوح الغرف تتسع لجيش معلولين ومعلولات .

موت الجد المفاجئ أوقف تلك الشعائر ، لم يكن لـ (ماهر) خال كي يحافظ على تراث البيت ، الأم كانت تمتلك خبرة متوسطة ، مارست بعض تلك الشعائر شفاهياً على رؤوس نساء وأطفال لفترة تمتد – كما تصرح – من يوم تعلمت من أبيها طقوس الشفاء ، كما تقول كانت في **الثانية عشرة** من عمرها ، حتى يوم خطبتها .

الأب اشترط على أبيها القبول بها زوجة مقابل ترك تلك الطقوس ، ليس لأنه ضعيف الإيمان ، كان ملتزماً ، مواظباً على صلواته جماعة ، رغب أن لا يغدو بيته مجلساً للغو والوشاية والنميمة لمعشر النساء ، نساء الوقت ، مهما ابتلين بالمصائب ، في تجمعاتهن ينسين مصابهن ، تحضر النميمة والغيرة ، لا يتورعن عن هتك أعراض بعض النساء الغائبات ، من هذا الباب ، وخوفاً على دينه واستقامته ، رفض الأب أو بالأحرى اشترط على الجد أن تترك الأم مهنة لا تليق إلاّ

بالرجال ، كونهن **ناقصات** عقل ودين مضيفاً إليهما الإرادة .

وافقت الأم على مطلبه رقم قسوة شرطه ، عبّرت عن ذلك في مناسبات عدّة :

«زواجي منه كان خروجاً لا بد منه من الفردوس .»

أم (ماهر) تعيد هذا الكلام ، كلما تبتئس ، كلما تضيق سبل الحياة أمام نظراتها ، وتشعر بعدم جدوى العيش في مدينة لا تتنازل عن كسلها ، الحنين لأيام شبابها ظلّ مرافقاً لروحها ، وسالباً لفكرها ، وجدت السعادة حلماً غير خالد ، تركته في بيت أبيها ، هناك في قرية صغيرة أسفل تل يومض كل ليلة بآلاف العيون الشررية ، قبل أن تأتي بعثة آثار وتغربل تراب التلّة لتعلن أن التلّة عبارة عن أحجار كلسية وفصوص أملاح متراكمة ، تعكس أشعة النجوم الساقطة عليها ، ووجود جحور هربت منها مئات الجرذان ذات العيون الفوق بنفسجية ، الأمر الذي فند علمياً منطق الفكر لصاحب الكرامات .

لكن مشهد جسد الشاب المستهزئ ظلّ يضخ في عقول الناس ، صدق كلام صاحب الكرامات ، كون أقوال الأجانب ما هي إلاّ فرضيات وافتراءات تعاكس منهج الدين وتحاول **طمس** حقائق الكون الغيبية .

أم (ماهر) لم تتحسر على فقدانها بساطة العيش وراحة النفس ، علمت أن الزواج قدر ، الكل يخضع لسلطانه ، تلك هي لعبة الوجود منذ الأزل ، والزواج **سفينة** شقاء ورخاء في **بحر** الحياة .

في أيامها القروية ، كانت تلتقي بنساء متعددات الأذواق والثقافة ، تعلمت منهن حكايات مسليّة ، تعلمت أن الحياة فيها مكر وفيها صدق ، عرفت أن النساء مبتليات بداء الغيرة وجرثومة الحسد ،

لم تجد من بينهن قانعة بما تملك ، لم تعقب ، لم تعطِ واحدة رأياً حول نظرياتها ، كانت بشوشة ، تستقبل **جمر** كلامهن بـ **كف** ماء .

كنّ يجلبن لها أشياء جميلة تشعرها بقيمتها الأنثوية ، قبل أن يفاجئها القدر ويلقي في ملعبها شعلة القلق ، نار الزواج .

تركت قريتها ، بعدما وجد صاحب الكرامات فتاة (أعجمية) جاءت تطلب مراداً لعنوستها ، فاتحها برغبته ، صارت زوجته وساعده الأيمن في أموره ، تعويضاً عن ابنته ، لكن الزوجة القادمة من الشرق وجدت نفسها (أرمل) بموت الزوج ، فقررت الرحيل .

تقول أم (ماهر) عن خروجها من بيت أبيها :

«أفعى أنسلخ من جلدها إلى الأبد .»

كلّما يقع (ماهر) ما بين فترة وأخرى فريسة علّة عارضة ، زكام أو حرارة تستتب في جسده ، تقول كلامها القديم ، تقوله بعدم رضا ، بحشرجة ، وأحياناً بصوت مختنق ، تذرف جراءها غالي دموعها ، تترقرق الحبيبات الدمعية مزججة في موقيها ، وحين تشعر أنها سببت للابن وجبة **حيرة** دسمة ، بكم ثوبها تزيح دموعها ، تحاول أن تمنحه ابتسامة لطف ، **يعانقها** ويشاركها **تعاسة** حظها ، دائماً تبدو نادمة على خروجها من (بيت الدين) ، من يوم قبلت بالأب زوجاً محترماً ، أفندي قادم من مدن الخيال ليرفع مكانتها ، سيأخذها على **حصان** السرور ، ستعيش في قلعة ، تنام على سرير من حرير ، حولها جوار وغلمان ، وأمرها **دوماً** مطاع .

تكرر الأم :

«بيتنا كان مليئاً بالرحمة وهدوء البال ، النعيم يزحف محمولاً بالأيدي ، وعلى ظهور الحمير ، كل زائر لا يدخل البيت ما لم يحمل

صدقة ، صفائح سمن ، دجاج ، أكياس رز وسكر وشاي وصوابين ، وأشياء بناتية يحملنها نسوة في مظاريف ، يخرجنها أمامي يوم كنت أرقيهن ، البعض **كان** ميسوراً ، يمتلك يداً طويلة ، كان يكتفي بدس تحت فراش جدّك حفنة نقود ، دراهم أو أرباع دنانير ورقية .»

شعرت الأم بقطار عمرها على وشك أن يفوت آخر محطة في طريقها ، لم تعد هناك سنوات مضافة كي يوقف المرء حياته لبرهة زمنية مقتطعة ، كما يحصل في بعض الألعاب الرياضية ، عندما يطالب أحد المدربين بوقت مستقطع لا يحسم من عمر المباراة ، الوقت المستقطع حق مشروع ليراجع كل جهة متبارية حساباته وتصحيح خلل اللاعبين .

لو كان العمر فيه وقت متوقف لـ (**ربتما**) استعاد المرء المهموم توازنه ، وكسب فرصاً أكثر مثالية .

كل شيء يمضي ، الجسد يترهل ، العمر ورود تذبل ، الشعر يخطه الشيب ، الوجه ينكمش ، العاطفة نيران بلا وقود لابد أنها ستخمد ، فرص الإنجاب تنحسر ، لم تعد الفرص الكبيرة تتوافر ، الحياة تنحدر ، الناس تتشتت ، الشباب لا يرغبون في تمضية رحلة حياتية مع العوانس ، من حقهم أن يتجنبوا نساء لم تعد لديهن فرص كثيرة لإنجاب نصف دزينة من الأبناء ، رغبة آباء لا يشعرون بقيمتهم ، ما لم يكن لديهم جيش أحفاد ، رغبة أمهات كنزهن الخالد أحفاد ذكور .

كادت الأم أن تهوي في مستنقع العنوسة ، لولا القدر ، رحم حالها ، جاء يريد شيئاً مختلفاً ، خارج حسابات الأمزجة والأحلام ، خبأ ما لم يكن في الحسبان :

«جوهرة قدمت من السماء .» . قالت عنه يوم الخطوبة .

غالباً ما تنقلب الأمور ، غالباً ما تشتهي السفن رياحاً دافعة ، تأتي

الرياح صادة ، عكس الرغبة ، تلك هي أحابيل الحياة و**مزاحاتها** الثقيلة ، انقلبت الأمور ، لم يعد الاقتران برجلٍ مناسب يسكن المرأة في نعيم دائم ، كلام قديم تعرفه الناس ، لكن سر اللهاث من أجل تكوين الأسرة قدر غاصب ، الغوص في هذا الجحيم هو الدرب المنقذ للبشرية من الزوال ، من ثقل الليل ، من ضغط الظروف ، من استمرارية **حضارة** التعاسة .

اكتشفت الأم بغريزتها الفطرية ، بحكمتها القرويّة ، حياة المدينة تختلف عن حياة القرية ، كل شيء يلفه الغموض والتعقيد ، في المدن المرء يلهث دائماً ، يتنازل عن سعادته ، مقابل ديمومة تواجده ، العيش في المدن الكبيرة ، مثل السكن في عالم البحار والمحيطات ، أسماك البحار والمحيطات تترقب ، لا تنام ، في جوارها كواسج وإخطبوطات وأسماك القرش ، لا داعي للمرح ، البقاء هو الفردوس الأسمى ، كل شيء يخضع لقانون الافتراس ، مفترس وفريسة ، ميزان متوازن الكفتين ، أسماك الأنهر الصغيرة تعيش بسعادة ، بعيدة عن فكرة الأنياب الساحقة ، تمتلك الوقت الكافي للبحبوحة ، هكذا حال الناس ، في القرى والمدن ، إنهم **أسماك** و**حيتان** ليس غير .

بدأت حياتها تضغط ، فرص السعادة لم تعد تلوح في الأفق ، على المرء أن يغير من مفاهيمه وفق ظرفه ، كل شيء يتبدل ، أحلام الطفولة لم تعد تنفع مرحلة النضج ، عندما يكبر العقل ، الحياة تغدو جحيماً .

الأب كان يشكو من مرض قديم ، عذّبه ، شد الرحال إلى (بيت الدين) ، في رأسه أمل يومض :

«تأتي الحلول النبيلة من خارج منطقة الوعي أحياناً .» .كلام سمعه من صديق .

قرر أن يجرب تلك الفلسفة المتواضعة ، في اللحظة الملائمة ، اكتشف طريقاً صائبة ، يمكنه التخلص من عذاب لا يرعوي ، يسكنه ويباغته أوقات راحته ، كان صداعاً متواصلاً ، يحرجه في فترات متفاوتة ، لم تنفعه العقاقير ، نصحه صديق عن طريق الصدفة ، أن يراجع (بيت الدين) ، آخر العلاجات المقنعة ، بعدما اقتنع بتعذر شفائه بعقاقير ظلّت تستنزف نصف راتبه على مدار السنة ، أعشاب طبيّة التهمت نصف ما يبقى في جيبه من نصف راتبه ، عزم وتوكل ، ركب دراجته ، رغب أن يغامر ، كانت المسافة تربو على ساعة ونصف الساعة بالقطار الصاعد نحو بلدة (خانقين) ، عليه أن يكون حازماً ، الطريق ملتوية ، عليه أن يضع في الحسبان ، هناك مسافات ليست قليلة لا يمكن للدراجة أن تمر من خلالها ، يجب أن يرفع هو دراجته ويمشي صاعداً ونازلاً ، حمد وشكر لأنه لم يمتلك حماراً ، فمن بوسعه **حمل** حمار والسير به صعودا وهبوطاً ، كانت الدراجة أرحم ، أخف وألطف حملاً من الحمار ، كل شيء وضعه في باله ، اختار اليوم الملائم ، يوم تخلص من عذاب صداعه ، ليس بوسع الصداع أن يباغته قبل مرور أيّام ، باغته وسكن رأسه ، طرحه كدجاجة مذبوحة لنصف نهار ، تعافى وقتياً ، قرر تطبيق ما عزم عليه ، تلبية لإلحاح صاحبه ، تزود بما كان يملك من زاد متواضع :

«وضعت في الكيس صمّوناً عسكرياً ، حفنة تمر زهدي ، زجاجة ماء ، وأخرى لبن .»

انطلق بعد صلاة الفجر ، الجو يكون رائقاً ، الهواء يهب منعشاً مرطباً بندى النهر وطراوة النباتات ، عليه أن يصل قبل أن تغدو الشمس كرة نار تبدد طاقته ، بعد عناء ومشقة ، بعدما نفد زاده ، وصل

(بيت الدين) عند منتصف الظهيرة :

«تعبت ، لم أكن أتصور أن صعود الجبال مرهق ، والوديان متعذرة المشي ، كدت أن أركن الدراجة إلى مغارة ، لأواصل سيري على الأقدام ، لولا عشقي للمغامرة وتحدي الصعاب .»

لم يكن يوم شد الرحال يوم (جمعة) ، كما يتذكر ، كان البيت فارغاً ، شعر براحة تامة ، كان يمقت التجمعات البشرية ، يشعر دائماً في العزلة منفعة شخصية ، يحتاج المرء للعزلة ، كي يريح لسانه ، يستطيع أن يمنح جسده فرصة استرخاء ، يمكنه أن يرسم برامج أحلامه ، وفق ما يشتهي ، بعيداً عن أعين حاسدة ، وألسنة جاهزة للسلق ، تلك كانت من أدبيات فلسفته مذ شب وحيداً بلا أخ أو أخت ، بلا أم وأب .

كان وحيد رجل هاجر إلى بلاد فارس ، كان مهرباً ، لم يعد من آخر رحلة له ، بقيت أمّه تنتظر ، مرت الأيّام ، ترعرع ووجد عملاً ، مستخدم في معسكر الجيش ، قبل أن تموت أمّه ، جاءته فرص كثيرة للزواج ، ظلّ متمرداً ، يشعر بعقدة نفسية من النساء ، ربما بسبب صداعه المتواصل ، أو لحاجة في نفسه ، لم يوضح لأحد ذات يوم سبب نفوره .

عند وصوله (بيت الدين) ، وقف ينتظر ، نادته امرأة :

«عيب أن تطرق الباب ، بيت السيد مفتوح للضيوف .»

فهم كلامها ، ركن دراجته إلى حائط طيني وسط استغراب رهط صبيان تجمعوا من حوله . . أضافت المرأة :

«أدخل دراجتك معك ، قبل أن ينتزعوا إطاريها .»

دخل وجلس في غرفة المضيف ، الجد كان منشغلاً بصلاته ،

استغرقت طقوسه أكثر من ربع ساعة ، عندما نهض قابل شاباً ممتقع الوجه ، يتكلم بصعوبة ، جلس الجد لصقه ، عرف كيف يمتص زخم الخجل منه ، عرف سبب تقوقعه ، مسك رأسه بيديه ، حدّق طويلاً في عينيه :

«في رأسك يسكن **شيطان** رجيم عليه اللعنة»

أشربه الجد ماء ممزوجاً ببصاقه ، نادى على الغداء ، تغديا معاً ، عاود القراءة على رأسه ، قرأ بعض السور (وتفل) مرة ثانية في طاسة ماء (تفلة) شفاء ، كرع الأب الماء الممزوج بالبصاق ، على مضض .

«كادت أحشائي أن تندلق .» جملة ظلّت على لسانه .

دخول شاب غريب في أي بيت قروي يحرك **الجو** العاطفي لنساء البيت ، بنت وقفت ، تحفر عميقاً بعين المستقبل ، بشهوة تكاد أن تتصلد ، وجه شاب خجول ، يمتلك عذاباً وذهولاً لافتاً ، شاءت الصدفة أن يأتي العلاج شافياً ، جهل الأب سبب شفائه ، أكان من جراء الرقية أم من البصاق المتحلل في طاسة الماء ، أم من نظرات البنت التي صارت فيما بعد شريكة فراشه .

بعد أسبوع زار الأب أبيها كي يشكره على صنيعه ، رافقه صديقه ، لم يركبا دراجتيهما ، ركبا القطار ، كونه تخلص بشكل شبه دائم من صداع نصفي أثقل عليه زمنه ، بعد حوار قصير ، عرف أبو الأم – الذي صار بعد تلك الجلسة جداً لـ (ماهر) الذي لم يولد بعد – أن الأب وحيد وعازب ، لم يتطلب الأمر مزاورات وجلسات أقناع بين العائلتين ، فاتح الأب بالموضوع ، شهد على أخلاقه صديقه ، لم يمتلك الأب سوى شرطه الوحيد ، وافق الطرفان على ذلك بعدما طارت الأم من هول الفرح ، رغم قولتها الشهيرة ، بخصوص خروجها بمحض رغبتها

من بيت النعيم ودخولها على مضض بيت الجحيم .

«تزوجنا وعشنا في البلدة .»

الأب . . مستخدم في معسكر البلدة ، يذهب بدراجته الهوائية إلى عمله ، كل يوم يحمل معه كيس خيش ، مربوطاً على المقعد الخلفي لدراجته ، في الكيس (صمون) عسكري ، تبيع الأم بعضه ، وبعضه تبقيه للمعيشة .

انحسر عمل الأم في البيت ، كانت ترقي (الابن) بعد ولادته وترقي الأب أحياناً عندما يكون متعباً ، كانت تقول :

«التعب سببه سكن الشياطين في الجسد .»

يضع رأسه في حجرها ، يدا الأم تمسدان شعر رأسه ، تغمض عينيها ، تقرأ بصوت واضح ومرتفع قليلاً ، آيات الرقيّة ، يغطس الأب في قيلولة ، رأسه على فخذها ، رغم أنها تعاني من خدرٍ ينمو في ساقيها ، لكنها لم ترغب ذات يوم أن تنهضه من قيلولته الشفائية .

في حالات شبه يومية ، يراقب (ماهر) الأم ترقي نفسها صباحاً ومساء ، تجلس ، واضعة قرص الشمس في يسارها عند الصباح ، وعند الغروب يكون القرص الغاطس في فك الأرض عن يمينها ، تغمض عينيها ، تتمتم كلمات غامضة ، حين تفيق تجده جالساً ، تكتفي بابتسامة ترشقها بوجهه ، قبل أن تعانقه وتمطر وجنتيه بسيل قبلات قروية شبه وحشية .

موت الجد جاء بعد ولادة (ماهر) بـ سنة ، زارهم في البيت كما تقول الأم ، رقّاه ووضع بعض الدنانير في علبة معدنية جلبها له الأب يوم ولادته ، تلك العلبة جلبها لجمع النقود ، كان يضع قطعة نقدية في فم العلبة ، مصروفه اليومي حتى موعد شبوبه عن الطوق ، ظلّت العلبة

تستقبل مصاريفه اليومية وكل ما يحصل عليه من بعض الزائرين في مناسبات الأعياد ، حتى **السادسة** من عمره ، يوم احتفلوا برفع الغطاء وإحصاء النقود بفرح ، قبل ليلة عيد الأضحى بيومين ، كانت **ستّين** ديناراً **وستة** دراهم **وستين** فلساً ، اشتروا ملابس العيد وحاجياته .

نساء كثيرات زحفن إلى البيت ، حاولن أن يقنعن الأم كي تمسك (الطريقة) ، لها خبرتها ، ما زلن يحتفظن لها بكثير من المودة ، كونها رقّت لهن أطفالاً معلولين ، نهضوا متعافين من رقية واحدة ، أردن منها أن تواصل ممارسة الشعائر الدينية والطقوس الشرعية المباركة ، بعد الخسران المبين كما أشيع في البلدة بخصوص موت الجد ، رفضت الأم طلبهن ، مجددة العهد الذي أقسمت عليه يوم خطوبتها ، لا يمكن أن تحنث بوعدها ، نساء القرى كلامهن قرار غير قابل للنقض ، عكس نساء المدن ، يطلقن الكلام جزافاً ، إيمانهن بمعتقداتهن لا يتجاوز حدود اللسان ، نساء القرى حكيمات ، يشربن من ماء الطبيعة ، صبورات ، قانعات ، يقدسن الرجال ، هذه الأشياء تنعدم في المدن ، فكل ما هو أصيل لا يترك إلاّ أصيلاً .

نساء **الوقت** تغيرن عن سابقاتهن ، كونهن جئن إلى أحضان رجال من اختيارات أمزجة الأمهات .

الأم كل كلامها مدوّناً في أرشيف ذهنها ، جواهر لا يمكن الإخلال ببنودها ، التفريط بها خروج من فلك الأخلاق ، وولوج **مستنقع** الحداثة .

لم تعد تمتلك طاقة كي تجلس أمام نماذج بشرية ابتليت بعلل غريبة ، كان هذا رأي الابن ، فالحياة تغيرت ، في المدن تسكن الشياطين ، لم تعد فرص التخلص من العلل ممكنة .

ضغط الماضي ، قرارها المبرم ، أشياء ترفض التراجع عن عهد موثق شهد عليه الجد ، وصديق الأب ، تلك كانت الأسباب الوجيهة لرفضها القاطع لرغبات النساء .

النساء المبتليات ، شرحن كثيراً أسباب البلاءات المتواصلة ، أمراض غريبة متفشية ، عندما تفرغ البلدة من رجالها الصالحين ، من بيت كان لا يدخله الشيطان ، تغدو جسداً يفتقر إلى الفيتامينات المضادة لنمو البكتريا ، الأمر الذي يشجع الجراثيم أن تحتشد وتشن غاراتها الوبائية ، مضت البلدة عرضة لكل حبائل الشيطان ، لا سيطرات تمنع مرور عربات الجحيم ، كل الزلل واردة في البلدة ، نتيجة رحيل الرجل المبارك صاحب الكرامات ، على حد زعم كل النساء .

عندما حصل الفراغ المهول ، جيّش الشيطان جنوده لينتقم من الناس بعد سنوات عقيمة من الحروب ، حامل لوائها كان الجد ، كان جند الشيطان هم الخائبون ، رجل صالح يمكنه طرد شياطين الأرض ، ويمنع بإذن الله تعالى الوباء والقحط ، موته خسارة لا تعوّض ، ما لم تنهض الأم الشجرة الوحيدة ، سليلة (بيت الدين) ، صاحبة المواقف المشهودة في فترة عزوبيتها ، ما لم تنتفض ، ما لم تراجع قرارها ، بلدتها في محنة ، بلدتها تراخت أمام وسوسات الشيطان ، عليها أن تلبس لباس الحرب ، أن تشهر سيف الحق ، أن تحمل الراية المنتكسة من جديد ، لوقف عبث الأمراض بفقراء الزمان .

كادت الأم أن تركن إليهن .

نساء يبكين في حضرتها ، كن يجلبن أطفالهن ، في ملحمة بكاء ، في ملحمة قذارة تلملم جيوش الذباب ، أطفال حفاة عراة ، يسيل مخاطهم ، يتبولون ، يتبرزون في الغرف وفناء الدار ، وجدت

غيرتها تنهض ، يتفاعل فيها حب الخير ، نامت ليالي طويلة على أمل أن يزورها الأب ، أن يمنحها (**فيزا**) العمل ، مضت الليالي عجافاً ، شبعت كوابيسَ ، لم تكن هناك شرارة تخويل تخرجها من سباتها .

هزّات رأسها أمام النساء ، كانت كافية لإسكاتهن ، كافية على إخماد حدة هلعهن ، كنّ ينسحبن راضيات ، وجوههن تطفح بالبشر بعد كساء التذمر ، كن يعتبرن هزّات رأس الأم بارقة أمل ، مهلة تأمل ، بادرة عودة سريعة ، وعداً قريب التحقق لعودة الطقوس الدينية للبلدة .

الأب كان يرصد هواجس الأم ، لا يتورع عن ترديد بنود ذلك الاتفاق المبرم يوم طلب يدها على مصاغيها ، شجاعتها كانت موجودة ، تمكنت أخيراً من **كبح** جماح رغبة قديمة أنهضتها دموع نساء مفجوعات ، تمكنت أن تعلن ، بصراحة ترد ، لم تعد تمتلك ذاكرتها القديمة ، جواباً يقنع ، يقينها المتفجر أيّام عزوبيتها **تكلس** بسبب ظروف الحياة ، نامت فيها فراستها ، مذ توقفت عن مزاولة **مهنة** تطبيب المعلولين بالكلام والتمائم ، تلك الطقوس ما عادت تنفع هذه الأيّام ، قضت الحداثة على كل ما هو إرث نافع ، جف ينبوع صبر الناس ، انتكست راية إيمانهم :

«الشياطين غيّرت مناهج حربها ، أدركت السبل الكفيلة لفناء الناس .)

تمضي الأيام .

مساعي النسوة الحثيثة باءت بالفشل ، مللن تكرار الزيارة ، أيقنَّ أنها لم تعد تلك الفتاة صاحبة البسمة الدائمة وخفّة الروح ، بل امرأة حجرية ، نظراتها غريبة يلوح في أعماقها عراك وغضب ، أيقنَّ أنها بدّلت تواضعها بصلابة عناد ، نسيت قرويتها ، نسيت تواضعها ،

انسلخت من سلالتها الدينية ، ولبست لبوس العناد والتكبر .

مضت حياة البلدة كما شاءت أن تمضي .

ناس يموتون بطرق شتى ، ناس يولدون **بطريقة** واحدة .

الأب **مات** مدهوساً .

كان (ماهر) في **الثانية عشرة** من عمره ، كان عمر الأب يوم دهس **ثمانية وأربعين** عاماً ، ربما هناك سر أو توافق غير مقصود ، ما بين الحالات التي واصلت جدولة حياتهم وفق حساب ثابت أو مضاعفات ذلك الحساب ، الأم في ذلك العمر تعلمت فن الرقية وعمل التمائم ، كانت في **الثانية عشرة** ، (ماهر) في ذلك العمر أصبح يتيماً في **الثانية عشرة** ، الأم كانت في **السادسة والثلاثين** يوم تزوجها الأب ، عمرها هو مضاعفات الرقم **أثني عشر** ، الجد مات في **الثانية والسبعين** أيضاً ، عملية حسابية بسيطة تكشف أن الجد أيضاً عاش **ست (أثنا عشرات)** ، يمكن أن يضاف حساب النقود يوم كسروا قاصة الطفولة كانت ستين ديناراً وستة دراهم وستين فلساً ، وهو خمسة **(اثنا عشرات)** دنانير ونصف **(اثنا عشر)** دراهم وخمسة **(اثنا عشرات)** فلسات .

كل شيء وارد في أزمنة البلدة العجيبة ، توافق الحسابات دليل قوّة خفّية لبعض الناس ، تسيِّر سفينة حياتهم على أسس رياضية متماسكة ومقصودة .

سبب موت الأب كان عارضاً ، قيل . . الصداع عاوده قبل موت الجد بسنة واحدة ، أي بـ **(اثني عشر)** شهراً ، ظلّ يصرعه في هلوسات جنونية لا ينفك منها إلاّ بصعوبة بالغة وبمساعدة زملاء ، يبقون ممسكينه بقوّة حتى يسترد وعيه ، داهمته الهلوسة وهو يقف على الشارع

الرئيس للبلدة ، كان ممسكاً دراجته ، ينتظر صديقه ، كي يرجعان معاً ، لصقاً بمحاذاة البعض يسوقان دراجتيهما وهما يغردان بما يحفظان من أناشيد الفقر ، فرحين بحياتيهما ، قانعين بعمليهما ، انتظر (الأب) زميله بعدما أطلق صفيراً من ورائه ، في تلك اللحظة خرجت مركبة (زيل) من حوض الشارع وعجنته ، قيل إن سائق (الزيل) كان سكران ، وجدوه يحتسي المشروب وهو يقود مركبته ، في المركبة وجدوا ست قناني (بيرة) ، كان عمر السائق يوم دهس أباه ، **أربعة وعشرين** عاماً و**مائة وعشرين** يوماً ، كما هو مثبت في دفتر خدمته العسكرية .

تنازلت الأم عنه في المحكمة بعدما دفع (ديّة) متواضعة ، قدرها **مائة وعشرون** ديناراً .

صباح آخر .

(ماهر) خطا خطوة ، مرتبكاً ، مختنقاً ، في المكان الذي وقفت (مها) فيه ، استعاد ملامح الأشياء ، صفاء تام في عينيه ، خرس المنازل ، قامات الأشجار ما تزال باسقة ، ارتزاق الطيور ، لا جديد في البلدة ، كل شيء يفرض رتابته .

صفعه صوت :

«أين تروح .؟»

شجاعة (مها) عندما تتكلم ، قالت ما عندها ، بيقين أفرغت **حمولة** قلبها ، (ماهر) خائفاً يمشي ، سمع ما قالت ، ناسياً فكرته ، لم يعد يتذكر ما كان يشغله ، ما كان يجول بذهنه ، كلام (مها) دخل ذهنه ، معول قدم من شاهق ، نسف كل رغبة كان بصدد بلورتها .

ظل يمشي ، يلهث ، يترقب .

عند الشارع الوحيد للبلدة ، العالم يواصل حياته ، مركبات تمرق ، ناس تتقاطع ، لا جديد يعيد راحة الناس ، الكل يلهث ، الحرب تستعر ، المركبات تحارب بطريقتها الخاصة ، الموت حضر ، يحوم فوق البيوت ، يختار طرائده ، لا يهمه شكل الضحية ، طولها أو عرضها ، غناها أو فقرها ، شيخوختها أو طفولتها ، عطاؤها أو استهلاكها ، أنثى ، ذكر ، غبي ، ذكي ، بشر ، حيوان ، حجر ، في الحرب كل كائن متنفس وكل جماد غير متنفس يخضع لسلطة الموت ، الكل يتحرك بلهاث ، بموت يستوطنه .

وقف كمجرم غير محترف ، غبي ، غير متحصن بالحيطة واليقظة ، أسقط نفسه بملء إرادته في فخ مكشوف .

ماذا حدث .؟ (قال لسانه)

جاءت فتاة صغيرة تلهث ، وقفت قربه ، سمع حشرجتها ، في عينيها كلام ، ترقب بعين خبيرة حركة الشارع ، تنتهز فرصة ما ، ألقت شيئاً وهربت ، عيناه تحجرتا ، مرتجفاً حمل ورقة مطوية ، **لغم** صار في يده ، كأنه في لحظة قتل كائن بريء من غير دوافع ، لم يعد المكان يحتمله ، هلعه دفعه ، قدماه تتضاربان ، وصل بداية الجبال ، خائفاً يترقب ، أشباح تطارده ، عيون تتلصص ، أنفاس تزفر ساخرة بوجهه ، كل شيء يلاحقه ، قلبه يتمرد ، صدره يضيق ، نار تحرق يديه ، كل الأمكنة لم تعد آمنة ، لم يجد وازعاً يدفعه أن يجد مكاناً **فارغاً** من الخوف ، وجد حفرة ، نزل وقرأ أوراق الجهات ، لا شيء سوى هلعه ، لا شيء سوى زجاج شفيف يزجج الرؤية ، السماء تمرر قوافل طيور تهرب من الجبهات ، سحب شهيقاً ، لفظ زفيراً ، خرج معها نصف خوفه ، فتح الورقة ، تصادمت الكلمات ، خطوط متعرجة ، كلمات تعطي فكرة أنها كتبت في لحظة خوف ، أم أنه ما زال أسير سطوة أخلاقية ، اعتقاد جازم ساده ، استلام رسالة من فتاة في البلدة ، من الزقاق نفسه تحديداً ، يمكنها إشعال فتنة (بسوسية) جديدة ، مضطرب القلب ، مرتعش الجفنين ، مرتجف الأوصال ، بيد مرتبكة أزاح الزجاج المذاب من عينيه . . قرأ :

[كيف تنام الفتاة ليلة مصيبتها ، يا من مررت ، قتلت وحشتي بنظرة فيها معنى ، لم أنت تشعر بهذا التمرد ، لم لا تقول شيئاً يفهمني حياتي ، لا تقف حائراً ، قل

أي شيء يعيد لي صوابي ، حرمتني من النوم ، بت لا أستطيع مواصلة دراستي ، دع غيومك تمطر ، قلبي يجف ، لا تنظر إلي هكذا ، لا تأكلني خوفاً ، كلمات منك تعرفني على نفسي ، هل أنا فتاة؟هل أستحق الحب؟ أشعر أنني غير ناضجة ، لا تفكر بأنني صغيرة ، عندي قلب ينبض بعاطفة لا ترحم ، جرّب أن تواصل معي هذه السفرة الشاقة ، لا تقل من أين لها كلمات (فوق) مستواها ، اقرأ من مكتبة المنزل قصص الغرام ، لا أكتم عنك السر ، أخرج من كتاب (رسائل في الحب) بعض ما يناسبني من جمل ومقاطع ، أتابع أفلام الحب ، أصغي إلى كلمات النساء ، استخلصت لنفسي فكرة ، قلت أجرب هذا الحب ، أنت أوّل من صادفت ، أعذرني ، لا فرق بين الحب وبين خروج (الكتكوت) من البيضة ، تخرج الفتاة في حالة خاصة ، تصطدم بأول كائن ، تعشقه ، هكذا هي (الكتاكيت) حين تخرج من قشورها الكلسيّة وتصطدم بأول شيء يتحرك ، تحشره في البال (أمّاً) ، أنت أوّل من صادفت في لحظة سأقول عنها الخروج من بيضة الجهل ، قلت أتخذه (أمّاً) عفواً أنيساً ، طالما تسبب في ضربات قلبي بعنف ، كنت أراك دائماً ، وديعاً ، تمشي باستحياء ، معجبة بك ، كنت خائفة أن ترفضني ، ليتني كنت أعلم أنك قدري ، أظن أنني كنت جاهلة ، قبل أن أشعر بنار

تندلع في أغواري ، نار مباغتة ، كما يحين موعد خروج (الكتكوت) من عزلته الكلسيّة ، كنت أعرف أن لكل داء دواء ، قل لي ، هل أنت دواء قلبي؟كيف الوصول إليك؟ يا من تمر مرور السحاب ، تقف وقوف الحائرين ، لم لا تهتم بفتاة تتعذب؟ تسهر الليل من أجلك ، تبحث عن علاج موجود عندك ، لا تقف مكتوف اليدين .؟قلمك دائماً في جيبك ، أوراقك وكتبك ، عرفت من الفتيات أنك تقول الشعر ، الشاعر الحقيقي لا يخاف يا (ماهر) ، دائماً صوته أعلى الأصوات ، الشاعر رسول الحق ، لا ينطق بغير الصدق ، ليس هذا كلامي ، قرأته في كتاب ، اجعلني منبراً لك ، ألقِ علي قصائدك ، اسحب قلمك واكتب كلمة واحدة فقط في سجل تشريفاتي؟ بفارغ الصبر ، على نار غير هادئة ، أنتظر رد فعل مشاعرك يا شاعر – عفواً – يا ماهر]

***

أعاد قراءة الكلمات ، حاول تفكيكها ، نبضه يشتد ، أنفاسه تتقطع ، هاذياً تأخذه الجبال بعيداً نحو أحشائها :

أين أنا؟ (قال لسانه)

في الغد القريب سيترك الحياة ، حرب قذرة تستصرخ الناس ، البلاد أعلنت الحرب ، الدنيا تشتعل ، على الجميع أن يتهيؤوا للموت ، أن يهيؤوا منازلهم قبوراً لدفن بقاياهم ، عليهم التخلي عن أحلامهم ، الكل في القريب العاجل أو الآجل سيموت ، في الحرب لا أحد

يضمن سلامته ، الكل يخضع للشنق ، لا تنفعه حسن سيرته ، لا ماله ولا بنون ، الكل سواسية إزاء الموت ، الكل سعره في **بورصة** الحرب طلقة واحدة أو شظية عشوائية .

(مها) فتاة لا ترحم ، تجهل معنى الحياة في بلاد **تعسكرت** ، لبست حزام الرصاص ، تجهل قيمة الإنسان تحت سلطة رفعت السلاح شعاراً لبناء مستقبلها ، لا تنفعه ثقافته ، رتبته ، حصته ، ستخلط الأوراق ويعاد توزيع حصص المواطنة وفق درجات الولاء ، الانتهازي يمتلك خيارات أوفر للعيش ، يمشي مرحاً من غير عيون تتلصص عليه ، من غير أقلام وشاية تهيؤه قرباناً لدوام حياة السلطان .

تجهل (مها) أنّ الرجال وقود الحروب ، والنساء **خلقن** وقوداً للحزن .

ماذا تريد منّي أن أكتب؟ (قال لسانه)

كلامها كبير ، (مها) تعاني من أزمة قلبية ، قلبها نبض سريعاً ، عواطفها نضجت قبل الأوان ، خرجت تبحث عن فلاّح يحرث **أرض** أغوارها ، حالتها تؤكد أنها وقفت كثيراً تتلصص ، صرفت الكثير من وقتها ، تراقب وتهيء نفسها ثمرة ناضجة ، قبل أن تنطلق في سباق الحياة .

لا يجوز . . أن أكتب لها مثلما كتبت لي! (قال لسانه)

خاف أن تسقط ورقته في يدي ذويها ، ظن راوده ، كل شيء لابد أن يوضع في الحسبان ، تحتفظ الفتاة بأشياء الحبيب ، هداياه مقدسة ، تتشبث بها بالنواجذ ، إنها تساوي كل جواهر الدنيا ، لا تخلد للنوم ما لم تلق نظرة أمل وتفاؤل وسعادة على أشياء الحبيب .

لا . . لا . . لن أكتب لها كلمة واحدة . (قال لسانه)

(مها) لو يعطيها رسالة ، هو على يقين أنها ستحتفظ بها ، ستعيد قراءتها حتى لو حفظتها عن ظهر قلب ، كلما تخلو لتسلّي نفسها ، تحديداً في الليل ، عندما تأوي إلى فراشها ، تكون في أمان ، أمها نائمة ، تستلقي على ظهرها ، تلك أنسب طريقة لقراءة رسائل الحب ، أن تنام وتشعر الحبيب **باركاً** عليها ، ضاغطاً بأنفاس كلماته على صدرها ، تخرج الرسالة من تحت ثوبها ، ربما من قرب ثدييها ، تلك المنطقة الآمنة ، كونها أقرب للقلب ، تفتح الرسالة ، تنظر إلى الكلمات ، تنتظر دقائق كي تستقر وتتشكل الجمل ، وتهدأ ضربات قلبها ، تغدو الرسالة شاشة ، تتحول الكلمات إلى حبيبها ، بشوشاً ، وسيماً ، تحاوره ، تقبّله ، تسرح في خيال عميق ، بعيد المدى ، يأخذها النوم ، عندها ستسقط ورقته بيد ذويها ، لا يوجد خيار بديل أمامها ، سينحرونها ، تلك طبيعة بشرية (جلبلائية) متفق عليها عبر كل الدهور وإلى أزل العصور .

رصّ الزمن حالات متواصلة حول عمليات الثأر ، فتيات نحروهن بسبب شبوب عواطفهن ، الناس لا ترحم فتياتها ، الرجال لا عيب يعتور حياتهم إن هم فعلوا مكروهات ومحرمات شاذة ، **ميزان** العيش غير راجح في تعاملات البشر ، سيبقى **العيب** تهمة تلصق بالنساء ، هويّة إدانة لا تمنح إلاّ لمن تزل أو تثار حولها الريبة ، أمّا أعمال الرجال الشائنة فهي **رجولة** معتبرة ، يزداد فخراً من يخرج من فلك الواقع ، من ينتهك المحرمات ، كل رجل ينتهك القوانين والأعراف **مهيب** الجانب ، ينال فرص حياته كاملة ، تفرض له فروضات الاحترام ، أمره مطاع ، لا يرد له أي طلب مهما تعذر أو **غلى** .

يمشي .

تلبسته فكرة أن يرجع من الطرف الآخر للزقاق ، رغب أن يعيد ترتيب أوراق ذهنه ، كل شيء وارد ، من السهولة أن يسقط المرء في **فخ** الفضيحة ، بنت الزقاق أخت الجميع ، هكذا تعلم الدرس ، الكل يلعبون معاً ، ببراءة ، كل طفل ، كل طفلة ، إخوة وأخوات ، عائلتهم زقاقهم ، يدافعون عن بعضهم تجاه أي عدوان يشن على واحدهم من الأزقة الأخرى ، حين تتعرض فتاة لعقوبة بيتية ، يتوسل الجميع إلى أمها ، إلى أبيها ، أن يكفوا عن تعذيبها ، يفلحون دائماً في مساعيهم الطفولية البريئة ، الكل آباء لهم ، كل النساء أمهاتهم ، يوجد فتيان شرسون ، يشبهون كلاب حراسة ، يتهجمون على الفتيان الغرباء إن هم مروا في الزقاق ، تحدوهم **رغبة** التحرش أو النظر إلى بنت زقاقهم ، تراهم **كلاباً** متوحشة الطباع ، يكشرون عن أنيابهم ، يعصرون أعصابهم ، يتهيئون للهجوم المباغت عند اللحظة المناسبة ، كل من يمر بالزقاق مروراً عابراً ، لا يكرر مروره في الزقاق ، لابد أنه أستلم إشارات تحذيرية من **أشراس** الزقاق ، البنات **حرمات** تحت حراسة الجميع ، هكذا قيل لهم ، كل أب لقن أبناءه ، كل أم لقنت بناتها ، قائمة الأخلاق والمواريث المتداولة بين أهالي الزقاق الواحد .

وجد فكرة الارتباط بـ (مها) جناية لا تغتفر من قبل أهل الزقاق ، سيقولون عنه خان الأمانة ، سيقولون عنه تنصل من شجرة الأخلاق ، سيقولون أضاع **مجد** جدّه أبو الكرامات .

كل كلام نابٍ ، خارج قاموس حسن الجيرة ، سيحلو لكل لسان ، ساعتها يغدو **أضحوكة** عصره .

فكرته ماتت .

قلبه لم يطاوعه ، خال الفكرة محض هروب ، شعر أنه أضاف

هزيمة إلى هزيمته المنكرة في دراسته ، فكر أن يعود من طريقه نفسه ، سوف يراها واقفة ، قد يغيّر رأيه فيها ، سيعتبر ما حصل مجرد ملاطفات أخوّة عابرة .

(مها) قصيدة منفلتة من فلك الواقع ، إنها كلمات متناثرة ، عليه لملمتها ، يجب حشرها في علبة وزنية يليق بها ، ربما بحور (الفراهيدي) الذي **فرهد** كل أوزان الجاهلية لا تنفع مع فتاة خرجت عن طور براءتها باكراً ، لابد من **قالب** جديد يستوعبها ، لا يريد حشرها في ورقة منسية يرميها في صندوق حياته .

فكر أن يكتب شيئاً نافعاً يفهمها وضعه ، يشعرها بحرمتها عنده ، بمكانتها ، فكر ماذا يكتب ، لم يكن مهيئاً لشيء يريح أعصابه ، حتى الشعر الذي يكتبه ، **تقليدات** ، حتماً ستكتشف (مها) في قوادم الأيّام أسرار قصائده ، حتماً ستتهمه بالتقليد الأعمى ، ستشيع عنه .

«ماهر . . شاعر غير موهوب»

ستقول :

«غير الموهوب غير مرغوب به»

ستقول :

« شعرك مسروق القوافي يا حضرة الشاعر»

(ماهر) قرر أن يترك **قانون** الزقاق ، قلبه يريد الولوج إلى قلب العاصفة ، رغب في اقتحام عالم الكلمات .

أعرف . .

السرقة ابتذال مهين

الابتذال مستنقع الرذائل

لا شاعر يعيش على خطا السابقين

هذا يقين . . !

أو تعلمين

أنك قصيدة يفشل بكتابتها

حتى الشعراء

السابقون

لم تضحكين .؟

أنت قصيدة عصر

متعذرة التدوين .!

***

الحب مغامرة

الحب ثوب

يستر عواطف فتياتنا من أنياب الطامعين

في الدنيا حشد ملاعين

فتياتنا

حمامات يعشقن (السياحة)

خارج أفلاكنا

تحت سماء الآخرين . . !

***

سحب القلم الجاف ، فتح كتاب الشعر ، مزق الورقة الأخيرة ، ورقة بيضاء فائضة عن اللزوم ، ربما تتركها ألسنة المطابع لمثل هذه الظروف الحرجة ، ربما تريد منح القارئ فرصة كتابة انطباعاته عن الكتاب المقروء ، فكرة أصحاب خبرات شيطانية ، تهدف تلك الفكرة إلى **جذب** القارئ إلى مملكة الكتب ، من يكتب انطباعاته يجرفه من

حيث لا يدري تيّار النقد ، بعده تسكنه دودة الكتب .

فكر أن يخط ما يراه مناسباً لعمرها ، ما يوائم عقلها ، ما يخمد نيران مصيبتها :

سأكتب كلمات تهدئة عاطفية . (قال لسانه)

لا يصلح المكان لقول مشاعره ، مركبات تمضي مجنونة ، هاجس الشعر خير معين .

يائس أنا
حرب حمير تناديني
تائهاً
أبحث عمّن يواسيني
ما قيمة كلماتي
حين ينثرها قلب يماريني
رمالاً تستحيل
تنثرها رياح حربية
أصادقة أنت يا (مها) في مغامرتك (العلنية)
توسمت
العالم المتذابح من أجل فقدان الرشد سيرشيني
ضوء خوف يخرق أحلامي الحجرية
شعري ما عاد يبكيني
الحب لن يعيد لي تكويني
عالم مظلم ظالم مهنة الجندية
من يا ترى في عالم يشتكي
ليل نهار

يمتلك وقتاً في – وقتنا هذا ـ

ليواسيني . . !!

****

(مها) واقفة .

هربت ما إن رأته ، فقدت شجاعتها ، تخلت عن جرأتها ، توضحت علامات مصداقية الحب ، ربما خجلها نجم من طبيعة صراحتها عبر كلماتها ، يا لسحر الحب ، يا لفلسفته ، الخجل بان ، عصف قلبه ، ضاق صدره ، يدنو منها ، يراها تفتح ذراعيها ، تتهيأ لاحتضانه ، أم هي عيناه تفسران الأشياء بطرق شبحية ، أم تاه عقله في لحظة خذلان .

يمشي .

قدماه تتخاصمان ، تتدافعان ، خرجت فتاة البريد ، تقدمت منه ، جريئة ، عقلها يتعامل ببراءة مع الثورات البشرية الكبرى ، ثورات الجسد و**شحنات** العواطف .

«خالتي تنتظر المكتوب .»

فكّ اشتباك أصابعه ، واصل مشيه ، تلقفت فتاة البريد ورقته الساقطة ، مفعمة بانتصار معنوي ، ركضت كأنها ربحت جائزة العمر .

وصل (ماهر) إلى البيت .

في غرفته ، بكامل ملابسه ، لم يجد وازعاً نافعاً من تبديل أسماله ، وقته لم يعد يكفيه ، ألقى بجسده على السرير ، أشبه بمجرم تخلص من أداة جريمته ، سقط يسبح في **بحر** العدم .

بدأ فكره ينشغل بهم كبير .

لمن ترخين مفاتنك
لمن .؟
تحررين حبل عواطفك الراجف
لمن .؟
ترمين أوراق فتنتك
لمن .؟
عمري شعر نازف
مذ حررتِ خوفك على رصيف يأسي
ظلّ ظلّي الزائف
حول ظلّكِ
واقفْ . . !!

***

(مها) عاشقة استثنائية .

تحولت في لحظة ما إلى **مصباح** متوهج ، لم تكن كذلك أيام مروره بها ، ربما شعوره لم يكن حاضراً حين كان يمر ، على ما يبدو كانت تتصيده ، قعدت تنتظر فرصة **نضوج** رغبتها ، تنتظر منه نظرة حب ، كان يزمع أنها طفلة رغم اكتناز جسدها ، وقوّة البسمة على شفتيها ، ما تزال بعيدة عن **سكّة** الهوى ، خالها تجلس هاربة من مشاغل البيت ، أو ما تزال طفولتها تقودها .

لم يجد **ضوءاً** يسحره ، رغم أنها لم تتبدل ، ما تزال تتحلى بصمتها ، برقة بسمتها ، بنظرات تنطق شعراً ، كان أسير صدمة عاطفية قريبة ، ظلّت تحجمه وتخرجه من واقعه ، تحجب عنه ملامح الأشياء الجميلة ، وجوه الفتيات ، لا وجه يعوّض وجهاً ترسخ في ذهنه ، وجه فتاة **ومضت** فجأة **وغابت** فجأة .

ما زالت (مهدية) تمتثل في ذاكرته ، نشيداً أوّل ، أطرب قلبه لسويعات لا تنسى ، فتاة أولى حفرت لنفسها موقعاً مرموقاً في قلبه ، رغم **حضورها** السريع **وخروجها** الأسرع من عالمه ، تمكنت من وقف قلبه من عواصف عواطفه ، خال الحب أكذوبة ، الحياة خاضعة لحسابات معقدة ، ليس كل فتاة ترتبط بها يمكنها أن تعيد الضلع المبتورة ، صدمة (مهدية) تركت **سخونة** ما تزال تهيج دمه ، تغلق باب التفكير كلما أراد أن يرتبط بواحدة ثانية ، ما تزال ماثلة لا تبارح

ذاكرته ، حب أوّل ، يصعب هدمه ، يتعذر هجره ، كانت الميلاد الأوّل ، تركته بلا رغبة منها ، فقدت وسائلها المتاحة ، رفعت راية اليأس ، أبقته مسافراً في عالم ضبابي ، ليله حرب مع الجحيم ، نهاره ضياع متواصل في الوديان ، خلف الجبال ، يبحث عن موت طال عليه .

وجد الشعر عالماً يستوعبه ، يمكنه أن يرسم ما يحلو له من علاقات غير طبيعية ، أن يختار الفتاة الحلم من بين فتيات الخيال .

أهرب
تصافحني طفولتي
يقول يقيني :
- إنما المرء يسعى
المرايا
قلادات أخطاء على مساء العمر
أشلاء تتبعثر
تفنى
ليس كل من يحرث الوقت
يكسب المعنى
أنت تحاول تطويع قلبك لسلطة المغنى
عشقك الراحل
لا تسميه الأسمى
سترحل المراكب
ستسكن بيوت العناكب
اعلم
أن أوهن مسالك الحب

درب يلقي ساكنه
طيراً
بلا صنو
بلا مأوى .!

****

مثل جائع يتابع رائحة زكية بأنفه ، مغمضاً عينيه ، لا شيء يشغل الفكر سوى السحر السابح ، بدأ ذهنه يطارد كلمات تتجحفل في مكان ما ، لم يكن لحظتها يشعر بأن (مها) تمتلك الألق والرغبة والأنوثة ، وجدها بريئة مسكونة بـ شراب الواقع ، سريعاً خرجت من طور طفولتها ، صارت تتهيأ بزينة مناسبة ، رغم تواضع زينتها كانت كافية لإضفاء مسحة جمال مضافة لملامحها ، بدأت تتعلم بسرعة أشياء كثيرة ، تعلمت كيف تنحت عينيها فيه ، كيف تبتسم ومتى ، كيف تسحب الشهيق ، متى تحرره ، حفظت أوقات خروجه ، أوقات عودته ، قبل أن يتحول السراب إلى حقيقة ، رغم وجود الخوف والصدمة ، وجد أنها تصطنع جملاً واثقة ، وجدها تذوب فيه ، تحاول أن تلتهمه بنظرات ناطقة ، راحت تحيطه بهالة ضوئية تأخذه بعيداً إلى عالم جديد ، عالم يختلف عن **عالم** الصدمة (مهدية) .

بسمة (مها) راية
سر ألق معلوم الغاية
شفتاها ضفتا نهر دائم الغضب
الله حولني مركب حب
من يقودني

في زمن اليأس
إلى النهاية .!

***

تحول شعره في (مها) ، إلى شغله الكامل ، عوّض عن غيّاب فرص السعادة من أفق مستقبله بعد فقدانه (مهدية) :

(مها) مدرستي القادمة . (قال لسانه)

حضره كلام عابر ، قاله الأب لصديقه ذات ليلة :

«البيت الأوّل بعه ، البيت الثاني أجّره ، البيت الثالث أسكن فيه .»

كان صديق الأب متعباً جرّاء تعميرات متواصلة في بيته ، وجد فلسفة البناء والحياة الهنيئة تخرج من لسان الأب .

هل **يهجر** الفتاة الأولى ، **يهمل** الفتاة الثانية ، **ويتزوج** الفتاة الثالثة ، على غرار فن البناء ، من يضمن أن الثالثة تكون أعقل وأكثر جديّة لبناء الأسرة الصالحة ، لا . . لا . . لا يمكن مقارنة الأشياء مع بعضها ، البناء تجربة تعطي المرء خبرات ، البناء تعامل (هندسلوجي وتكنلوجي وفزيولوجي وطقسلوجي) مع الجمادات ، الحب قدر أحادي الجانب ، تعامل (**قلبلوجي**) محض ، حين يدرك القلب يموت فيه ، الحب الأوّل بئر عذبة الماء تفاجئ الصائم الظمآن عند الغروب في قلب صحراء .

تجرأت (مها) أن تقتحم حاجز الخوف ، مثلما فعلت (مهدية) يوم باغتته وربطته بورطة قلبها .

كان يتهادى في سيره عصراً ، في مكان كان يتخذه خلوة لقراءاته ، كتاب (الفيزياء) مرميٌّ في التراب ، كان منشغلاً بحفظ

قصائد (نزار القباني) ، وجدها تقترب ، لم يتمالك نفسه ، جف حلقه ، وقفت قربه .

«أصيل الخير ماهر .»

«أصيلك أكثر خيراً .»

«ماذا تقرأ .؟»

«كما ترين . . »

«أيهما مستقبلك .؟»

كانت تنظر بعين **حائرة** إلى كتاب (الفيزياء) مرمياً على الأرض .

«الشعر فيزياء الحياة ، يمنح الحياة سر ديمومتها وجماليتها .»

«والفيزياء .؟»

«قوانين تلجم الشعر من الانفلات خارج سياج الواقع .»

«سمعت أنك بصدد ترك الدراسة .»

«لم تعد الدراسة تهمني .»

«على أقل تقدير أنها تنجيك من الجيش .»

«كل شيء انتهى .»

«وماذا تريد مني .؟»

«ها . . !»

«ناديتني . . »

«أأأنا . . !»

«أشرت بيدك فجئت .»

«آه . . حضورك أنساني كل شيء .»

«الشعراء ذاكرتهم قوية .»

«أنت شاطرة يا – مها –»

صمت .

كانت تغسله بعينين فيهما فرح كبير ، جريئة تقف ، عينها **تحفر** وجهه ، وبسمتها تمنحه شجاعة ، كان (ماهر) يرتجف ، لسانه تحرر قليلاً قبل أن **يتخشب** ، لم يجد حيلة كي يواصل احتواء اللحظة ، فكره انشغل بصدمة المفاجأة ، نسي في تلك اللحظة ، أن الحياة تتشكل أحياناً من **صدفة** مباركة ، مثلما تولد القصائد الخالدة ، ثغرها مصطبغ بلون بريء ، عيناها متوهجتان بجمرة متوقدة في فرن قلبها ، كعاشقة خبيرة لم تحتمل الصمت طويلاً . . قالت :

«ماذا تريد .؟»

«نتكلم .!»

«حسناً أنا جئت .»

«تكلمنا . . »

«هل انتهيت .؟»

«لا أعرف ماذا أقول .»

«ماهر . . !»

قالتها بحنين وشوق وظمأ ، وربما بحرقة أو غصّة ، خرج صوتها **تنهيدة** غريقة ، نداء محتضرة ، أغمضت عينيها ، وجدها **حديقة** شعر ، فتحت عينيها . . واصلت كلامها :

«ماهر . . هل تحبني .؟»

«أحبك . . !»

انطلق **صاروخ** عاطفي من مستودع رغبته ، ازدادت تألقاً ، توهج وجهها ، **لمعت** عيناها ، لم تحتمل الدمار الذي خلخل روحها ، انفرجت شفتاها :

«ماذا **تريد** مني .؟»

«كل شيء .»

«ماهر . . !»

فتحت ثغرها .

لاح الجواب ، صارخاً ، واقفاً هناك بين **رفي** أسنانها ، كان يلمع ، يغري ، قرأ الكلمة :

«تعاااااااااااا . . »

كلمة ساحرة تمتد إلى نهايات الأفق ، لا حرف تجرأ أن يوقف **زحف** حرف الألف ، ظلّ الألف يمتد ويمتد إلى الأبد ، إلى أعماقه ، إلى نهايات لا تنتهي .

طأطأت رأسها ، لم **تكن** خائفة ، شجاعتها قتلت خوفه . . همست :

«أخشى أن يرانا شخص ما .»

تضاعفت عزيمته ، كانت تمده بفيض معنويات ، تمد أذرعاً ، تسانده ، تلتف حوله ، تسحبه لتكملة مشوار الحياة . تمتم :

«المكان أمين .»

تقدم منها .

توقف العالم عن الحزن ، ربما توقفت الحرب في تلك اللحظة **إكراماً** لمشهد خالد ، عربوناً لديمومة الحياة في ظل الحروب ، رفع وجهها بيد مرتجفة ، أغمضت عينيها ، وجه **مليء** بالضوء ، باليقين .

لم يتمالك فرحه ، تفاقم هلعه ، سقط بـ **شراهة** ، فمه على فمها . . !!

أخيراً . .
سر هذا الهلع لاح
آن أن أطوي ما في
من بقايا جراح
من أين جاء مطر السعادة
من أي غيمة هطل
من أي بحر انتفض
ليت كنت الرياح
ليلي . .
قبل الأوان كان ساحة أتراح
نهاري . . آه نهاري
لم تبتدئه ذات يوم سكرة الصباح
حرب تستصرخني
لا وقت للحب يا شاعر
حي على الكفاح
أي كفاح يا عالم
برازه السلاح
الحرب مهنة كل متجبر داعر
الحرب . . كل حرب
تخرب البيوت
وتأكل الأفراح
تأتي الحرب
عندما يأتي على صهوة حصان الغضب

صعلوك الأتراح
يشهر سيف المقابر
لنغدو أشباه بشر
تصلبنا مسامير القسوة
على الألواح .!

***

مسكوناً بلذة الشعر .

أرق ثقيل باغتـه ، ما زال يخاصمه ، سهر يفكك مراميه ، هجره ليله ، رفض **مركب** النوم الخلود في محطة جفنه .

بحث .

وجد شوارد فكرة تتشكل ، ألقى (ميزان الذهب) ، محاولة أغوائية لاقتناص فكرة أضجرته ، بدأ يلقي الطعم ، ترك مداد قلمه ينزف .

ليل ساكن ، كلاب البلدة ما عادت تنبح ، بح صوتها ، ربما تحجرت حنجراتها ، ربما اكتشفت النباح في زمن الحرب **غير** مباح ، قد يفسر على أنه تمرد على السلطة الحاكمة ، الحكومة بعد صخب النهار تريد أن تنام في الليل نوماً هانئاً استعداداً لنهار متعب ، النباح يقلق الحكومة ، ربما ستجيش عسكرها لإبادتها ، لذلك وجدت كلاب البلدات **الصمت** يصب في خانة **الولاء** لسياسة الحكومة .

(ماهر) وجد صمت الكلاب فرصة للكتابة من غير قلق ، النباح يبدد الحلم ، يعكر وجه القصيدة بطعم الارتباك ويلبسه ثوب النفور ، جلس يكتب ، يمزق ورقة تلو ورقة ، تكومت حفنة أوراق ، تعذرت قصيدة عنيدة مصالحة **خلايا** مخه .

ما لي أرى الشعر

غادر حديقة القرنفل والآس

ما لي أرى حشود الناس

ما لي أراهم
يديرون دفة الجدال
ما بين الرأس والرأس
ما لي أراهم يحطمون
قلعة شيدناها
بحرقة أنفاس
ما لي أراهم
يحدون لرؤوسنا
نصل السكين
والفأس .!

***

فجر العاشق لا يجيء سريعاً .

خرج يمشي .

نثار ذهب لاح في الشرق يغريه ، خروجه في تلك اللحظة تقليعة مزمنة ، دائماً يجد نفسه يمشي في الجبال ، يبحث عن قرارة نفس ، يخرج كلما وجد ليله **يقفل** أبواب الشعر بوجه خياله ، جبال وديعة تحادد (جلبلاء) ، ساكنة ، عاشقة للصمت ، تشعر البيوت بالخصب ، كلّما انهمر المطر ، تلملم السيول ، تدحرجها عبر أخاديدها ، فيضانات تلملم الناس لإلقاء نظرة إعجاب على ماء **مجنون** يحتل **بطن** البلدة .

الوادي . . يشق البلدة إلى نصفين شبه متعادلين ، يوم جنونه ، على طرفيه تعيش الناس عيداً ، الكل فرح بهذا الجنون المائي المندلق من أحشاء الجبال ، ماء كحليب ممزوج بالقهوة ، يندفع بعنف ، يصب

في نهر البلدة ، هناك تقام أعياد أخرى ، كل أهالي البلدة ، صغاراً وكباراً ، رجالاً ونساء ، واقفون يستمتعون بمشهد لا يتكرر إلاّ لماماً ، كون سنوات البلاد جاءت بالقحط ، لا مطر يكرر هذا المشهد الإنساني المسالم ، رغم قسوته ، رغم عنف السيل يجمع قلوب الناس في **فرن** الوحدة ، يجمع أنظارهم في بؤرة واحدة ، في الاتحاد **تعم** السعادة ، وتندحر الضغائن .

المطر في البلدة بات من النوادر .

قيل . . رحيل جد (ماهر) ، الرجل المبارك ، صاحب الكرامات ، سبب توقف المطر .

قيل . . ترك العلاج بالطرق الشرعية ، من الأسباب الأكثر توضيحاً للقحط المتواصل على البلدة .

قيل . . عسكرة البلاد **تهزم** الغيوم المارة في السماء .

يمشي .

الجبال سكرانة من أثر الليل ، برد ينهض مع وميض الخيط الأبيض ، لكم تبدو الجبال مهيبة ، مغرية ، تحكي قصة لياليها ، حكايات الضواري والمهربين وسرّاق الحياة وسالبي أرواح الناس أو دافينها في مقابر جماعية من غير شواهد .

خط الشارع الرئيس يمتد ، شاقاً أحشاء البلدة إلى نصفين متناقضين .

القسم الأسفل . . الجهة الشمالية .

أكوام منازل طينية ، عشوائية تتداخل ، تتخثر في فوضى اللا نظام ، أزبال تتناثر بين الأزقة والساحات القليلة المتبقية بعد زحف وباء (**التجاوز**) وتلويث عقول الناس بالكامل ، ناس أتت على كل شبر

أرض لبناء مساكن غير قانونية ، سببها **نوم** الحكومة ، وتجاهلها القضايا الحيوية لعصب الدولة ، كل الحيوانات السائبة ، حمير ، كلاب ، قطط ، وجدت السلام الشامل عند قاطني بيوت التجاوز ، ربما شعور فطري بالتضامن توالد بعد سنوات من العذاب والنوم المشترك ، **بشراً وحيواناً** ، على التراب .

القسم الأعلى . . الجهة الشرقية .

بتدرج وتناسق تتراص منازل طابوقية ، تلتصق بـ **خدود** جبال دائرية متهدلة ، فيها أمكنة تسمح بسير عجلات (الجيب) العسكرية من غير عرقلة ، بقية متبقية من مخلفات العهود البائدة ، حررتها الحكومة الجديدة في مزادات علنية متواصلة ، رغم متانتها وقوة محراكاتها ، بدلتها بعجلات حديثة ، مكلفة ، من باب تطوير الآلة الحربية للبلد ، انسجاما مع مزاج النظام السياسي الجديد ، فالحرب **حلم** ينمو في الذاكرة ، لا حكومة شرقية تنجح ما لم تنضج على نيران الحروب ، الحرب تجعل الناس في خوف دائم ، في إطاعة عمياء ، الحكومات الحربية تعيش بسلام داخلي ، تتوفر لها فرص نادرة للتخلص من الضبّاط الكبار ، في الهجومات أو تخويناً ، حكومات كثيرة تمد يد العون ، تبيع السلاح والخطط العسكرية ، الكل **ينتفع** من الحرب ، لا أحد يفكر بتيغير النظام ، العسكريون يقتلون تباعاً في الجبهات ، الولائيون يتدرجون في المناصب ، ذوو القتلى ينالون مكاسب ومنجزات كبيرة ، قطع أراضٍ سكنية ، منحة من دائرة العقاري بفائدة مدفوعة سلفاً ، راتب شهيدٍ معتبر ، عشر درجات على المعدل لأبنائهم للمنافسة على مقاعد الدراسة في الكليّات ، وأكبر كل الفوائد ، لا أحد **يفكر** بالزعامة في ظل الحرب ، الكل يلهث لتكديس كومة **أنواط** على صدره .

الكل يفكر برغبة واحدة ، رغبة النجاة من الموت .

والحروب أثبت الزمن أنها تقوي **أركان** الحكومات الثورية .

قبل أن تجيء إلى سدّة الحكم ، تضع في بالها **برامج** حربية شاملة ، ستشنها على الداخل والخارج ، على الخلان والجيران ، على الحيوان والإنسان ، على الأنهر والحقول والغابات ، على العقل والصحة والأمان .

في تلك الجهة ، القسم المرموق من البلدة ، عيشاً وبناء ، ماء المجاري في الأزقة ، يمضي منحدراً من غير مشاكل (نساء) .

شارع فرعي يتفرع إلى فروع ملتوية ، يبدأ من الشارع الرئيس للبلدة ، مائلاً نحو الشرق ، يخترق بيوتات منضبطة البناء ، ينتهي عند مخالب قبور تنفلت زاحفة من المقبرة الجديدة ، بعدما تمت إزالة المقبرة القديمة لأغراض سياسية بحتة ، رغم أن الحكومة أعلنت – عبر يافطات توزعت على الأعمدة الكهربائية وجدران المنازل وعبر سماعات مركبة على مركبات ، ظلّت تخترق الأزقة – أنها بصدد بناء مؤسسة خدمية لتطوير المجتمع المدني ، مهمتها تنظيف عقول الناس من **مزابل** الحكومات السابقة ، ناسية أنها **ستغدو** مزبلة كما غدت سابقاتها ، لتهيئتها للمرحلة الثورية الراهنة ، مرحلة العيش الرغيد ، توزيع الحقوق كاملة غير منقوصة بنظام اشتراكي عادل ، وعائدات النفط ستوزع بنظام **الصواع** على الناس .

البعض ممن كان يمتلك رؤية سياسية عقلانية **بسبس** همساً في آذان غير جاسوسية :

«هذه الحكومة شيطانية ، بدأت تمرر رسائل غير علنية لترضية العالم الغربي الغاضب على أوضاع شرقنا الكسول ، سنبقى مكممي

الأفواه ، ليس بوسعنا تحرير **آهاتنا** علناً إلى أجل غير مسمى .»

فاجأت الحكومة الناس ببناء دار (**سينما**) على مكان ظلّ مقدساً بالنسبة لأهالي (جلبلاء) ، كونه يحتضن مقبرة البلدة الوحيدة ، مكان شبه أثري ، يضم **أضرحة** سادة قيل إنهم كانوا أصحاب كرامات مشهودة في أزمنة البراءة ، أيّام كانت الناس تتزاور ، وكانت تترك أبواب منازلها **مفتوحة** مع انبلاج الفجر وحتى منتصف الليل .

أكثر القبور مهابة كان قبر جدّ (ماهر) ، المسوّر بسياج حديدي مصبوغ بلون أخضر ، في أصيل كل خميس تتقاطر النسوة ليجلسن حوله باكيات ، طالبات المراد ، وتحقيق الآمال المأمولة من جدثه .

في تلك المقبرة ، ترقد أرواح فلذات **أكباد أكلتهم** الأوبئة والحروب لكل الأجيال المنسحقة .

(ماهر) . . يمشي .

عبر الشارع الفرعي ، لم يسبق له أن سار فيه في كل صباحاته السابقة ، هاجس ما دفعه أن يتبع **ضوءً** ظلّ يسحبه ، شيء ما ، يغري ، يسعد ، ينعش خياله .

قيامة أغنية أشعبت تضاعيف الجسد
موطنها الريح والرعد
ترجف القلب
يرتعد
نبض المصير يسري كالمد
موسيقى تضوع الفضاء بلا حد
جسدي خرج من قشرة الفراش كالمحتد

خرج يبحث عن سر هذا الغناء
الممتد
عن سر صهيل
في وادي عقلي
ينهد . . !

***

قوافل فتيات تمر ، يشغلهن هم الدراسة ، هموم أخرى موجودة ، يمكن قراءتها داخل عيون خائفة تتلفت ، أنفاس مرتبكة تتصاعد ، ابتسامات خجولة تشرق وتخمد ، نهود مستفزة ترتج ، خدود مرتجفة تتورد ، ثغور حذرة تتأوه .

(ماهر) مشغول يطارد كلمات في فضاء خياله تطير .

نشيد ليله يمتد .

صباح منعش ، جاء غير سريع ، أخرجه مريضاً بحمى وجد ينمو ، يغزو كيانه ، فجأة ، من غير إضاءة ، من غير تنبيه ، عينان ترنوان ، حجاب الصباح **فشل** في تشويه ألقها ، جاءت كالبرق ، ضربت المنازل والأشجار ، وصلت منطقة خجله .

ما الذي أتى بها من هذا الدرب .؟ (قال لسانه)

اللسان أوّل المبادرين ، الجسد فيما بعد يسترد وعيه ، على مهل نضجت الرغبة .

(مهما) تمشي ، تدنو ، شيء ما أوقفه ، أجبره على الامتثال لنداء اخترق المسافة الفاصلة بينهما .

وصلت . . قالت :

«طريق الشعر ليس من هنا .»

لسانه تحرر :

«طريق الحب من هنا أيضاً .»

كلام ناعم ، ناعس ، فيه شيء من رغبة أنثى راغبة ، قليل من الخوف لا يؤثر ، كثير من شجاعة تمررها عينان واسعتان ، قالت ما يؤرقها ، ما راكمت في بالها من شوق مؤرق ، وقف **يعيد** صياغة كلماتها .

مشت . . بدأ يتبعها ، لم تتلفت .

شحّاذ يلهث خلف ميسور بخيل ، قلبه يصرخ ، أعضاؤه **تحارب** بشراسة ، تخترق المسافات ، اخترقت أزقة ، يلهث ، قدماه تخسران شبراً شبراً ، تغدو المسافة مترامية ، أقدامها تعدو ، تتسع **هوّة** الفجوة ، قبل باب المدرسة بأمتار وقفت . . وقف ، تلفتت ، شعرها تطاير ، أومأت تناديه ، مرتجف الأوصال ، مخلوع الفؤاد ، رذاذ يغرق نور الصباح ، يندفع مع لهاثه .

وصل . . قالت بشجاعة كاملة :

«الساعة تسع . . . . . . !!»

توقف لسانه ، لم يرغب أن يستفسر أو يفوه بشيء ، يفقد اللسان وظيفته أوان الحب ، يعجز عن **ترجمة** مشاريع الذهن إلى واقع حال ، كل ما يؤسسه الشاب من **عمارات** كلماتية ، وعود وباقات أشعار يهيئها لساحة اللقاء ، تنهار لحظة الحقيقة ، كل شيء يتبدل ، ما يوفره العقل ينسفه المشهد الآني ، (مها) لم تزد شيئاً ، ربما الخوف نبت ، كل ما عندها أوجزته في **نصف** جملة ، عبارة قد تكون غير مجدية ، لا تشكل شيئاً في **هرم** الحب ، عيناه في عينيها ، كأنها هبطت من كوكب غريب ، كأنها في تلك اللحظة ، لم تكن تلك الفتاة ، صاحبة

الكهرباء ، صاحبة داء الأرق والقلق ، صاحبة **القبلات** العابرة ، نثرت ابتسامتها ، ضحك الصباح من حوله ، ضحك العالم ، سقط كطفل في عرس يلملم حلوى ثغرها ، لم تشاركه الوليمة ، تركته ومضت .

واصلت سيرها .

باب المدرسة ، فم **غول** جائع التهمها .

مشى .

إلى أين لا يدري ، لم يعد الشعر جوهرة تغري الخيال ، لم تعد موسيقى الليل تتواصل ، رأسه يتلفت ، مسكوناً برغبة مأمولة ، قد تخرج كما في الصباحات ، تدخل البيت وتخرج ، لم تعد الرؤية **تسعف** بركان الرغبة .

عند مقبرة (جلبلاء) الجديدة ، وجد مرتفعاً ترابياً ، جلس يعيد ترتيب أوراقه :

ماذا تريد (مها) مني .؟ (قال لسانه)

واضحٌ هو الجواب .

لا شيء يربط الأنثى بالرجل **سـوى** الشـهـوة ، لا شيء يربط الكائنين سوى فكرة خالدة ، التلاحم من أجل إخماد حرائق الروح ، أمّا البقية الباقية مجرد **إسقاط** فرض ، ليس في بال الفتاة واجبات الوجود ، أو رغبة تتملكها لتشكيل المجتمع ومواصلة البقاء ، تتوالد فيها **شرارة** تحرق ، لا مطافئ يكافح حرائقها سوى رجل يمتلك وسامة ، في كثير من الفرص يكون بلا وسامة ، المهم رجل يمتلك ذكورة ، يوفر لأنثاه **مطفأة** حرائقها الليلية ، ليس بالضرورة أن يكون مألوف الوجه ، الحب يفتقر إلى العيون ، كونه **جوع** القلب ، والقلب كما تشير الشرائع أنه يرى من غير **بؤبؤ وجؤجؤ** .

أحيـاناً يأتي فـارس القلب فـجأة ، يفـرض شـخـصـه **منقذ** حرائق عاطفية .

خوفٌ ينمو .

تحول إلى رعشة جسد ، لم تعد الكلمات تحوم في فلك الخيال ، القصيدة ولّت ، جالسٌ بين مئات الأجداث الراقدة ، في الحقيقة لم تكن كلها أجداث ، كثيرٌ منها أكوام تراب ، تمت لملمتها من المقبرة القديمة بعد إزاحتها بالبلدوزرات ، تم نقل أكوام التراب في أكياس خام ، على أنها بقايا أجداث أموات في تظاهرة جماهيرية شعبية ، شارك فيها الجميع من باب كسب الحسنات لـ **محو** السيئات يوم العرض على رب العالمين ، دسوها في خاصرة مرتفع أرضي جديد جنوب شرق البلدة .

(ماهر) شارك المحتفلين يوم تقاطرت الجموع لنقل رفات جدّه ، وضعوا عظامه تحت حراسة مشددة خوفاً من ناس تسرق عظام السادة لتبيعها بأثمان غير زهيدة ، كونها تنفع لزيادة بركات المنازل التعيسة ، وضعوها في مكان مناسب يليق بمقامه ، حسبوا حسابات أخرى ، مكان يوفر مساحة مناسبة للزائرات ، علموا أن بعد المقبرة لم يشكل هاجساً عارضاً ولا كلفة متعبة يمنع نساء البلدة من زيارة المقابر ، وجدوا له مكاناً متفرداً ، يتميز من بين القبور المنفية .

كان قبر (جدّه) خلفه على مرتفع ، لم يجد وازعاً يدفعه أن يقف عنده ، ليقرأ سورة الفاتحة على روحه ، طالباً منه التوسل عند الله كي يمد يد العون له في أيامه القادمة .

مشغولاً بكلام (مها) ، باغته سؤال بدا معقولاً ، لم اختارت :

«الساعة التاسعة . . . . ؟»

(مها) تخرج عند منتصف الظهيرة ، يقينه وليد حالة شائعة ، أشياء تعذر عليه فهمها ، نشيطة كانت حين ألقت سؤالها ، متحمسة ، في عينيها **لاحت** تباشير الفرح وأشياء جديدة و**مضت** واختفت .

وقته غير سريع يمضي .

لا ساعة تسوّر معصمه .

(ماهر) يكره من يسوّر معصمه بسير ساعة ، لا يعرف السبب ، كانت ساعة المعصم تذكره بالقيد ، شعور ظلّ ماثلاً منذ طفولته يوم رأى رجال الشرطة (يكلبجون) معاصم بعض الشباب ويسوقونهم إلى السجون .

قيل . . يقرأون الكتب والصحف ويكتبون أفكارهم الغريبة لتلويث عقول الناس .

قيل . . لا يؤمنون بالله ، كفرة ، زنادقة .

قيل . . يتزوجون من أخواتهم عند تعذر متطلبات الزواج .

قيل . . سفلة **تفو** عليهم وعلى حزبهم الـ **خرا** .

عرف (ماهر) أن من يقرأ الصحف في (جلبلاء) يقذف بتهمة الشيوعية .

يساقون إلى السجون ، يعذبون عذاباً جسدياً ، يجبرون على توقيع تعهدات ، لا كتاب في اليد والبيت ، ولا صحيفة باستثناء صحف الدولة الرسمية الناطقة باسم الحزب ، بعد التوقيع ، لا أحد يتجرأ أن يعاند ، أو يحنث بتعهداته ، رغم وجود همسات ، أنهم يواصلون القراءة سراً ، يتبادلون الكتب والمناشير بطرق شيطانية ، عجز رجال الأمن عن ملاحقتهم أو كشف (جرائمهم) السياسية على حد زعمهم ، ويوم ضبط أحدهم في المدرسة ، تم سجنه لشهر من التعذيب وإعدامه أمام

طلاب البلدة ، بعدما قادوهم في مسيرة تأييد للسلطة الجديدة ، حشروهم في ملعب لكرة القدم ، تفاجأوا بقيادة طالب معصوب العينين ، أوقفوه وأمطروه بالرصاص بعد تخوينه بمعاداته للسلطة .

كان الطالب المعدوم ، واضعاً أوراقاً من كتاب (**عشرة أيّام هزّت العالم**) لـ (جون ريد) بين أوراق كتاب المنهج ، كتاب التربية الإسلامية ، بطريقة لا يمكن التوصل إليها ، ورقة منهج . . ورقة من الكتاب الممنوع ، اتهموه بتلويث كتاب الدين ونهج الحكومة بـ براز الاشتراكية .

في كل شبر أرض زرعت عيون تتلصص ، ساهرة **تحرس** النظام ، يخافون من نمو أحلام الناس ، عيون سريّة ظلّت تلاحق أصحاب التعهدات ، تمكن ابن أحد رجال الأمن أن **يستغل** خلو الصف من التلاميذ ، تسلل وراح يفتح حقائب المشكوك بولائهم ، سحب الكتاب الملوّث وقدّم دليل الجرم لأبيه .

حالات إخراج الطلبة من الصفوف تواصلت بحجج مبتكرة ، يخرجونهم بداعي العمل الشعبي ، يخرجونهم في رحلات راجلة إلى الجبال بحجة الرياضة الجماعية ، بحجة تقوية وتنشيط الأبدان ، على الناس في ظل الأنظمة الثورية أن تتمتع بالصحة الكاملة ، ببنية جسد **موفور** العافية ، كي يتهيأ كل فرد لحمل السلاح دفاعاً عن ثورية وطنه ، فيما بعد تبين أن هناك اتفاقات سريّة مبرمة بين مدراء المدارس ودوائر الأمن ، الوسيلة الوحيدة لغربلة أحشاء حقائب التلاميذ ، أكثر من تلميذ أكد اختفاء طعامه من داخل حقيبته ، كلامهم ذهب سدى ، ممنوع التفوه بما يشكك برجال أمن خلّص ، تنازلوا عن ضمائرهم من أجل (عقّال **رأس** الزلم) ، «**نفذ ثم ناقش**» ، نفذوا ما عليهم ووجدوا

أفواههم **مخيّطة** بالخوف والموت، كان رجال الأمن أو أبناؤهم بمشاركة المعلمين السياسيين يفتشون ويسرقون، لكن لا أحد يتجرأ على قول الحقيقة.

من خلال تلك العيون المتجسسة اختفى من البلدة، معظم الموقعين على التعهدات الأمنية، ألبسوهم تهماً منسوجة بشيطانية، **محاربة** الثورة، بعضهم تمكن من مغادرة البلدة والبلاد بعدما وجد فرصة مغامرة ناجحة.

من يومها وجد (ماهر) نفسه **تشمئز** منها، من كل شيء **يسوّر** معاصم اليدين، حتى من الأساور، رغم أن الساعة، أداة مفيدة، تعطي دقائق الزمن، تنظم حياة الناس، تبرمج الواجبات، تؤرخ الوجود بالثواني.

عقلياً بدأ يخمن الوقت، حسب حساب المسافة ما بين المدرسة وبين المقبرة، كم جلس، عجز ذهنه عن التوصل إلى حساب مقنع، حالة الإخفاق قائمة طبعاً، الفكر مشوّش، مشغول، القلب يضرب بعنف، لم يجد بداً كي يواصل مكوثه، الشمس بدأت **تطبخ** رأسه، عاد من المقبرة، وجد مكان وقفتها قفراً، باب المدرسة مصفقاً، لابد أنه أخفق في تقديره للزمن.

(مها) خرجت ولم تجدني. (قال لسانه)

وقفت تنتظر، حتماً غضبت، لا تحتمل الفتاة الصدمة العاطفية الأولى، الصدمة الثانية تمر مرور البروق الكاذبة، لابد أنها عادت إلى البيت مليئة بالخوف، قلقة، غير واثقة من تعاطفه معها.

وقف دقائق شبه يهذي.. يغمغم.

في الجوار أنفار تمضي، نساء ينشدن السوق، نساء ينادين

أطفالهن ، دجاجات تركض نحو مزبلة المنطقة ، ديك يواصل **سيادته** الكاملة على مملكة دجاج ، بين لحظة وأخرى يركب دجاجة ليدس حريقه في جوفها ، بحجة تلقيح بيضها ، قطط تغربل أكياس القمامات ، كلبٌ واقف عند باب مفتوح يرمقه ، خجل أن يطرح سؤاله على إنسانٍ يحمل في معصمهِ ساعة .

نهار يدنو من منتصفه .

(مها) لعبت لعبتها معي . (قال لسانه)

شيء من هذا القبيل بدا معقولاً له ، هكذا فكر ، لا يعرف لم طرأت بذهنه تلك الفكرة ، (مها) قالت كلامها برغبة وصدق وشوق بان من خلال نظراتها ، من خلال انفعالاتها ، من خلال لسانها ، قالت كلامها دون أن ترتبك ، يقسم أنها كانت تريد الحب ، ترغب بموعد طويل لوضع بعض النقاط الضائعة على حروف مستقبليهما ، ما زال يحتفظ بنظراتها ، بثغرها المبتسم .

داهمته الظهيرة ، بدأت طوابير البنات يخرجن من الباب الخلفي للمدرسة ، ضرب قلبه بعنف ، تراجع ، وجد جداراً يحتوي خوفه .

انتهت الطوابير . (قال لسانه)

انتهى العالم . (قال لسانه)

أين (مها) .؟ (قال لسانه)

لا واحدة تشبهها في المشي ، (مها) تمتلك مشياً نادراً ، تقدم ساقاً ببطء ، تمشي بحركة من تدربت على إحراق أعصاب الذكور ، تتبعها بساقٍ ، إنها توقع على الأرض بصمة الفرادة والريادة .

لابد أنها أرادت من كلامها أن ينتظر ، مهما يحصل ، عليه أن يقف ، أن يطيع أمرها ، لابد أنها وضعت في بالها شيئاً يهمه ، تعذر

عليه حساب الجوانب المتوقعة لسؤالها .

لابد أنها خرجت في موعدها ، كلام العاشقة قرار ، مواعيدها أقدار ، لا غرو حصلت الكارثة ، وجد نفسه في حيرة ، لم يعد يرغب في ترك مكانه ، ماذا يقول لها لو جاءت غاضبة ، عيناها ترميان بشرر ، أنفاسها حريق ، ليتها تعاتب ، عتابها كتاب يمكن طي أوراقه ، يمكن أن يخمد غضبها .

يائساً وصل البيت .

قالت أمّه :

«أين كنت ، لم تتناول فطورك .؟»

«ذهبت إلى المدرسة .»

«ألم تقل إنك ستتركها .!»

لم يجبها .

دخل غرفته .

أبواب العالم منغلقة بوجهه ، حب متعثر ، حياة فاشلة ، مستقبل ضائع ، لم يحتمل وحدته .

نهض وخرج .

على رصيف الشارع ، كان العالم مشغولاً ، مركبات حربية تنقل الجنود والعتاد ، ناس تتقاطع ، وحده بلا أمل .

في لحظة ضيق جاءت طفلة البريد تلهث ، وقفت قربه . . قالت :

«خالتي تسلّم عليك ، أرسلت لك هذه الورقة»

الورقة صارت بيده .

ركضت الطفلة ، شيعها بنظرات حائرة .

وقف متلهفاً ينتظر فرصة قراءتها ، قربه دكان حداد مغلق ، على

الباب **قماشة** سوداء ، «كل نفس ذائقة الموت» ، إعلان بشهادة والد صاحب المحل في الجبهة .

على السندان ، شعر في تلك الجلسة ، شبح مطرقة ارتفعت وبدأت **تهوي** على رأسه ، مرتجفاً بدأ يقرأ :

[لم لم تلبي رغبتي ، خرجت عند التاسعة ، قلت للمديرة أشعر بصداع ، أعطتني ورقة عيادة ، (ماهر) أضعت فرصة لا تعوض ، كان من الممكن أن نفصح عمّا في نفسينا بشكل أكثر ، نوضح رغباتنا ، أريد أن أعرف مدى حبك لي ، هل حقاً أثير إعجابك أم أنك متردد ، هل أصبحت قصيدة عصماء في ديوان قلبك ، أم أنك تعيش في عالم آخر ، لا تستغرب من كلماتي ، حبك شجعني على قراءة الأدب والنصوص ، ألتهم كل مفردة تثير عواطفي ، أم أنك تريد موديلات لقصائد لا تعنيني ، صحيح أننا لم نبرم الموعد مسبقاً ، من أجل هذا فقط أعذرك ، ربما في الفرصة القادمة ، نكتشف أنفسنا أكثر ، عش محترقاً على فرصة أضعتها ، في المرة القادمة احترس ، كن حريصاً ، لا فتاة تعشق كسلانَ ، أم أنك نسيت قبلاتنا السريعة خلف المدرسة .!]

***

مدجج بفرح غامر عاد ، سر سعادة مباغتة فضحه .

قالت أمّه :

«سبحان مغير الأحوال .»

«من أجلك لن أدع الحزن يسكنني مرة أخرى يا أمّي .»

هيأت غداءه ، أكل كثيراً ، بعد دقائق تمدد في غرفته ، منفوخاً بأحلام ستورق حتماً في القريب العاجل ، الحرب ربما ستنتهي سريعاً ، لا حرب تمتد في راهن الوقت ، أبواق **الإذاعات** تنعق ، ألسنة النساء تتناقل كل ما يقال ، لكن عقله فسر الحرب ، كل شيء سينتهي إلى خراب ، الصواريخ بعيدة المدى ، شاملة التدمير ، ستضع حداً عاجلاً لجمال الحياة ، رأي آخر يفرض حضوره ، الحروب **الإقليمية** طويلة النفس ، طالما دول **شيطانية** ترغب بتسجير تنانيرها ، تستفيد من بيع سلعها ، تبيع أسلحة لكلا الطرفين ، دول **الاستكبار العالمي** تقدم خبرات حربية وخططاً مقابل أموال الشعب ، فما **نفع** الأموال لشعب **قرر** أن يموت من أجل كرامة وعز وطنه ، الفقير حسابه خفيف ، فلا داعي للغنى ، طالما الجميع مشاريع استشهادية للحفاظ على منجزات ومكتسبات ثورتهم العملاقة .

قرأ ورقة (مها) أكثر من مرة ، بتأمل ، بشيء من البكاء ، بقليل من الضحك .

عينان أشرقتا من نافذة كياني
أحاول لململة جيش ضجري
أرى طفولتي
تتسكع في شوارع مجهولة العنوان
شتّان ما بينها
ـ مها ـ
وبين من عزفت قبلها
ـ مهدية ـ

في ربوع قلبي
أقصر الألحان
لم يعد الشعر قنديلاً
لم يعد الحلم دليلاً
لم يعد الأمل خيلاً
لم يعد خيالي أرخبيلاً
لم يعد الشعر حلماً
يبدد وحشة زماني . . !

***

أخيراً . .
اكتشفت حقيقتي
لم تعد (فناجين الدجل) تروي قضيتي
لم تعد
كلمات ليل الكسل
تطوي حتى الصباح
بين جدائل الفجر
مصيبتي
يا غربتي . .
ها هي بنت الزقاق
تدق مسمار براءتها
على جدار صعلكتي
ها هي

بكامل مستقبلها
ترتمي على جرف حياتي
لتستكمل محنتي .!!

***

رأسها على كتفه .

أنفاسها تكبس المساحة بدفء **مدجج** برائحة آباط وعرق وأغوار ظامئة وضجيج حشرات الليل .

«ليلة أمس تعذبت كثيراً يا ماهر .»

«لم يا روحي .؟!»

«بقيت حتى منتصف الليل أخرج إلى رأس الزقاق وأعود قلقة .»

«أنا أيضاً سهرت جالساً أفكر بك ، وأكتب لك حريق مشاعري .»

«سأقرؤها ، أرجو إن صحوت من كوابيسك .!»

تحاوره بلهفة ، تشتبك الأيدي ، أناملها **تعجن** أنامله ، أنفاسهما تتلاقحان ، تلتقي أربع عيون وسنانة ، خدر العاطفة بعد النزيف يرتمي بوضوح على ملامحهما ، ثغران يلتقيان ، يفرغان **ميازيب** غورين سكرانين ، يفترقان ، خوف مؤزل لا يبارح مساماته ، يستفزه ، يلجم لسانه ، يحاول خنق الكلمات التي تحتشد في رأسه ، ينظر إليها ، براءة فتاة مرتاحة ، تكاد تندمج فيه ، يكاد يرى **عصافير** السعادة تنطلق من خلف أسوار عينيها ، يشعر برفيف أجنحتها ، يغرق عميقاً فيها ، تمد سبابتها ، تنغز أنفه ، ينتفض .

«مها . . أنت أكثر مني شجاعة .»

«بل أنت أكثر شجاعة منّي .»

«لا فتاة تتصرف بهذه البطولة .»

«أنت البطل ، حطمت أسواري ، ودخلت القلعة من غير حرب .»
«حسناً كلانا اشترك في صياغة بنود هذه المؤامرة العاطفية .»
لم تعقب .

حرارة لاهبة تذيبه ، ذاب في غيبوبة وعاد ، كيانه يذوب معها في قبلات لا تنتهي ، تتأوه ، يا لتأوهاتها المدمرة ، (مها) **اثنتا عشرة** سنة عمرها ، يا للتوافق الكوني ، كل شيء يبدأ بهذا الـ **رقم العجيب** ، إنها من حيزه الرياضي ، تشاركهم تدرجات السلسلة الحسابية المعقدة ، ما بينه وبينها **ست** سنوات ، نصف الرقم العجيب أيضاً ،

(مها) نضجت ، تعلمت الحب بلغة الكبار ، أليس من حقه أن يصفها صبيّة مدمرة .

همس في أذنها :

«مها . . من علّمك الحب .؟»

«أنت . . !»

خرجت الكلمة متأججة ، ملتهبة ، جعلته يشد بحرص على كتفيها ، يكورها بـ **عنف** الرغبة ، بقوة النار الناهضة في أحشائه . . قال :

«مها . . أحبك .!»

لم تفه بشيء .

تذوب شيئاً فشيئاً قبل أن يجدها **تغط** في سعادة شبيهة بالموت ، كان يواصل **عصر** فاكهتين متجاورتين ، متساويتين ، لا تتجاوزان كرتي **جوز** على صدرها ، ما بين لحظة وأخرى ، يدنو شفتيه من فمها الصغير ، يسقي حديقة ليله بفيضان رضاب .

أمضيا بقية الليل .

فجر الفراق يجيء سريعاً .

أيقظخت من غيبوبتها ، بذهول فتحت عينيها ، كلام واضح وصريح يلوح في أعماق عينين ناعستين ، لا تريد لليل أن ينقضي ، (مها) جشعة ، رغبت أن يتوقف الزمن من أجلهما ، لا تريد الفجر أن يدنو ، تخاف أن يبدد حلمها .

«ماهر . . ما الذي حصل .؟»

«لا شيء»

«حلمت أننا نشنق في الزقاق .»

«هوني عليك يا – مها – الحب أقوى من الموت .»

عدلت في جلستها ، لملمت شعرها وشبكته بمشبك . . قالت :

«غداً سأنتظرك في الموعد نفسه .»

«ولكن . . »

«سأرسلها إلى بيت أختي .»

«أما تشك أو تخاف عليك .؟»

«زوج أختي سيق للعسكرية ، إنها تخاف الوحدة ، أمّي تذهب لتنام عندها .»

«وأنت أما تخافين .؟»

«أنت تحميني .»

«ليت الغد يأتي الآن .!»

«عليك أن تذهب كما جئت ، إيّاك أن تسمح لأحد أن يراك .!»

قام . . رؤوس أصابع قدميه تكفلت في مروره بأمان .

زقاق يتململ من تحت غبار الليل ، مشى باتجاه الجبال ، لم يجد حلاً بديلاً ، هناك سينتظر حتى صعود قرص الشمس ، عندها يعود

ليواجه سؤال الأم ، حتماً ستسأل عن سر هذا الغياب ، شيء جديد يقتحم حياة (ماهر) ، لم تعهده فيه ، فكر بشيء معقول ، بجواب حاسم ومقنع يرضيها .

مرتبكاً رصد في عينيها غمامة قادمة .
قالت :
«أراك مشغول القلب .!»
«بدأتِ تشغلين نفسك بي يا أمّي .»
«يمكنني أن أقرأ ما يجول في ذهنك أيضاً .!»
شعر بـ **طلقة** صائبة أحدثت خرقاً في منظومة قلبه ، لم يعقب ، جف حلقه ، تشكلت صفرة مباغتة على وجهه ، تركها ودخل غرفته ، تبعته . . قالت :
«ماهر . . ماذا بك .؟»
«لا شيء .!»
«أ . . أزعجك كلامي .؟»
«كلا . . »
«تغيرت ملامح وجهك .»
«أنا متعب يا أمّي .»
«لا تزعل ، أم – سليم – حكت لي عنك .»
«ماذا حكت .؟»
«علاقتك مع – مها – »
خنجر صدأ **جرح** ما تبقى سليماً من جسده ، طعنة أولى بدأت من الأم ، أم (سليم) جارة (مها) أجهزت على ما كان أملاً قائماً

لتصحيح ملابسات القضية .

وضعت الأم يدها على رأسه .

قالت :

«ماهر . . أخاف عليك من هذه البنت المصيبة .»

«مصيبة . . !»

«تقول أم – سليم – إنها تتحرش بالفتيان في الظهيرات ، وكثيراً ما كانت ترافقهم إلى داخل الحدائق .»

«أنت تقولين أشياء خطيرة يا أمّي .»

«لست أنا من يقول هذا الكلام ، هي حكت لي ذلك .»

«لكنها بنت صغيرة على هذه الأشياء .»

«وكيف غدت كبيرة معك ، أم – سليم – رصدت كل حركاتك معها .»

جف لسانه . . بدأ يذوب كقطعة **ثلج** في نهر الخوف .

غاطساً في **مزاج** سيء .

ما عمله كي يستره صار قنديلاً متوهجاً بالفضيحة ، (مها) هل حقاً هي لعبة حياة جانبية؟تلك الفتاة الصغيرة المتوهجة بمعرفة عاطفية متناضجة ، عقله رفض تصديق حكاية امرأة خبّازة ، امرأة فقدت زوجها ، متفتحة في حياتها ، يسمونها ثرثارة الزقاق ، من أين أتت بهذا الكلام؟ لم تتحدث عن أشياء قد تكون مفتعلة؟ ما دوافع كلامها؟ يكاد يشعر بشيء **محبوك** بعجالة لغاية يمكنه التوصل إليها ، (مها) لو كانت كما تقول أم (سليم) البصراوية المتبقية في البلدة من بعد مقتل زوجها في شجار ليلي بالسكاكين قرب نادي الموظفين ،لكانت حشود الفتيان المراهقين ، ومواكب شبّان أصحاب الغرائز الحيوانية يحومون حولها ، لأصبح الزقاق عرضة لغزوات أصحاب الشهوات المرتجلة ، لحدثت معارك ما بين **فرسان** الزقاق والصائلين ، عقله **حسس** قلبه ، في القضية شك واضح المغزى ، يحتاج إلى تحرك سريع ، لخنق رائحة مقيتة ، قد تنتشر ، وتلوث **عطر** وردة ، بدأت تفوح برائحة الحرية ، بروح جميلة تعج بحياة حافلة بكل إشكالات المودة ، في عالم ما زال يتعامل بالكلام العابر ، بالهذر العقيم ، بتربية **أسرية** جاهلية ، تنبذ حداثة الواقع وما بعدها .

استقر قلبه على يقين .

لم يخرج في تلك الليلة ، ظلّت (مها) محترقة بنار الانتظار ، تراقب من خلال فتحة الباب مرور (ماهر) ، رغم لهفته ورغبته لليلة

أخرى من الآثام ، اصطدم بحراسة مشددة من قبل الأم ، كانت ساهرة تحاوره عن أشياء لم يصغ لها ، حتى غلبه نعاس لا يهادن ، وغطس في نوم شبه عميق .

مرتبكاً نهض .

ليل يدنو من مخالب الفجر ، قام وتوجه نحو الباب ، وجده مغلقاً من الخارج ، لم يرغب أن ينهض الأم من نومها ، لم يعرف كيف تركته في غرفته ومتى غادرت ، عرف . . لم أغلقت الباب عليه ، كانت تعلم أنه أقدم على قراره ، ما يسكنه صخرة عملاقة ليس بوسع الكلمات زحزحتها ، ما سمعه منها من كلام شبه **مدسوس** لم يشكل لديه هاجساً ينهض غيرته ويبعده عن (مها) .

عاد إلى فراشه ، قضى الوقت المتبقي تأملاً في الفراغ ، قبل أن تطل الأم من النافذة ، ألقت نظرة ، أغمض عينيه متظاهراً بالنوم ، رغب اعطائها فكرة عن عدم اهتمامه بـ (مها) ، ما سمع من كلام شبه جارح بخصوص علاقته المزعومة بها ، دعابة امرأة معروفة ، كلامها يطوي غاية مبطنة ، فمعظم ناس البلدة تعرف (أم سليم) ، امرأة لا **تستحي** مذ سكنت الزقاق قادمة من (البصرة) ، كلام مقرون بدليل يشير إلى أنها جاءت منهوبة من قبل زوجها السكير ليل نهار .

فتحت الباب . . تقدمت من سريره . . قالت :

«ماهر . . !»

لم يحرك ساكناً . . أردفت :

«انهض . . لا تتظاهر بالنوم .!»

نهض متثائباً كي يقنعها أنه كان في زورق النوم . . قال :

«صباح الخير . . أمي العزيزة .»

«انهض وأجلب لنا الصمّون .»

فرحة غامرة تملكته ، اغتسل وتهيأ للخروج ، وجد الزقاق هادئاً ، لم يجد (مها) ، مشى سالكاً الزقاق من حيث بيتها ، رغم أن فرن (الصمّون) الحجري يقع في الطرف المعاكس ، وصل الشارع وعاد ، لا شيء سوى نبض قلب متسارع ، وصوت لهاث يندس في خرس الزقاق ، في صمت صباح على التو بدأ يتنفس .

أبواب المنازل مغلقة ، ظن أخبره ، نساء الزقاق سهرن كثيراً منتظرات صولته ، كل عاشق في البلدة مفضوح ، (ماهر) عرف من خلال نظرات نساء الزقاق ، وهي **تنحفر** فيه ، أنّه ما عاد **محترماً** كما كان ، لا يعرف أهي الفضيحة تحرك أعين النساء؟ أم وسامته وجمال ملامحه تثير فتنة رغبات **صويحبات** الرغبة ، أم ما زلن يجدن فيه ملامح جدّه صاحب الكرامات ، بعدما يئسن من الوقوف خلف شقوق الباب ، أو وراء النافذة ، قفلن أبواب منازلهن ونوافذ الغرف المطلّة على الزقاق ، ووجدن نوم الصباح خيراً من مطاردة عاشق كسول .

أبواب المنازل مغلقة

النساء متخدرات في الفراش

النوافذ تحرر آهات حرائق

حيرتي تلتهم الدقائق

من فجر البلدة

تنبثق

على مرمى بصري

شمس الحقائق . . !

***

(مهـا) لابد أنها ضجرت أيضاً ، سئمت الوقوف ، ومضت إلى منامها ضامرة في نفسها موجة غضب ، ستصعقه بنظرات كهربائية ، قبل أن تحاسبه على إخلافه الموعد حساباً عسيرا .

وصل فرن (الصمّون) ، وجد أكداس ناس تتدافع ، من بين حشد النساء لمح (مها) تناضل ، شعر براحة وفرحة ، مضت دقائق قبل أن تنتبه لوجوده ، بادلته بسمة ، خجل أن يماثلها ببسمة ، وجد عيون النساء كلها تحفره ، عيون متناعسة راحت **تتنفس** بوسامته ، كانت **عصافير** الآهات تتطاير من حدقات تعلن صراحة أنها غيورة ، شيء من هذا القبيل حصل ويحصل دائماً ، كان يصطاد تلك الحالة ، أيّام التجوال بحثاً عن قصائد متناثرة في معظم أزقة (جلبلاء) ، وسامته **شكلت** هاجس الغيرة لدى الكثير ممن أبتلين بـ **أزواج** تعساء الحظ والسحنة .

حصلت (مها) على كيس (صمّون) وتملصت من الزحمة . . قالت :

«كن شجاعاً ولا تنتظر .!»

جاء دوره بعد ربع ساعة انتظار ، تناول كيس (الصمّون) ، وجدها واقفة من غير سبب إلاّ إذا كان وقوفها من أجله .

مشى . . مشت وراءه .

شعر بوقع خطواتها . . صاحت :

«ماهر .!»

توقف .

«لم تركض .؟»

«أخشى أن يرانا واش .»

«ماهر . . أرجوك أقدم اعتذاري ، جاءنا ضيف ثقيل ولم أستطع انتظارك أكثر .»

«آه . . تعبت كثيراً .»

«الليلة سأنتظرك .»

«ربما سنقع في ورطة قريبة .»

«لنجعل لقاءنا بعد منتصف الليل .»

«ومن قال أم – سليم – ستترك حبلنا على غاربنا .»

«لا أدري ، طيلة النهار تقف على التنور .»

«من وضعت في بالها الفردوس لابد أن تلجه .»

«ليلة أمس كنت بحاجة إليك .»

«وأنا أيضاً .!»

عبرا الوادي وقبل أن يصلا مقدمة الزقاق ، بدأ يمشي ببطء . . مشت هي أيضاً ببطء . . قال :

«يجب أن نفترق قبل أن ترانا العيون .»

«لا أحد يشك بنا .»

«نساؤنا لا يفرقن في الأمر ، إنهن يؤولن المواقف بمزاج أنوثتهن .»

«عندما تكون أم – سليم – نائمة زقاقنا بخير .»

«وما دخلها بعلاقتنا .»

«ثرثارة نجلس حولها ، لا شيء في لسانها غير تلفيق قصص عن نساء الزقاق .»

«ولم تجلسين معها .؟»

«جارتنا . . »

«وهل تذكرني بسوء .؟»

«لو تحدثت عنك بسوء سأصفعها .»

«لكنها تحدثت لأمي .»

«وماذا قالت .؟»

«تربطنا علاقة .»

ضحكت (مها) ، كانت سعيدة بالخبر ، توقفت عن ضحكتها . . قالت :

«أنا حكيت لها عن علاقتنا .»

«أنت . . !»

«قلت لها – ماهر – يحبني .»

«أنت مجنونة يا – مها ـ»

«إنها ترغب أن تزوجك بنتها – كريمة .»

«يا مها . . إنك تلعبين بالنار .»

«ما العمل .؟ كنت خائفة منها .»

«ومن قال إنني كنت أستبدلك بفتيات الدنيا .»

«– كريمة – بنتها وضعتك في بالها بعدما . . . . .!»

«بعدما . . ماذا . . ؟»

«صراحة . . إنها تقرأ لي رسائلك وتكتب لك رسائلي .»

توقف . . وقفت مرتبكة .

لم يعد يمتلك كلاماً مفيداً ، نبض قلبه تكفل بـ **قفل** كل رغباته ، مشى من غير كلام ، لهثت وراءه . . قالت :

«ماهر . . أعدك أن لا أفعل ذلك ثانية .»

قبل دخول الزقاق . . قال :

«سامحتك على ذلك يا – مها ـ»

كلامه بث فيها ضوء الفرح ، دفعها تمشي سريعاً ، كان ينظر إلى خطواتها ، تمشي بمرح ، بخطوات واثقة تتوافق مع نبض قلبه ، وصلت باب البيت ، وجدها تلوّح بكفها دليل فرحتها ، عاد وكلّه فرح ، اكتشف سراً توقعه ، سراً قرر أن يعمل جاهداً كي يخنقه في منبته ، أو يكتبه في كراساته ، اكتشف أنّ الحب ليس **نعمة** في البلدة ، نقمة تقود إلى الموت دائماً ، وباستثناءات قليلة جداً تحصل فرص النجاة .

(مها) وردة تحتاج إلى رعاية نادرة . (قال لسانه)

تجهل (مها) أن الحياة بالون منتفخ آيل للانفلاق في أية لحظة ، أو التحليق خارج **مزاج** الواقع ورغبات الناس ، تتشكل الحياة من مجموعة حقائق ثابتة ، وكثير من المغالطات المصطنعة ، ينبغي على المرء التشديد في الحراسة واليقظة ، والعمل الدؤوب كي يتم **عزل** المعسكرين المتناحرين بـ **سياج** الصدق ومتطلبات الواقع الأليم .

الحياة لم تعد مدرسة تعلّم الناس **فن** العيش بسلام ، الغيرة تهيمن على ناس فقدت صلتها بنفسها ، فقدت صلتها بثقافة الحياة ، تخلت القلوب عن النبضات الشعرية لجماليات الأشياء من حولها ، أهملت **ألفباء** السعادة الأبدية ، الموجودة في عقولها ونفوسها ، فطفح بوضوح وشراسة **كيل** الرياء وساد حب التملك من غير كد ، لا يرتقي الشيء إلى قمة الرغبة والمزاج ما لم يسقط بيد شخصٍ ما ، كل شيء يرتقي في الحياة ، يغدو في دائرة الطمع العام ، عيون الناس لا تدرك القيم الجمالية وأثمان الأشياء ، ما لم تغدُ تلك الأشياء أملاكاً بحوزة الآخرين .

من وراء سياج الغيرة
أشرب حباً مشوشاً بالمجون

أوجاعي ترفض الترجل من علياء مسرات عيوني
ما يصالحني من كلمات
تدق آخر مسامير الرحيل
في تابوت جنوني .!

***

حكايات نسوة الوقت لا توزن بميزان
ألسنتهن شواظ نيران
وحصاني الغاضب
حيران
يرفض مغادرة الميدان .!

***

تاريخي انتهى
أرصفة البلدة اشترت حقوقه
مطابع الزمان ترفض نشر يأسي
لم أجد شعراً يعيد لي بأسي
ربما (مها) قصيدة جاءت تحتربني
وتدخل من غير وزن
قاموسي .!

***

دَخَلَتْ غرفتها
دخلتُ غرفتي
ماذا تقول .؟

شيء بات يعنيني
ماذا لدي أن أقول .؟
ربما تعنيها كلماتي
كلانا نمتزج أوان الفراغ المهول
نكمل في الخفاء ما نسينا من حوار
حتماً سيطول
لعنة خفيّة تتغذى على كلمات حب لا يزول .
ما نبنيه أوان اللهفة
ليست نسمة خادرة
أو لقمة عابرة
طعماً لغضب الفصول .!

***

حب – مها – قدر
زرع وهج القمر
في ظلام عمري
حتماً سيبدد وحشتي
يوم أسكن القبر .!

***

هارباً من **وجه** الحياة ، جالساً على صخور تطل محاذية لوادي البلدة ، صخور ليست طبيعية ، ترجع لسنوات بعيدة ، يوم جاء (اليهود) وأدخلوا القاطرة البخارية إلى أحشاء الزمن ، احتشد الناس **جامدي** العيون ، تكاد قلوبهم تنخلع ، وقفوا خاشعين لسلطة الخوف ، أيديهم على أفواههم ، ألسنتهم تتعوذ وتستجير ، وقلوبهم توحدت في النبض والهلع ، عيونهم تحجرت على مشهد **يوم** مخيف ، هالهم منظر قضبان حديدية طويلة كثعابين تمشي ، كان التصور واضحاً أن (اليهود) خلقهم الله سحرة كفرة ، في كل عصر وفي كل مصر يسحرون الناس بمعتقد جديد ، فجاءوا بقضبان لا نهائية ، تماشي التطور العقلي للبشرية ، لم تعد العصي المتحولة إلى **ثعابين** تنفع ناس الوقت كي يعيدوا حساباتهم الإيمانية ويبقوا رعايا المعابد وخرفان الكهنة المطيعين ، جاءت الثورة الصناعية تعويضاً عن البدائيات اللسانية والنبوءات العقلية ، يمكنها إعادة بناء الإنسان الحائر ، ورصه من جديد ضمن صفوف الباحثين عن **سعادة** الآخرة الأبدية .

بقت الرهبة متواصلة ، لم يتجرأ إنسان من البلدة على المخاطرة بحياته وعقيدته ، ليقتحم **جوف** ثعبان ينفث بخاراً ودخاناً وناراً ، كانوا من وراء النوافذ ومن فوق الأسطح ومن خلال شقوق الأبواب ، يتعوذون ، شاتمين (اليهود) ، قبل أن تمضي الأيّام لتقتنع نفوسهم ، وترضخ إرادتهم في نهاية المطاف لواقع مرير .

رصفوا حافة الوادي الكبير بحجر ، خشية انهيار سكك الحديد جرّاء الفيضانات المتواصلة ، يوم كانت السماء كثيرة البكاء ، كانت السيول المائية تزحف بشكل متواصل طيلة أيّام الشتاء ، أعطت الصخور المتراصة حصانة زمنيّة من آفة الفصول وتقلباتها ، ومن جهة أخرى وظيفة إبراز منظر جانبي أخاذ للجانب الشمالي للوادي .

(جلبلاء) بلدة **تتخصر** كتف نهر يتشكل من اتحاد فرعين ، فرع ينحدر من الشمال يسمونه (سيروان) ، قبل أن يتعاشق مع فرع شرقي **خابط** الماء ، يسمونه (ألون) ، يشكل الاتحاد نهراً يجري محاذياً البلدة قبل أن يتفاجأ في منتصفه بواد يدس فيه مساريب مجاري مياه المنازل طوال العام وسيول جبلية غاضبة أوان سنوات الخير .

تمتلك البلدة تأريخاً مشتتاً ، لم ينبرِ مؤرخ ليتصدى لمكانتها بين المدن ذات الأثر والقيم الحضارية ، كي تتوفر لها فرصة الاحتفال السنوي بميلادها ، وقيام ملتقيات تاريخية وثقافية فيها ، ربما لدوافع سياسية معروفة ، فمن يكتب تأريخ المدن لابد أن يمرر كل صغيرة وكبيرة ، شرط أن لا تتقاطع مع **أفكار** وتوجهات السلطةالحاكمة .

في (جلبلاء) جملة ثوابت راسخة ، تمررها الألسنة سراً ، راهنوا عليها أولئك الذين **يقرؤون** **ويحملون** الكتب دائماً ، كل الثورات التحررية ، رغم دكتاتوريتها في نهاية الأمر ، سواء أفلحت في **قلع** الأنظمة السابقة أو زعزعتها وأفرغت نصف محتوياتها ، تبدأ شراراتها الأول من بلدة (جلبلاء) ، على اعتبار منطقي أن في البلدة موقعاً عسكرياً حيويا ، ومدرسة قتال تعلم وتخرِّج أصناف الدروع ، رماة وسوّاق ومخابرين وأمراء طوائف ، يوجد مخزن حصين لعتاد نصف جيش البلاد ، وتقع في منطقة ذات أثر رجعي ، بالنسبة لمن يبغي البدء

بثورة لتسنم زعامة البلاد ، إذا ما فشل في حملته ووشي به ، يجد الشمال الآمن في مرمى حجر منه ، بإمكانه أن ينفد بجلده ويخلّص رقبته من حبل الشنق ، معظم الضبّاط ، أصحاب الأنفس الثورية والأحلام الرئاسية ، عاشوا في هذا المعسكر ، ومنه تبلورت في رؤوسهم فكرة تغيير أنظمة الحكم طمعاً بـ ثياب العز ، فمن بوسعه الكتابة عن بلدة حاضنة لـ **جراثيم** الدكتاتورية ، الحكومة الجديدة خنقت البلدة وكبستها في سطرين ، بعدما قررت إعادة كتابة التأريخ للبلاد ، قالت : «كانت البلدة ممراً حيوياً لجيش – سعد ابن أبي وقّاص – بقيادة – هشام بن عتبة بن أبي وقّاص – لدحر الفلول المتبقية للساسانيين في واقعة – **حلوان** – التي تبعد عن – **جلبلاء** – بعدة فراسخ .»

بدا هذا السبب أكثر إلفاتاً للنظر وأوضح سبيلاً كي يمر **قلم** التاريخ من غير تهميش على بلدة حافظت على اسمها وجغرافيتها عبر كل الأنظمة المتعاقبة ، سبب لا يثير اهتماماً ومجلو من **غبار** الشك وأقاويل المتبطرين ، بـ **جرّة قلم** من متعطش خدوم ، جعلها أن تمر مرور الكرام عبر سطرين في **جبل** التأريخ ، فهي مكان وسط يربط شمالاً **غاضباً** ووسطاً **مهملاً** ، تلتقي فيه شبكات السكك الحديدية ، كعروق الأوعية الشعرية الدموية ، مروراً بالقرى والأرياف لتربط مدناً حيوية ، يتم نقل خيرات البلد منها وعبرها وإليها ، منها يتخرج عسكر البلاد بعدما ينهون تدريباتهم بالذخيرة الحيّة في (ميدان الرمي) .

أربعة منازل كانت تقتسم الوادي ، تزرعه صيفاً لوفرة الماء المتراكم من جرّاء السيول العابرة ، أحد تلك البيوت كان بيت أبو (ماهر) ، قبل أن يزحف اثنا عشر منزلاً لعائلات أعلنت أنها (رحل) ، جاءت تبحث عن فرص أفضل للعيش ، بعدما أتت (الهنود) تحت إمرة (اليهود)

وقيادة (الإنكليز) لمد (سكة الحديد) وتمرير قاطرات بخارية قبل منتصف القرن العشرين ، وبناء بيوت للعسكريين ولعمّال السكك ، العسل الذي شجع الناس على هجرة قراها وأريافها لتدخل البلدة في زمن آخر ، زاخرة بفرص العيش الرغيد .

يوم مجيء الحكومة الجديدة ، بدأت السماء تكتئب ، جفت دموعها ، كانت الغيوم تتراكم ، ترسل غضبها عبر بروق راعدة ، قبل أن تتكشف عن غبار **يهطل** خانقاً جمال الحياة ، الناس ربطت عدم نزول المطر بنوعية البشر ، الحكومة بعدما أعلنت **حربها** على الداخل والخارج ، بعدما أبعدت بيوت **الأكراد** إلى الصحاري لتفكيك شملهم وتضعيف عرقهم ، بعدما رفعت **قبور** الموتى من أماكنها ، وبنت بيتاً لعرض الفساد ، بعدما جعلت حافة النهر ، الرقعة المشجرة ، ملاذاً ليلياً لأصحاب الفراغ ، تدار **كؤوس** الراح ويضج فضاء البلدة بريح سكرانة مضجحة بقهقهات الآثام ، الأمر الذي هيّج أمخاخ الكثير من الشباب تحت سن البلوغ ، فاندفعوا متحمسين للظفر بهذيانات وجنون الليل ، لم تنفع الجهود لردعهم قبل أن يتم التوصل إلى فكرة البيع المباشر ، فتحوا كوّة صغيرة في زاوية مختنقة بالأشجار ، تطل على النهر ، يتم التسرب إليها في عتمة دائمة ، ومن يومها تصاعدت أصوات أصحاب المحال في أغلب الصباحات ، بعدما اصطدموا بكسر أقفال دكاكينهم وسرقة نقود قاصاتهم الخشبية ، لم يتم التوصل إلى جان ، قبل أن تجتمع الآراء على تأجير حرّاس ليليين مقابل أجور يدفعونها هم ، وبعدما رفعت سكك الحديد وألغت القطارات ونقلت مئات العائلات العمّالية إلى دوائر صحراوية ، صارت البلدة والبلاد ساحة مفتوحة لكل وباء يبحث عن حاضنة ولود .

ضفادع تنق في ملحمة حياتها ، حرة كريمة ، لم يعر (ماهر) أدنى اهتمام لرائحة حريفة يدلقها ماء أخضر متخثر ، يتشكل على مدار الأسابيع والأشهر من مجاري البيوت ، تغدو مستنقعات صغيرة ، تزحف بتململ **مضوّعة** المكان برائحة مقيتة ، تضم في تحشدات مفزعة جحافل بعوض وحشرات ضجيجية متنوعة .

العالم بالنسبة له ، في تلك الساعة ، استحال إلى غول شره جائع ، يزحف للانقضاض على ما يمتلك من بقايا أحلام ، ليس أحلامه فحسب ، بل أحلام الناس من حوله ، يجيء بكامل السلاح وكل التكنولوجيا لدحر بصمات الجمال المتبقي في البلدة وفي سائر البلدات .

حين يجلس (ماهر) منفرداً ، ينشغل ذهنه ، مشوشاً ، مشتتاً ، مخّه مصادر ، تائه في متاهة ، يبحث عن ملامح هالة ممكنة ، فقرات حياة بدأت **خطوات** نهايتها تهيمن على كل شيء .

بدا الصباح ساكناً ، قربه ، على يمينه مزبلة المنطقة ، رهط كلاب تنبش أكوام القمامة ، يائسة ، لاهثة ، تبحث عن شيء مفيد ، بقايا طعام **عفن** قذف من بيت ما ، عظام مهروس ، كلاب كيف انسلت إلى أحشاء البلدة؟ من أين أتت؟ ، لم يطرح على نفسه السؤال ، فهو يعرف ورأى بأم عينيه كيف تمت إبادة الكلاب الضالة ، في حملة حكومية عملاقة ، رأى رجالاً يمتلكون وحشية الغاب ، يتجولون بين الأزقة بحثاً عن كلب أو جراء ، بضغطة زناد يجعلون الكلب يرقص طرباً وهو يودع الحياة ، أحياناً كانت رصاصاتهم تفلت عن المسار الصحيح لتمزق رأس طفل يراقب ، أو امرأة تجرجر عباءتها عائدة من السوق ، على ما يبدو أنها كلاب غريبة ، تجهل القانون العام للبلدة ، دفعها الجوع أن تطارد

رائحة المزابل العاجة في كل شبر أرض .

رهط دجاجات وديك يتأهبون لهجوم صاعق ، ما إن تنسحب الكلاب متذمرة بحثاً عن مزابل أخرى ، ففي زمن الحرب الكل يخضع للتقشف .

أشياء كثيرة تباغت حين يختلي المرء إلى نفسه ، فاجأه **موج** الندم ، تألم ، لم يعد يعلم لمَ لم يسع في دروسه ، كما سعى في شرب **شراب** الشعر .

لا شيء ينفع بعد ضياع فرص العمر الذهبية .! . (قال لسانه)

***

قبل خروجه من البيت . . قالت أمّه :

«هيأت لك حقيبتك .»

«قد تكون حقيبة حتفي .»

«ماهر أنت تقتلني بكلامك .»

بكت ، تقدم منها ، احتضنها ، قبّل يديها ، قبّل رأسها ، مسح دموعها . . أردفت :

«لا تكرر هذا الكلام ثانية .»

«أعدك يا أمي بذلك .»

«هيّا اجلس .؟! وتناول الفطور معي ، لا تهتم الله سيرعاك ويحفظ شبابنا من **بلوى** هذه الحرب .»

«الحرب يا أمي يعني حياة تافهة وعمراً بلا معنى .»

«ماذا نعمل ، كل أرعن ، كل ضال يصبح - **كلباً** - على الشعب ، يبدأ برفع **سيف** الباطل ليذبح **صوت** الحق .»

«لا أعرف لم زمر الضلال والظلام دائماً يصبحون رؤساء .؟!»

«يا ولدي . . أبوك رحمه الله كان يقول لي ، عندما تفسد قلوب الناس ، يظهر فيهم - **أعور محتال** - كي يعاقبهم حتى يمشوا على الصراط المستقيم .»

«حقــاً يا أمي ، كلامه كان عل حق ، الناس بدأت تفقد صلتها بـ **الرحم** و**الرحمة** ، صارت تدوس بأقدامها على النعمة ، الناس تستحق هكذا - **جرذي** - لينهش لحم أجسادهم بالحروب والسجون .»

«هيّا تناول فطورك معي ، ستتركني غارقة في محراب البكاء .»

أجهشت مرة أخرى بالبكاء ، مسح دموعها . . قال :

«لن أتناول الفطور إن واصلت البكاء .»

توقفت . . ابتسمت بوجهه . . قالت :

«مات أبوك قبل أن يرى هذه اللحظة الحاسمة في حياة كل شاب .»

«لا أعرف لم يفتخر الأب يوم يساق ابنه جندياً .؟»

«يقولون الجندية تصنع الرجال .»

«وما دور الشارب؟»

«كثيرون لديهم شوارب لكنهم **نسوان** يا ولدي .»

صمت .

دمعت عيناه ، قام وتوجه خارجاً ، صاحت وراءه ، لم ينفع صياحها ، وصل الوادي وجلس يفكر من غير تمعن وبصيرة ، بزمن قادم .

وجوه تنوعت . . وجوه تضحك . . تمتلك قدراً كبيراً من المرح واللامبالاة ، تطلق الطرف ، تحرر الضحكات بقدر عالٍ من الصوت ، ومن لا يمتلك روحاً مرحة ، يرفع صوته مزمجراً يلوّث **جو** المرح بأصوات منكرة .

وجوه مغتمة . . لا تمتلك الكثير من الوسائل كي تتعايش مع القدر ، دامعة العيون ، منغلقة القلوب ، كأنها تساق للمشانق .

الحروب مشانق جماعية . (قال لسانه)

كل طرف **يشنق** الطرف الآخر من غير ذنب أو محاكمة ، الحرب في مفهومها العام شنق بالجملة ، من غير توقيتات معلنة ، في زمن الحرب ، كل أمرىء محكوم بالموت ، صغاراً وكباراً ، رجالاً وإناثاً ، الجماد والشجر والحيوانات ، الكل خاضع للبشاعة البشرية الأبدية .

الشعوب يشنق بعضها بعضاً ، بوسائل متنوعة ، قد تكون طريقة الشنق أكثر بشاعة من شنق الحروب ، كون المشنوق يرى موته ، يعرف ساعة خلاصه ، يرسم **مشهد** موته على إيقاع قلبه .

في الحرب يأتي الشنق من باب المصادفات ، كثيرون تمر بهم **ماكنات** الشنق ، تخطئهم ، أو تكتفي بترك أوشام أو عاهات تجعل من بقية حياتهم جحيماً وشنقاً يومياً .

من خلال النافذة ، يتأمل (ماهر) التلال الهاربة ، منازل منفردة مسوّرة ببساتين متهالكة ، عربات عسكرية تمر محملة بجنود مخوذين

ولابسين **لباس** الحرب ، نساء يتناثرن في المزارع والحقول ، الرجال أصبحوا عسكراً ، رأسه يكاد ينفلق ، صخب آلة التسجيل يمزق التفكير ، يضجر الروح ، **تزنعر** كلمات أغنية سطحية ، لا شيء سوى صراخ وطبل وصوت أنثى تحاول أن تقنع السامعين بجراح قلبها وهجر حبيبها الأسمر ، شاعت **هجمة** أغان تم إدراجها من قبل المعنيين والمختصين من أصحاب الأذواق القديمة والمدافعين في كل محفل عن موجة السبعينات ، كون السبعينات أتت بأصوات **ذهبية** ترسخت في القلوب والأذهان ، الآتون من بعدهم تم زجهم في سجل الموجة الهابطة .

التغيير السياسي وتبديل الوجوه يتبعها تغيير في كل المعايير ، لابد من (ستيرن) بيد ماكر يمتلك مهارة في توجيه دفة الأمور لتماشي مزاج **سيد** المقام العالي ، كي ينام مطمئن البال ، ولا ينشغل بأمخاخ الناس المتعجرفة ، ليتفرغ لأموره الخاصة وتوزيع منجزات **ثورته** ومكاسبها على الأهل والعشيرة والخلاّن ضيزى .

لم تعد قلوب الناس تحتاج إلى آهات **وصفنات** كي تبقى سعيدة ، يمكن لشاعر **فاشل** أن يرص كلمات لتغدو أناشيد تعزيمية ، سيتكفل ملحن من الدرجة التعيسة بـ **ضخ** نيران الحماسة في تلك الأشعار ، ليهتز بدن الشعب من شرقه لغربه ، من شماله لجنوبه ، من فقيره لغنيه ، من عاقله لغبيه ، في رقصة كونية تذلل الصعاب وتمزق رؤوس **أعداء** الثورة ، لتسقط رهانات نظرية المؤامرة إلى أسفل السافلين .

كان سائق الحافلة ما بين لحظة وأخرى يترك (ستيرن) الحافلة ، يصفق بكفّين يخرجان **صليات** صفق كما الرصاص المنطلق من فوهة بندقية ، يهز جسده في ميعة أفعوان ، كأنه في معشر (**غجر**) ، يطلق

صيحاته كامرأة لحظات الطلق ، فمه يعلك كعاهرة محترفة ، يخرج من بين شفتيه كرة بيضاء ، تكبر قبل أن تنفلق ليصطبغ أطراف فمه وكامل شاربيه بالعلكة المنفلقة ، الشباب بدؤوا يتفاعلون مع الجو العام داخل الحافلة ، كل شيء آيل للموت ، هكذا تتبدل نفوس الناس في البلدان المتغيرة ، ضجيج يعلو وأكف تصفق ، فشلت أن تنسجم وتتناغم وهي تحاول تقليد صفقات السائق ، على ما يبدو كان من روّاد بيوت (**الكيولية**) ، هكذا يفسر المشهد كنيته ، خبرته في هز جسده وهو يقود الحافلة وتصفيق يديه العالي وطقطقات فمه وهي تحرر بالونات العلكة ، كلها مبشرات بأنه صاحب تجربة احترافية في زيارة **منازل** الآثام التي بنتها السلطة لقتل ديدان الانتفاضة في أجسادهم المحرومة .

كلمات الأغنية لا تمنح الحيران **دفقة** أمل ، أو تخفف عنه **عناء** الهموم وسموم الزمن ، ألحان سريعة وكلمات (**قشمرية**) ترجف أبدان الجيل الضائع ليس سعادة بل نفوراً وخذلاناً ، لم يعد المرء ينشغل بالغناء ، عقله مشغول بـ **حرب** ستأتي على البشر ، نفراً نفرا ، جماعات جماعات ، ثم تجرف **خيرات** البلد ، قبل أن تغرقه في ديون مستحقة **تشوي** عشرات الأجيال اللاحقة بنيران التشرد في المنافي لـ **غسل** صحون ناس كانت تدفع إلى وقت قريب (**جزية**) مقابل السماح لها أن تمارس دين آبائها وأجدادها الأولين .

(ماهر) حائر ، يمتلك رغبة لوضع النقاط على حروف حياته القادمة ، تتصارع فيه جملة إخفاقات ، هجره مدرسته وترك أمّه وحيدة ، و (مها) لؤلؤة قلبه ستسهر كثيراً وتفقد الكثير من حيويتها وبراءة وجهها .

ذهنه متوتر ، ينشد صفاء ، يريد استعادة ملامح (مها) ، كلماتها ،

دفئها ، لذة القبلات الأول ، يغمض عينيه ، كلّما استحضرها ، كلّما تهيأت مشاعره لإخماد نيران عاطفته ، يلطم جسده جسد أحدهم ، فيبدد لديه **نشوة** اللحظة السامية .

الطريق تهرب ، روحه تفر ، سواد يلوح شاشة الأفق ، تشق المركبة وهي ضاجة بـ **خراب** الأخلاق طريقها نحو ذلك السواد المتسع .

وصلوا المعسكر .

ضبّاط برتب متباينة ، شبعوا طعاماً ، حلقوا ذقونهم ، لبسوا **أجمل** أسمالهم ، نظراتهم سهام تنطلق بحرص وتفان ، كأنها رصاصات تهيأت لقتل كل شيء ، لا يندمج مع الموجة العاتية ، لا ينخرط تحت عباءة أيديولوجية الحزب الصامد ، ولا يتنفس مع الشهيق وصايا الرجل الضرورة ، قائد الجمع المنبعث من سلالة الأجداد العظام .

وقفوا متأهبين كما تأهبوا لـ **فض** بكارات زوجاتهم ليلة الدخلة ، متحمسين كأنهم ينتظرون عدواً مأسوراً قادماً ، وقفوا مسرورين ليشهدوا على موته ، بأيديهم سيمزقون **أعداء** العافية الجديدة لبلاد تشكلت بين فخذين (**دجلة** الخير أم البساتين) و(**فرات** . . عذب سائغ ماؤه) ، مثل تماثيل عشوائية ، عيونهم جامدة ، أوداجهم منتفخة ، يتمنطقون مسدساتهم الشخصية ، كأنهم في ساح الإعدامات ، يتضورون جوعاً للقصاص .

من يمتلك فلسفة **تفسير** أجواف الناس ، بوسعه قراءة مخابئ النفوس من وراء (**ماكياج**) الوطنية ، سيرى العجب ، أولئك الذين يتظاهرون بالرجولة ليسوا سوى خشب مسندة ، سمّوهم سراً «**أبو خابصهه**» يرقصون بشدة أوان السلم ، لكن في **ساح** الحقيقة نساء ، عفواً هناك نساء رجال ، لذلك يمكن توصيفهم بـ **فارغين** من محتوى البشرية ، بل أضل

من مخلوقات ستغدو تراباً بعد أن توفى كل نفس حسابها .

كانت عيونهم تبرق بوميض الخوف - هكذا تفسر حالهم - أكثر مما تظهر ملامح الشجاعة ، وميض رغبة كاذبة في مقارعة عدو الدولة والثورة .

أوقفوا الجميع على شكل أرتل .

صاح نائب ضابط بدين ، كرشه يندلق أمامه كـ **بطن** امرأة حامل :

«أستا . . عد . . !»

قرعت الأقدام الأرض ، قرعات غير منسجمة ، متفاوتة ، في سياقات العسكر يسمونها «**خربطة**» .

غضب أحد الضبّاط . . صاح :

«أولاد القنادر **شنو** ها الخربطة .»

صاح نائب الضابط (**مدعبل**) البطن :

«أستا . . ريح .!»

همس أحد الشبّان مغمغماً «أطلق من دبرك ريح» ، لم يتمالك الواقف لصقه نفسه ، أطلق كركرة مختنقة ، هشيم نار سار ، تحررت ثغور مستفزة ، وانطلقت ضحكة **نصف** جماعية .

أزبد الضابط الكبير وأرعد . . صاح :

«أولاد القحاب ، سألعن والديكم ، سأجعلكم تنهشون بساطيل المعسكر بأسنانكم .»

لم يحتمل أحد الشبّان الشتيمة . . صاح :

«لا - تغلــط - سيــدي ، نحن أبناء حمولة ، أولاد - الـ **شيد** الـ **رعيس** .»

(فشّ) الضابط ، تراخت أساريره ، أشار للشاب المتلعثم بعصاه ، تقدم الشاب مرفوع الأنف ، منتشياً لنصر معنوي حققه بكلامه الواثق ، وقف أمام الضابط الكبير من غير تردد ، عيناه في عينيه ، كأنهما خاضتا شوطاً من التحدي في مباراة **كسر** النظرات .

حين تسمع كلمة (السيد الرئيس) على السامعين أن يـ **خرسوا** ، حضور الكلمة يدخل السامعين في مستنقع الحيرة ، يشعر أن **تماسيح** الموت تحيطه ، على كل لسان أن يعلن ولاءه العلني ، (الشيد الرعيس) كما لهج الشاب تيمة وطنية ، على الجميع أن يتبرك بها ، لازمة لغوية نافعة يجب أن تقفل أو تفتح بها الحوارات ، متبوعاً بـ (حفظه الله ورعاه) .

قال الضابط الكبير :

«يبدو أنك ابن أصول .»

تنفس الشاب الصعداء :

«كلنا أولاد الأصول سيدي ، نحن جئنا **نلبي** نداء الوطن .»

«حسناً . . من بدأ بالضحك .؟»

«سيدي يجب أن تتحملنا ، نحن الآن ضيوف عندكم ، لم نبدأ بأداء **خدمة** العلم بعد .»

«أنتم الآن جنود يا **حمار** .»

«سيدي ليكن صدرك واسعاً ، تصورنا أنك ستضحكنا كي نتأقلم مع الجو الجديد .»

«أ . . تقول . . أضحككم . . سأبكيكم يا **أولاد** الشوارع .»

أشار إليه أن يتراجع ، ارتعشت الأبدان ، الكل توقع أنه سينهال بعصاه عليهم عقاباً على كركرة تصاعدت من فم شاب مستجد بالأمور

العسكرية في بلاد **دينها** منجزات ثورتها .

تراجع الضابط الكبير إلى الوراء . . صاح :

«كلاب . . انبطح .؟»

ألقوا بأنفسهم على الأرض ، الولد الذي **جادل** ظلّ واقفاً ، صاح نائب الضابط (أبو الكرش) بوجهه :

«انبطح يا **كديش**»

لم يحتمل الشاب الإهانة . . تهستر :

«أنت كديييييييييش .!»

انهالت عليه العصي والقبضات للضبّاط وسط فوران دم الضابط الكبير ، أسقطوه ، بدأت الأقدام تركله ، والعصي تتكسر وتتطاير على طول جسده ، قبل أن يطلق دبر أحد المنبطحين (ضرطة) فكت قيود الخوف لبعض الثغور ، كما فتحت **صمامات** الأمان لدبرين آخرين كي يحررا (ضرطتين) متفاوتتين في القوة .

صاح الضابط الكبير :

«أولاد – المضاريط – انهض .»

قبل أن يطلق هو الآخر ضحكة مجلجلة ، سمحت لأفواه الضبّاط من حوله أن يشاركوه الضحك . . صاح :

«هيّا خذوهم وحلقوا رؤوسهم فيما بعد سأعلمهم الأدب – **تفو** – عليكم يا مضاريط .»

رمى بصقته عليهم ، استدار وتوجه نحو القاعات ، سار خلفه نائب الضابط البدين الذي تسبب في حفلة التعذيب الجماعي ، بقي ضابطان ونائب عريف محترق السحنة بمعيتهم ، بدؤوا بعملية تدوين أسمائهم ، ترتيب أمورهم وتوزيعهم على القاعات ، فصائل ورعائل .

ساقوهم مجاميع .

الولد الشجاع صاحب العقاب الوحشي ، كان يتراخى في مشيه ، رافعاً بوزه كأنه انتصر في معركته الغرورية ، واضعاً في باله فكرة «من عاداك آخاك» حتماً سيكون صاحب مكانة مقربة من السيد الآمر ، لابد أن يستدعيه ويمازحه قبل أن يقدم اعتذاراً لما بدر منه في لحظة عسكرية لا تقبل المهادنة والتسامح ، كون ساحة العرضات تمثل **عرض** الجندي ، ناموسه المقدس ، من لا يحترم ساحة العرضات لا عرض له ، وبكلام غير مهذب هو ابن (. . . . .) .

ظلّ يمشي غير مبال بما جرى له ، وصلوا غرفة سقفها صفائح ، وجدوا **ثلاث** صفائح زيت مقلوبة ، و**ثلاثة** جنود يحملون ماكنات حلاقة .

في الجوار تلال من الشعور ، تبعث رائحة مقززة ، لم يحتمل أحد الشبان المنظر ، صاح وهو يقيء ، تجاوب معه **ثلاثة** شبان . . صاح ضابط متورد الخدين :

«شنو . . القضية عندنا مقتل – مال زواع ـ»

قاء الأربعة ، كادت أحشاؤهم أن تندلق ، لولا تدخل أحد الجنود ، حمل جردل ماء وسكبه على رؤوسهم ، كاد (ماهر) هو الآخر أن يقيء ، لولا صوت البوق الذي هز جنبات القاعات .

صاح أحد الضباط :

«شباب – القصعة – فيما بعد سنحلق أعشاش رؤوسكم العفنة .»

ساد فرح عام .

وزعوا عليهم (القصع) كل ستة جنود بـ (قصعة) ، ساروا مجاميع

(القصع) رتلاً نحو المذخر ، جندي على ساعده الأيمن خيط أسود ، يلبس وشاحاً ، مكتوب عليه «ر.ع .الخفر .السرية الأولى» حاول أن يضبط سيرهم ، لا يجوز المشي في المعسكر عبثاً «أنت في ساحة الحرب ، ارفع رأسك عالياً ، أنت جندي ، أبرز صدرك للأمام كي تقاتل بهمة الرجال الغيارى ، ارفع يدك إلى كتف صاحبك ، حافظ على النسق ، واحد . . أثنان . . ثلاثة . . أين الطبّة الرابعة .» أوقفهم مرات لتهيئتهم للسير بخطوات عسكرية منضبطة ، كل شيء بنظام «يس . . يم . . خربطة» يجب الوقوف «أستاعد . . أستريح ، أستاعد ، رعيل . . عادة سر» بعد جملة وقفات وإيعازات أوقفهم عند سقيفة صفيحية ، أرتل جنود يحملون (قصعهم) يقفون في انتظار أدوارهم ، ضابط بدين يقف لصقه (نائب ضابط) بدين أيضاً ، ليس بالنائب الضابط الذي أقام حفلة استقبال (ضارطة) لهم ، كان بعصاه الخيزرانية يدير **دفة** توزيع الغداء .

عادوا يحملون (رزاً مطبوخاً مسكوباً عليه مرق مع دجاجة برازيلية مسلوقة) ، جلسوا والتهموا أوّل (**زقنبوت**) حكومي ، قالها الشاب الذي أشبعوه ضرباً ، فيما بعد عرف الجميع أنه كان محقاً في كلامه ، فكل طعام يقدم وفق القوانين يغدو علقماً ، أن تحمل صحنك وتمشي بعسكرية منضبطة ، أن تقف رتلاً ، يأتي ضابط تقام له مراسيم عسكرية كاملة لتقديم وجبة الغداء ، كما تقدم مراسيم استقبال الملوك والرؤساء ، أو مثلما يحدث أثناء وضع أكاليل النصر على **قبور** وهمية ، يتم إقناع الناس على أنها قبور لجنود مجاهيل ، فدوا بأرواحهم الرخيصة ورووا بدمائهم الفقيرة من **فيتامينات** مانعة الأمراض أوطانهم التعيسة .

أن تتقدم وفق إيعاز منضبط ، أن تقف وتمد صحنك ، ترتفع

(مجرفة) صنعت لعزق الأرض أو تنظيف المجاري ، تخترق جبال الرز المعبق برائحة دهن (محترق) ، يد ماهرة تحمل تل تمن ، لكنه يمتلك طريقة ماكرة في التوزيع ، تراه بهزة شيطانية يعيد **ثلثي** ما في المجرفة إلى داخل القدر ، يصيب (قصعتك) حفنة صغيرة ، تستلم الإيعاز ، تتقدم من قدر عملاقة ، علبة معدنية شبه صدئة مربوطة بعصا تدخل مستنقعاً دموياً ، جندي أسمر معرق الوجه ، ما بين لحظة ولحظة ، يمد كفه ليمسح عرقه ، تاركاً قطرات منه تسقط في منتصف قدر المرق ، يرش على الرز في صحنك **بخّات** من دم باهت ، تسبح فيه أشياء أُخر ، حبات فاصوليا ، حمص ، أو قطع بطاطس ، باذنجان ، وأحياناً باميا عاصية ، وفي الكثير من المرات (**مرقة هوا**) ماء وردي وبصل وبهار وزيت .

تعود بانضباط ، تجلس بانضباط ، تتناول بكفك المترب مع كفوف أخر نسيت أن (النظافة من الأيمان) ، تنهي وجبتك وتتقدم من جدول ماء يشق أحشاء المعسكر ، لتغسل (قصعتك) ، تعلقها في مشجب مخصص لها ، كل هذه التراجيديا أقنعت الجنود أن طعام الجيش (**زقنموت**) وليس كما أسر الولد ابن الأصول (**زقنبوت**) . . !!

لا وقت للراحة .

حلقوا رؤوسهم (نمرة) صفر ، صارت رؤوسهم من بعيد كثمرات البطيخ ، تلمع تحت وهج الشمس ، بدأت أيديهم تواصل مداعبة اللذة المتوالدة جرّاء الاحتكاك .

صاح (نائب عريف) أسود مفلوق الشفتين :

«سريّة الأولى تجمع .»

تجمعوا بعد صياح وهرج فصائل رعائل .

بعد جملة إيعازات عسكرية وتنظيمية سار بهم إلى قاعة مغبرة ، وجدوا السيد الآمر ، الضابط الذي استقبلهم بحفلة تعذيب ساخرة ، يقف ، منتفخ البطن بعد وجبة غداء دسمة ، في عينيه بان **خدر** الطعام .

وقفوا باستعداد تام ، قرع (نائب العريف) قدميه مؤدياً التحية العسكرية . . قال الآمر :

«أما تستحون ، كيف تواجهون عدونا .؟!»

همس ثغر (بمدافع أدبارنا) ، كظم (ماهر) جرس ضحكة كادت أن تنفلت منه ، لولا صوت الآمر الذي أسعفه :

«من – يضرط – في ساحة التدريب سيغوط على نفسه في ساحة المعركة .»

أطلق ضحكة مفتعلة ، بانت أسنانه شبه (مزنجرة) .

«أما تعلمون من – يضرط – في ساحة العرض كعاهرة – تضرط – أوان مضاجعتها .»

كانت الأجساد متخشبة ، يحاول كل واحد أن يتماسك ، أن لا يغدو ضحية قادمة ، قبل أن يسمح لهم بالضحك ، بعضهم ضحك ضحكات مصطنعة ، كون الضحك في حضرة الضابط ، في ساحة العرضات ، يساوي عقابه في الأعراف العسكرية ، في بلاد الثورة ، عقوبة من يأتمر في محاولة انقلاب محبطة .

تقدم منهم ، راح يقرع بعصاه القيادية على رؤوسهم ، رأساً رأساً . . قال :

«رؤوسكم تذكرني بالبطيخ .»

كل رأس استقبل نقرة عصاه .

«لا تضرطوا مرة أخرى ، من في جوفه **مصنع** غاز ليستأذن ويخرج لـ - يضرط - على راحته .»

تراجع وأمـر أن توزع عليـهم التـجـهـيـزات العـسكرية ، كـانت القياسـات متفاوتة ، لا تراعي أجسـامهم ، حصل لغط قبل أن يصيح (نائب العريف) :

«أقطع الكلام .»

قال الآمر :

«تبادلوا فيما بينكم التجهيزات داخل القاعة ، خيّاط المعسكر مجاز .»

«أمرك سيدي» صاح الجميع .

«إيّاكم أن تلوثوا القاعات بالضراط .»

منسحباً أطلق ضحكته

سحبوهم إلى القاعات .

تحرروا من لجام الأوامر ، راحت الضحكات تعلو ، والغبار يتصاعد ، وجد (ماهر) التمدد على سريره أنفع ، بعدما وجد قياس بذلته ليس فيه عيب ، ترك (تقريمها) إلى إجازته ، تمدد وراح وسط الضجيج ، وسط كـور دخـان السـجـائر ، يتـأمل غـبـاراً يتكاثف ، يلتف ويمتـزج بدخـان السجائر قبل أن يغدو **شاشة** رمادية عملاقة ، في خضمها يسكن مستقبله .

***

منتصف الليل .

شرخ صمت القاعة صوت :

«انهض .؟»

مـا بين اليـقظة والحلم ، مـا بين الجـفـوة والنوم ، سـمع (مـاهر) صـرخـات الجنود ، عـرف أن (نائب العـريف) الأسـود مـفلوق الشـفـتين ومعه آخرون ينهالون على أجساد الجنود في أسرتهم بعصيهم ، رغم قفزته لم يفلت من ضربة موفقة على مؤخرته ، صاروا خارج القاعة ، كـان الآمـر واقـفـاً ، يرتدي (تراكسوت) رياضيـاً ، يشـهـر مـسـدسـه الشخصي ، ثمة ضبّاط آخرون بقيافتهم العسكرية ، يقفون كالأصنام من حوله .

الكل يرتجف ، تصطك أسنانهم من هول البرد وشدة النعاس .

قال الآمر :

«أخرجتكم لتحرروا **غازات** بطونكم براحتكم في الهواء الطلق .»

استلم أحد الضباط الإيعاز ، بدأت عملية الهرولة ، قبل أن يصدح صـوت (نائب العـريف) الأسـود تالياً أنشـودة باليـة ، من هول قـدمـهـا صـارت **علكة** في فـم الأطفـال ودجـاجـات الأزقـة وقططهـا وكـلابهـا المنقرضة .

«طالعلك يا عديوي طالع . . من كل بيت وحارة وشارع .»

رَفعوا أصواتهم ، أمر عسكري مفروغ منه ، الكل يستجيب صارخاً وراء تلك اللازمة العقيمة :

«طالعلك . . هي . . طالعلك . . هي . . »

شَقَّ حـجـاب الظلام بحناجرهم يقنع الآمـر بـ **جـاهزيتـهم** ، على أقدامهم أن تزلزل الأرض ، العدو قريب ، لابد أن يتم وقف زحفه ، أو إبادته في **عقر** داره .

تعبوا .

لمح الآمر تعثر خطوات البعض ، وخفوت أصواتهم . . صاح :

«اجلبوهم إلى ساحة المغاوير .»

كل جندي مستجد يعرف مسبقاً ما معنى كلمة (مغاوير) ، كلام سمعوه ، ثمت أنفار تطوعوا لذلك الصنف الوحشي ، كانوا يتباهون بين أقرانهم في الإجازات الدورية لانتمائهم لذلك الصنف الغابي .

خابت مساعيهم لإحداث انقلاب في مزاج السيد الآمر ، كانت محاولات فردية لرفع الأصوات ، أحدثت تباينات في الصوت ، رديئة ، (نشاز) .

وصلوا الساحة ، إنارة غير كاملة ، تلال مصنوعة ملغومة بأحجار مدببة ، أعمدة طويلة تتصل مع بعضها بأسلاك متينة ، مستنقعات مائية تلعب بها الضفادع ، ماء نتن ، أخضر اللون ، احبسوا أنفاسهم نهاراً حين مروا بها ، لنتانة الضوع المشاع في الساحة ، خال الجميع أنها مياه مجار أو مستودع لقاذورات دورات المياه ، تم رميها هناك بعيداً عن القاعات . . صاح الآمر :

«أدخلوهم إلى البركة .!»

صاح النقيب :

«أبطال إلى البركة هيّا .»

لم يجرؤ أحدهم أن يكون السبّاق ، انهالت العصي على الأقدام والأدبار ، الماء أهون الشرّين ، تعالت الصرخات من قوة البرد الجليدي ، حرر دبر أحدهم صوتاً **مفرقعاً** من تحت الماء . . صاح الآمر :

«غداً سأفحص أدباركم ، على ما يبدو أن **أحدكم** دبره غير طبيعي .»

تواصلت فرقعات الماء من أمكنة عدة ، كأنها أصوات ضفادع **تنقنق وتبقبق** . . صاح النقيب :

«هيّا انزلوا رؤوسكم يا أولاد الزربان .»

قال السيد الآمر :

«على ما يبدو أمهاتكم ولدنكم برشق ضرطات .»

بدأت الرؤوس تختفي وتخرج ، لم يعد البرد يشكل شيئاً أليماً بعدما تخثر الجسد وأدمن التجلد .

أخرجوهم ، كانوا كائنات مرتجفة ، غارقة في وحلٍ نتن ، تصطك أسنانهم ، يشتركون في هذيان عام .

ساقوهم متهالكين إلى القاعات .

قال الآمر :

«يجب أن تكونوا بمستوى المطلوب ، الحرب مستعرة ، علينا أن نؤهلكم للمعركة المصيرية بوقت قياسي ، شعبكم ينتظر منكم تحقيق النصر ، ومن يستشهد **سيرفع** رأس أبيه عالياً»

همس جندي يقف لصق (ماهر) وهو يرتجف «هيأ . . . . . . مرتك معنا» ، نغزه ، رد ناغزاً معلناً تحديه .

صاح جندي :

«أبي ميت سيدي .»

قال النقيب :

«ستتباهى أمّك بك .»

«أمي أيضاً ميّتة سيدي» .رد الجندي

«حين تموت سيخرجان رأسيهما لاستقبالك ، لكن إيّاك أن – تضرط – في المقبرة .»

أدخلوهم القاعات .

كان يجب أن يغتسلوا .

ماء المستنقع آسن ، تنام فيه الكلاب ، تعيش فيه مستعمرة ضفادع صادحة طوال الليل ، حتى إن البعض منهم أقسم إنه كان متضايقاً ، لم يتحمل **فضلاته** المتدفقة ، وجد فرصة **تاريخية** لن تتكرر ، أفرغ (غائطه وبوله) داخل الماء ، راهن على ذلك ، من لم يصدق كلامه سيرى في الغد **أكوام** الغائط **تعربد** في البركة .

كلام مرعش جعل (ماهر) يشعر بدبابيس تخز جسده ، اندفع نحو الحمّام ، رغم برودة الماء دخل تحت الصنبور ، تشجع البقيّة ، حصل لغط وازدحام ، مما حدا بهم أن يدخلوا بمجاميع معاً ، صاروا من لحظتها يستحمون بالماء البارد أفراداً وجماعات .

استحم (ماهر) وجلس يصطاد الكلمات .

الكلمات الفارة من ثغرك
مهرجان
يسوق غيوم معسكري إلى أنأى مكان
نضرب خيام طفولتنا
في ضوء الزمان
أنتِ ببسمتكِ زاهية الألوان
وأنا . . الحيران
بشعري المطرز بلمسات أصابعك
نعلن ثورتنا
على الطغيان
فتهب إلينا أزاهير نيسان
تطاردها

حراب الواهمين
وغابات السكاكين
أعداء الإنسان .!

***

هذا مساء آَخر قد أقبلْ
يا من
من بين كل النظرات
كنتِ الخيار الأجملْ
أفترشَ صخب الجنود
دخان سجائرهم فضاء يخنق الجذلْ
أحاول
بناء قلعة رصينة بالجمل
يشاطرني في حربي
وهج الأمل
إيييييييييييييييييييييييييه
يا ساقية روحي بأجمل القُبَلْ
من يعيد إشعال قناديل
بلدتنا المنطفئة
ليركض حصان المستقبلْ
هذا مساء مدجج بالترهل
عاقبونا وأشربونا مجاريف الأجواف القبيحة
هذا ليل
يرفض قمره أن يكتمل

نجومه تذرف رصاص الخوف
على جيلٍ
قبل الأوانْ
قد اكتهلْ!

***

بعد شهرين من قساوة التدريبات ، ضرب عشوائي ، زحف على البطون ، (شناو هندي) ، (أبرك . . أنهض) حلاقة الرؤوس (نمرة صفر) ، عقوبات جماعية ، تأتي بكل الطرق التي تؤدي إلى (روما) ، عقوبات جرّاء عدم تلميع (البساطيل) لتلمع **لمعة** سحناتهم ، لا فرق بين الوجه والـ (بسطال) في الجيش ، تنظر **عيون** الضبّاط إلى الـ (بساطيل) والسحنات **نظرة** متوازنة ، عدم تلميع السحنات بالموسى عقابه يساوي **عقاب** عدم تلميع الـ (بساطيل) بالفرشاة نفسه ، أعلنوا بمودة وبوقاحة أن العقوبات الفردية والجماعية ، رياضة ترويحية ، نوع قاس من لعبة تهذيب النفس وتدريبها على الصعاب :

«إنها تقوّي **عزيمة** الجندي ، وترفع درجات **محرار** صبره ، ستغدو رجولتكم (**جوكر**) ، يمكنكم أن تفضوا بكارة **ماجدة** لتشارككم حياتكم الثورية القادمة ، لتبنوا سور الوطن بـ **جيش** أشبال مشاريع استشهادية قادمة .»

وجدوا أنفسهم متهيئين أمام حافلات حديثة ، حيث **جناب** السيد الآمر يقف بجبروت ، نقيب يقرأ بصوت مرتجف أسماءهم ، صعدوا إلى حافلات انطلقت بهم إلى (ميدان الرمي) ليجربوا قدراتهم العسكرية ، ومدى صلاحيتهم ونجاحهم في تعلم فن القتل بالذخيرة الحيّة .

عاشوا لحظة فرح ، كونهم تحرروا من الأوامر الروتينية ، من

العقوبات المتلاحقة ، أظهر السيد الآمر عاديته ، بدا كإنسان مختلف عما ألفوه ، يلاطف ويداعب ويضحك أحياناً ، ناسياً تهجماته عليهم ، بالكلام البذيء .

همس (موحان) في أذن (ماهر) :

ـ «الآمر خائف .!»

«مم يخاف .؟»

«قد يتغدى به أحدنا بصلية رصاص .»

«وهل يفعلها مجنون منّا»

«سمعت أن الآمر قبله قتله جندي أثناء الرمي .»

«كان مصاباً بالصرع ، باغته أثناء الرمي ، كما يقولون .»

«كذب . . كان يسخر منه .»

«حتماً شنقوه .»

«ليس وحده فقط .»

«ماذا تعني .؟»

«أعدموا صديقيه أيضاً .»

«وكيف يواجه العدو في أرض المعركة .»

«أمثاله – **مخانيث** – لا يغادرون أحضان نسائهم .»

«والوطن . . »

«**نسائهم** أوطانهم .»

بعد ليلتين وثلاثة نهارات تحركوا عائدين .

في الطريق أوقفوهم قرب واد عميق ، السيد الآمر ألقى محاضرة في كيفية مجابهة العدو بالرمانات اليدوية والحراب ، في الحروب فواصل ملاحم ، تتشابك فيها الجموع البشرية وتتداخل ، يتم التحسب

لها وإعداد الجنود لغمارها ، تسمى (الاشتباك بالسلاح الأبيض) :

«معركتنا مفتوحة ، عدونا شرس ، يمتلك إمكانيات بشرية هائلة ، سيندفعون كالثيران الهائجة لغزو بلادنا ، فمعركة - السلاح الأبيض - احتمال وارد بين الجيشين ، عليكم أن تتعلموا فن القتال بالسلاح واليد»

جلبوا صندوقاً خشبياً أخضر اللون ، أخرج رمانة يدوية لامعة ، أرعشت أبدانهم خشية أن تنفلق قبل أن يرميها ، كانوا جالسين ، عيونهم ترتجف ، قلوبهم تنبض ، بينما كانوا في واحة الغيبوبة والدهشة ، سحب جناب السيد الآمر مسمار الأمان وأسقط الرمانة من يده بينهم ، اندفعوا في صراخ وارتباك مع وجود صوت (دبر) ضاع في الهرج الحاصل ، اندفع الضبّاط يضحكون ، والسيد الآمر فاقداً نفسه من سحر استنفارهم كالحمر المرعوبة . . صاح :

«فقط لو أعرف من فيكم يحمل في جوفه معمل غاز .»

قال النقيب :

«سيدي . . إنه ينفعنا لمحاربة عدونا .»

«يمكنه أن يسترخي على الساتر ويدير ماكنته نحو العدو ليبيدهم عن بكرة أبيهم .»

«سيتهمنا مجلس الأمن باستعمال سلاح كيمياوي في حربنا .»

«عندها سينقلب العالم على رؤوسنا .»

بعد باقة ضحكات تراخت أجسادهم وعادت إليهم أرواحهم .

عادوا لجلستهم وعيونهم على يد جناب الآمر ، وهو يشهر الرمانة بوجههم . . قال :

«لا تثريب عليكم ، إنها رمانة تدريب فارغة من الحشوة

والصاعق ، أسقطتها لأختبر شجاعتكم .»

رفع واحدة أخرى ، خال الجميع أنها أيضاً كاذبة ، لكنه رماها إلى عمق الوادي وأحدثت دوياً ، تصاعدت غمامة دخان وانهال مطر غبار ، تزاحمت فيهم الحماسة والرغبة في تجريب الرمي ، وزعوا عليهم الرمانات الحقيقية ، بدؤوا السير رتلاً نحو ساتر ترابي يطل على واد كبير .

بدأت عملية القذف .

قذف أول جندي (موحان) رمانته ، مرت الدقائق ثقيلة ، لم يحصل الدوي المتوقع ، سادهم اضطراب واضح ، وفي العيون برزت علامة استفهام :

صاح الآمر :

«رمانة فاسدة . . اجلبوها .»

أندفع النقيب إلى الوادي وبعد دقائق عاد يصرخ :

«كلب ، مطي ، كديش ، كيف ترميها ولم تنتزع مسمار الأمان .؟!»

غضب الآمر .

صاح :

«كلب . . زمال . . سأحلق رأسك – بالقندرة – حين نعود .»

وقف (موحان) مرتجفاً .

قال :

«سيدي سأعيد الرمي .»

«أن تفعلها ثانية ، سأرميك إلى الوادي ونرمي عليك كل الصناديق ، لدينا خسائر بشرية أثناء التدريب ، ٣ في المائة . . هيّا .»

تقدم (موحان) من النقيب ، التقط رمانة ، سحب مسمارها وألقاها ، لم يحصل الدوي أيضاً ، غضب الآمر .

صاح :

«فعلتها ثانية يا كلب ، سأرميك في الوادي .»

«سيدي هذا **مسمار** الأمان في يدي .»

ذهل جناب الآمر ، أمر النقيب أن يهبط ويعيد الرمانة الفاسدة من عمق الوادي .

صاح النقيب :

«سيدييييي . . **!!**»

طلّ الآمر من وراء الساتر ، دفعهم الفضول لإلقاء نظرة فضول ، كان النقيب واقفاً ينادي ، هبطوا إليه ، وجدوا عشرات الرمانات اليدوية **ملقاة** مع مسامير الأمان ، سقط السيد الآمر في **مستنقع** الحيرة ، سحب النقيب جانباً وراحا يتحاوران بصمت .

قال (موحان) :

«على ما يبدو أن الدورة السابقة ألقوا رماناتهم بطريقة النسق خلاف طريقة رمينا كل على انفراد .»

قال (ماهر) :

«أنا أيضاً كنت أتحين الفرصة كي أرميها من **غير** سحب مسمارها .»

«فعلت ذلك ، الآمر **كلب** شيطان ، انتبه لذلك»

عاد الآمر يتبعه الضابط ، بعدما أمرهم بلملمة الرمانات المتناثرة ، وجدوا **ثماني عشرة** رمانة ، حشروها في صندوقي عتاد ، حملوها إلى إحدى الحافلات .

بعـدما نفـذوا عـمليـة **قـذف** الرمـانات اليـدوية ، انطلقت بهم الحافلات نحو المعسكر .

داخل المعسكر .

أمر النقيب الجندي (ماهر) بجلب الصناديق .

ما إن وضع قدمه اليمنى داخل الحافلة ، ارتجت لدوي رافقه صراخ وعلا دخان وألسنة نيران بدأت تلتهم مؤخرة الحافلة .

هرع (ماهر) إلى قاعة الضبّاط يولول :

«سيدي . . رمانة انفجرت داخل الحافلة .»

هرول الجميع وشكلوا حلقة واسعة حول حافلة تحترق .

وقفوا مذهولين يراقبون حافلة حديثة تحترق ، بعض الجنود تمكنوا من الهبوط مجروحين ، لكن ثمت أجساد وجدوها متفحمة في مؤخرة الحافلة ، بعدما أتت النار عليها .

التفسير الذي دونوه في المجلس التحقيقي العسكري ، جاء على أن واحداً من الجنود المتفحمين قد خبأ رمانته ليس لعمل تخريبي طبعاً ، البلاد **سليمة** والسلطة خانقة لكل منافذ **(وباء)** الحرية ، لا معارضين لوحوا راياتهم في أفق التغـييـر ، الطابور الخامس خمـد صوته ، أنفار (حزب الدعوة) شنقوا أو لاذوا بالفرار إلى دول الجوار ، وما زال (الشيد الرعيس) كما قاله مسبب الفلقة الجماعية ، يمشي بين الناس من غير تشديد حراسة ، بغير واقيات رصاص ، ولا طائرات تحوم فوق رأسه ، لا داعي لفرق مخابرات **سريّة** تذهب إلى المكان الذي سيـزوره لتفتش الناس قبل أن يتشرفوا بطلعته ، واثق النفس يدخل ما يختاره مزاجه من بيوت ، يفرك فروات رؤوس أطفالهم ، يحتضن الرجال والنساء ، يقرب **يده** من أفواههم كي يلثموا يد جالب الخير إلى البلاد ، يقوم

بجولة تفقدية داخل مطابخهم ، يفحص قدورهم ، يعطي تعليماته الوطنية في كيفية صناعة أكلات ذات **ميزات** ثورية تصنع أجيالاً مقاتلة ومضحية من أجل المبادئ الجديدة لخلود السلطة ، يضحك ملء فمه منتشياً مغروراً ، (جروته) ترسل **حرائق** مزاجه إلى عالم يغتاظ ، العدو يغتاظ أيضاً من مشهد البحبوحة التي يشيعها في البلاد ، رقص الناس ، عدم التذمر والخوف من الحرب ، ناس تتسابق بشوق للمنازلة الكبرى ، مدخلاً الروع في فكر العدو العسكري ، باتراً أمامه كل الفرص المتاحة للتسلل إلى نفوس **ضعاف نفوس** لم تتحصن بعد بشراب الانتماء العقائدي .

الرمّانة اليدوية التي أحدثت الكارثة ، كانت الغاية منها ، استعمالها لاصطياد السمك ، كلام شاع ، أن الجندي المستجد (ماجد شبوط) المحترق مع صديقيه ، من أهالي قرية (أم العاقول) التابعة أدارياً لبلدة (جلبلاء) أقدم صيّاد وبيّاع سمك (جملة ومفرد) في سوق البلدة .

ختم السيد الآمر الكلام :

«أخشى ما أخشاه أننا فقدنا أصحاب الضراط .»

منحوهم إجازة قصيرة ، خمسة أيّام فقط ، استقبلته أمّه بزغرودة فرح ، أتت بديكٍ هيأته للنحر أمام قدميه ، هكذا فعلت حسب ما قالت له يوم ولد ويوم مشى ويوم طهروه ويوم دخل المدرسة ، لابد أن تفعلها كما - عاهدت نفسها - يوم يعود في أوّل إجازة عسكرية ، وستفعلها يوم يتزوج ، ويوم يرزق بأوّل طفل .

ذبح الجار (أبو مازن) الديك .

تغدوا في ذلك اليوم لحماً مكتنزاً بالعافية والحبور .

تنزاح **هموم** الجندي ما إن يترك معسكره أو جبهة الحرب ، ويضع قدميه في **واحة** الحياة ، كل المتعلقات المروّعة تتبخر ، حياة جديدة مسالمة تستقبله ، لا يهم ما يجري في البلاد من فوضى ، الحرب تشمل كل مفاصل الحياة ، لكن الإجازة العسكرية **بطاقة** نجاة من الموت إلى أجل مسمى .

وجد (ماهر) شغله الشاغل نصاعة رأسه ، وقف كثيراً أمام المرآة ، أراد أن يقتنع بأنه بشر ، إنسان يمتلك حياة ويمكنه أن يعيش في مجتمع **خاضع** للرقابة الفكرية والغيبية .

فشل أن يقنع نفسه بأنه كائن يمكنه أن يمشي عالي الرأس من غير شعر يخفي **طاسة** رأسه ، وجد الخجل آفة تلجمه من الخروج من غير غطاء لـ (كرعيته) ، لم يحتر (ماهر) أكثر من دقائق معدودات .

قالت أمّه :

«ماذا بك .؟»

«رأسي . . »

«إنه جميل ، يليق بك أكثر من - **خنافسك** - أيام زمان .»

«أشعر بأنني كائن منبوذ بهذا الرأس منزوع الشعر .»

«لدي - **غترة** - جديدة ، مات أبوك قبل أن يستعملها .»

«لم أتعود على وضع الأشياء السخيفة على رأسي .»

«لا تستحي يا - ماهر - رأسك هكذا أجمل .»

مع الغروب تسلل إلى السوق ، اقتنى طاقية رأس وعاد .

قبل الدخول إلى البيت وقف عند رأس الزقاق ، محترقاً لرؤية (مها) ، مالئاً جيبه برسائل غرام وقصائد كتبها ليلاً بعيداً عن أعين الجنود ، مرت الدقائق وربما ساعة لم يجد ريحاً تقنعه أو تروض لهفته .

ضاق ذرعاً .

قلبه يشتد ، أنفاسه تضيق ، والليل سيغدو طويلاً عليه ، سيفقد يوماً من إجازته من غير (مها) ، شعور مفاجئ بدأ يهيمن ويضغط على صدره .

حائراً عاد إلى البيت .

في غرفته شبه يائس ، نصف مشلول ، أشبه بجسد تطرحه علّة مزمنة .

لم يجد دافعاً يرغمه على تناول العشاء ، كانت أمّه تنظر بعينين فيهما بقايا شك يفتضح ، وكمية هائلة من بوح صريح ، تحاول لملمة جملة توقعات كلها أبواب تقود إلى ما يسكنه .

قال :

«لحم الديك في بطني سيحتاج إلى أسبوع كي يهضم .»

انشغل بقراءة الرسائل مرة أخرى ، وجدها مليئة بأخطاء نحويّة

عبرت عليه ، عزا ذلك جراء الخوف المترسب فيه وهو يكتب ، فالكتابة بين الجنود وبين أي حشد في بلدان (**الشرق**) تفسر لصالح الوشاية ، الوشاة في كل مكان ، أينما تكون تجمعات ناس تراهم بارزين من خلال حركة رؤوسهم ، ومن خلال نظراتهم المفضوحة ، يدونون **مصائر** الناس بأقلام نفوس مريضة ، يخيطون على **مقاساتهم** تهم باطلة .

سرعة كتابة رسائله تحت ضغط الخوف ، جعلته يكتب من غير تدقيق إملائي ، كانت اللهفة قاسية والرغبة ناراً تلتهم **غابات** مشاعره ، لا يريد إضاعة فكرة جميلة أو يبدد تعبيراً ضاغطا ، كل ما يجده يلائم قلب (مها) يحشره سريعاً ، من غير مراجعة ، في أوراق يحرسها أكثر مما يحرس جسده من نيران عدو يلهث لوأده .

ضعف الإنارة داخل القاعات ، سبب آخر وجيه ومؤثر ، يبعث النفور في النفس لمراجعة أي عمل منجز ، فكيف بالكتابة تحت المراقبة وصخب جنود تقتلهم لهفة الفضول وحشر **أبوازهم** في آلام الآخرين .

لم يجد وازعاً يرغمه على تصحيح الكلمات الخاطئة ، رغبة كسولة ناصفت مزاجه وظلّت تقنعه أن الحبيبة تقرأ بعين القلب ، بعين بصيرتها ، لا تقرأ ببصرها ، هاجسها الأساس نفحات السعادة المتغلغلة إلى تباريح جسدها عبر موسيقى العشق الصادح للكلمات .

أعطِ فتاة عاشقة رسالة كلّها أغلاط ستقرؤها عشرات المرات صائبة من غير أغلاط ، تفشل في تشخيص أي خطأ وارد ، كونها تكون لحظة القراءة **سكرانة** بسيل العشق المندلق على الورقة من **قلم** الحبيب .

لم يجد (ماهر) رغبة تدفعه لتصحيح بعض الكلمات المغلوطة .

تشربت روحه بسعادة ، وجد حماسته تتضاعف ، طوى الأوراق وخرج إلى الزقاق ، وصل الشارع الرئيس ، وجد أرتل الدبابات تمزق

بجنازيرها **لحم** الشارع الأسود ، رغم وجود معلومة عسكرية تشير إلى أن المسرفات يجب أن تسلك جانبي الشوارع للمحافظة على الممتلكات العامة للبلاد .

في زمن الحرب **يسود** العماء ، يهيمن الغباء ، تموت الغيرة ، تعم الفوضى ، ينام القانون ، لا أحد يهمه الوطن ، لا أحد يحترق قلبه على أملاك الناس ، الكل ينشغل بنفسه ، هذا السبب الوجيه دفع الحياة أن تنسلخ من تألقها وتنحدر أمور الناس نحو **مأزق** البلادة .

كل شيء يتحرر وفق المزاج ، تتراكم الأخطاء وتمضي أبخرة لتشكل غيوم التعاسة لتمطر فيما بعد ركام ويلات تحرف الحياة عن جادة الحقيقة ، هكذا تمضي من غير بادرة أمل أو بصيص ضوء يمنح الحائر فرصة لمواصلة سيره من جديد .

الحياة تندحر ، تتقهقر من جيل لجيل .

تمر المركبات .

جنود يصرخون ، يرقصون ، يتغنون ، لا أحد يعرف سبب هذا الـ **هرج** الحاصل في البلاد ، لم الناس تستقبل الكوارث المدمرة استقبالهم أيّام أعراسهم ، لا فرق عندهم بين الموت والحياة ، بالطبع ليست شجاعة أو (مرجلة) ، بل **غباء** عام ، قلب لا يشعر بآلام البشرية قد من حجر ، عين لا تدمع من أجل الآخرين مجرد كرة زجاجية .

الهرج الليلي الحاصل **كهرب** قلوب النسوة بعاطفة وطنية جارفة ، صعدن إلى أسطح منازلهن ، رحن يمزقن الغبار الصاعد وهدير الدبابات اللاهثة بزغاريد فوق العادة ، شجَّع بعض الجنود على إطلاق عيارات نارية ابتهاجاً بالمناسبة ، تسببت في قطع أسلاك كهربائية ، فعم الظلام نصف البلدة .

لم يحتمل (ماهر) فوران دمه ، قلبه يرسل صفيراً عبر شهيقه وزفيره ، لم يحتمل نفسه ، عاد ، وجد شبح (مها) واقفاً ، رجف بدنه ، جاءت محاولة عفوية أفرغته من كل الخوف المتراكم فيه ، وألقت بالكابوس الجاثم من على صدره خارج واقعه ، فرح برؤيتها ، لم يكن هناك أحد ، حتى لو كان هناك مستطرق ، كانت الرؤية شبه معدومة بسبب انقطاع الكهرباء ، في تلك اللحظة شكر (ماهر) مسبب الظلام رغم أنه لعنه لحظة أصابت طلقته السلك .

دنا منها .

همست :

«هلو . . ماهر . . لم لم تخبرني بعودتك .؟»

«وقفت في الظهيرة ، لم أرك .»

«لم أكن في البيت ، سأنتظرك الليلة .!»

مشى .

شيء ما نهض من داخل قلبه ، استفز جسده ، وقف ، بقي يلملم كلامها في صندوق رأسه ، قالت له كلاماً جديداً ، ستنتظره في الليل ، أي ليل كانت تقصد (مها) هذا ليل هو تائه فيه ، رغب في خروجها ، يريد كلاماً يوضح كلامها ، تملكه خوف أرجف عروقه ، رأسه يضج بهدير متواصل ، كلامها غير مفهوم ، ألقى نظرة ، باب بيت (مها) غائب في العتمة ، لابد أنه مغلق ، يد تدفعه ليقتحم صمت الزقاق ، ليطرق الباب ، ستخرج (مها) وربما أمها ، ماذا يقول ، لدي سؤال عندك جوابه ، ستضحك (مها) .

يد تدفعه ، يد تحسسه بقيمته المتبقية ، محض إنسان يخوض تجربة عاطفية عابرة تحت خيمة الحرب ، قدماه مشلولتان ، قلبه يكاد

ينفطر ، الشهيق ما عاد يسكت **عصف** أغواره .

لا شيء يمنحه فرصة لفك طلسم الكلام ، توجه إلى البيت ، صعد إلى السطح ، هناك لمح أشباحاً تتراقص ، اندمج مع الأشباح ، يأخذ ويرد ، يد أيقظته من التوهان :

«ماهر . . ماذا بك .؟»

«لاشيء .!»

«مع من تتحدث .؟»

«أنا . . »

«أراك تؤشر بيديك . . »

«كنت أمارس تمارين **سويدية** ، أشعر بتشنجات في جسدي .»

أنزلته إلى غرفته ، ألقى بجسده على فراشه ومضى يقرأ الأشياء المرتسمة على صفحة السقف .

كلام (مها) يضج في صدغيه ، ربما أخطأت الكلام من شدة فرحتها ، مثلما أخطأ هو في رسائله ، ربما أرادت بكلامها (بعد الليل) ، لحظة تخرج لرمي القمامة ، وجد هذا التأويل مقنعاً ، أقر الجواب ، تذكر يوم قالت له : «الساعة التاسعة . . !!» ، أيّة فجوة ابتلعته ، في بحر أيّة حيرة طمس ، ما زال يتحسر على موعد **أعدمه** ببلادته ، ببراءته ، بعدم امتلاكه **حاسة** ذكريّة فعّالة تفسر **كلام** الإناث تفسيراً شهوانياً .

انشغل يكتب أشياء جديدة ، عن لحظات التخيل من بعد ، حيث الأوامر الصارمة والحياة العرجاء ، عن مستقبل ملغوم بلهجة الفناء ، عن حياة ستغدو جحيماً ، ليس هذا من بنات خياله ، بل واقع ملموس ، تنغمس الحياة في أوحاله ، الكتب التي قرأها ترسم هالات مروعة عن حياة ما بعد الحروب ، الناس تتجرد من الكثير من صفاتها البشرية ،

يغدو المرء **حيواناً** مفترساً يلتهم كل شيء من أجل الحفاظ على روحه .

أيام الحرب العالمية الثانية ، التهمت الناس الكلاب والقطط والجيف وكل ما كان محرماً من أجل البقاء لساعات أخر أحياء .

كان لحظات القراءة يفكر بأن البشرية لابد أنها استفادت من الحربين الخاسرتين ، لابد أن الساسة وضعوا جملة برامج سلمية تصلح ما بين الأطراف المتنازعة ، المتمثلة بهيئة (الأمم المتحدة) ، (محكمة العدل الدولية) ، منظمة (الصليب الأحمر) ، مؤسسات تعمل على إطفاء نيران الأحقاد العالمية ، لكن ما يجري هو عكس ما كان متوقعاً ، تلك المؤسسات أصبحت ستراً حديدياً لتمرير الحروب تمريراً رسمياً ، صارت تمنح التصاريح والتخاويل لشن الحروب المنظمة ، كونها (مافيا) تعمل لصالح الشركات الرأسمالية و(اللوبي) الصهيوني ، كل بلاد تمتلك موارد طبيعية لا تخضع لإرادة الرأسمالية الغربيّة ستغدو ضحيّة ملائمة لـ **فكوك** لا تشبع .

لا أحد يريد إطفاء نيران حربنا .! (قال لسانه)

الدوّل الصناعية وجدت البلاد **سوقاً** عالمياً للاستهلاك ، مقبرة مفتوحة لتصريف آلات حربية عفا عليها الزمن ، الحرب ستستمر لسنوات ، وربما التبعة ستكون أكثر وبالاً من وقفها ، بعدما تنتهي قدرات البلاد ، وتفتر عزائم الناس ، وتنفلت الأخلاق من **أفلاكها** السلفيّة .

لا يعرف كم من الوقت استغرق في الكتابة والتفكير ، ومتى نام ، قبل أن يفاجئه الفجر بصوت الجامع وهو ينفح روح الحياة الخالدة عبر التكبيرات المتواصلة إلى **أشلاء** بلدة (جلبلاء) .

ضجيج يتواصل في رأسه ، لم ترغب أمّه في قول شيء ، ظلّت تسترق النظر ، تقرأ أوراق وجهه ، تحاشى النظر في عينيها ، خاف أن تكتشف التبدل الحاصل فيه .

أمّه تمتلك قدرات (فوقطبيعية) ، تفهم التصرفات الغامضة عنده ، رغم طبيعته شبه المتواصلة في عدم تناول الفطور باكراً ، أجبر نفسه على تبديل تلك العادة القديمة ، كي يبعد عن نفسه أو يخنق سيل الأسئلة المتراكمة في عينيها ، كانت **لعبة** مفضوحة تكشف أوراقه أكثر مما تغطيها ، أعطاها دليل إدانة صريحة ضد نفسه .

بعدما أنهى فطوره ، نهض ، اغتسل وعاد .

قال :

«لم تشاركينني الفطور .؟»

«فرحتي بعودتك أشبعتني .»

«لدي بعض المواعيد مع أصدقائي .»

«لا تتأخر عن الغداء .»

«سأكون مع أذان الظهر معك .»

خرج .

عند رأس الزقاق وقف يستطلع **بقعته** المباركة ، موطن حبه .

لم يدم وقوفه كثيراً ، وجد رأس (مها) يخترق الصمت والصباح والعالم ، أرسلت برقية ثغرها بوميض قلّص المسافة بينهما ، كانت

ابتسامة فجر سمحت لكل تراكمات التعب أن تفر من عروقه ، رفعت يدها ، تحية جاءت كبرق خاطف ، تحرك سريعاً ، لم يعد ذلك الكائن الخجول الذي إذا وقفت أمامه أنثى يرتجف ، ولسانه يتوقف ، ثبت ثبوت كائن يثق بقدراته الذكورية .

وصل قربها ، كانت كما هي ، بشوشاً ، صادقة .

همست :

«صباح الخير . . ماهر»

أي صباح يتحرر من بين شفتي فتاة تعلمت سبل اقتحام غابات الحياة الغامضة من غير بوادر تمهيدية ، لم يرد تحيتها لساناً ، عائماً فوق الغيوم ، تدفعه أمواج أحلام نحو شاطئ ظليل بأشجار ندية ، ارتضت بابتسامته .

قالت :

«لدي رسالة .!»

هز رأسه ومضى إلى الشارع ، وقف يفكر بطريقة تنجيه من حراب العيون ، خالها تتبعه ، توقف واللهفة قفلت على منافذ التفكير ، لم تتبعه ، ظنٌ لم يكن في محله ، قرر العودة ، كانت واقفة ، متذمرة ، ما إن أشعلت المسافة التي تفصلهما بابتسامة صريحة ، ألقت ورقتها ، كان يجب أن ينحني وسط الزقاق لالتقاطها ، انحنى وتلقفت يده الورقة ومضى مرتجف الأوصال ، متضايق النفس إلى البيت .

«عدت باكراً» .استقبلته أمّه .

«لم أجد أصدقائي .»

«سأخرج إلى السوق ، لا تخرج حتى أعود .»

«سأنتظرك . . »

وجد فرصة مثالية لقراءة ورقة (مها) :

(عزيزي ماهر . . حمداً على سلامتك . . لم ترعبني بهذه الطريقة ، حبك أخرجني من عالم الطفولة ، بدأت تفتعل أباطيل كي تتهرب من الحقيقة ، لم هذه الغيمة السوداء تعتم فكرك ، قل أي شيء يا (ماهر) ، كلامك مخيف ، لم كل هذا الموت يرتمي على أحلامك ، شعرك لبس ثوب الحداد ، من أين تأتي بهذه الكوابيس ، من أي القواميس ، لا تعذبني ، دعني مشغولة بك ، سعيدة بك ، أقف رغم كل شيء ، أنتظر مرورك ، شروقك بدأ يحسسني بأنك كائن يصنع الحزن ، يتمرد على الحياة ، في عينيك ألتمس بسمة مغلفة بشيء من المكر - مع اعتذاري الشديد لهذه الكلمة - أنا أقصد أنك غير مهتم بما أهتم به ، أنتظر مرورك كي أكنس ترسبات الخوف وأجلسك في القلب ، هل هناك ما يشكّك بي؟ أنا لم أجرب الحب إلاّ معك ، كنت كما تراني أجلس مع الصبايا ، ألعب معهن ، قبل أن أشعر بسهم من نار انطلق من عينيك وأصاب مستقبلي بنيران الأمل ، شعرك مخيف ، هالات جنونية من أين أتيت بها؟ هل رأيت الجبهة؟ هل رأيت جنوداً يقتلون؟ لم تعذبني يا (ماهر)؟ لم كل هذه الأخطاء الواردة في لغتك؟ أرجوك أنتظر منك جواباً صريحاً ، أنا أنتظر ، لا تتأخر علي . . أرجووووك .!) .

***

طوى الورقة .

إحساس غريب نما ، شعر بندم راح يثقل نبضه ، أعطاها رسائل مليئة بأخطاء غير متعمدة ، اكتشفت (مها) كل شيء ، يا ترى كيف عرفت تلك الأخطاء .؟سؤال راح يقلقه ، حيرته بدأت تتفاقم .

(مها) في الصف الأوّل المتوسط ، عمرها **اثنتا عشرة** سنة ، مثلها تكون غير مؤهلة لمعرفة أسرار اللغة ، لابد من شيء غامض يحصل ، شيء ملموس ، يشعر بدبيبه ، لا بد أنها وجدت **واحدة** أخرى تقرأ وتكتب لها ، ألم تقسم إنها لن تعرض كتاباته على (كريمة) بنت (أم سليم) ، هي عاهدته على ذلك ، قد تراجعت عن قسمها ، لابد من شيء غامض يجري ، فكره انشغل ، طلب توضيحاً ، لا يملك راحة بال كي ينجو من **كابوس** اللحظة ، فالوصول إلى الأجوبة الصحيحة يتطلب فكراً صافياً وتأملاً دقيقاً ، ربما ما تزال تستعين ببنت أم (سليم) كي تقرأ وتكتب لها ، لا خيار آخر يلوح ، تشجع وكتب لها كل ما شعر به لحظة الكتابة ، كتب عن الوقائع المؤلمة للجندي وهو مثل **خروف** (عيد الأضحى) يهيأ للنحر ، الجندي كائن يمتلك أحلاماً ورؤى لمستقبله ، رغم يقينه بحتمية موته ، وأنه قربان يوضع بين **أقفاص** ويلقن كي يغدو **لقمة** سائغة لديمومة السلطة ، لابد أن يحقن بعقاقير الصبر وقبول واقع حاله المرسوم ، وأن الجوانب الحياتية الخانقة لإرادته يتم تذليلها ، هكذا كان ومن هذا المنطلق المأساوي هبطت كلماته على بياض الورق ، شرح الكثير من الملابسات أثناء الليل داخل قاعات تختلط فيها روائح بشرية مختلفة ، كان ضائعاً في صحراء الوحدة والغربة ، في ليل الكوابيس ، يبحث عن قواميس الشعر ، كل ما يقتنصه يغدو محض **أشواك** تحيطه باستفزازاتها ، فجاءت كلماته

محطمة النحو ، فاقدة لمعانها المعهود ، شرح لها أن الشعر **يغدو** رماداً أوان الحرب ما لم يحرر من علب التعبوية ، لم يحتمل ضيقه ، كلماته تنطلق متسارعة ، قد أحدث أخطاء أخرى ، لم يجد رغبة أو بالأحرى وقتاً أو **صفاء** نفس كي يراجع ما كتب .

خرج .

وجدها واقفة على جمر نار ، يتراقص جسدها حيرة ، توقف حين رأته ، دنا ، ماشياً ألقى ورقته ، وصل رأس الزقاق ، تلفت ، رغب أن يتأكد ، لم تكن (مها) واقفة ، لم يجد ورقته على الأرض .

وقف نصف ساعة ، قبل أن يعود ، وجدها باسمة الثغر ، تنعكس بوادر الصحو من على سحنتها ، غمره فرح مباغت ، كان لسان حاله ينطق : «**لن أتخلى عنك يا . . مها**» ، مرّ بها ، تلاقت العيون وندهت الأغوار بما كانت فيها من **حرائق** بوح .

قالت :

«أنتظرك في الليل .!»

لم يجد جواباً حاضراً ، دائماً تأتيه الأجوبة متأخرة ، وصل البيت ، كانت أمّه عائدة من السوق .

قالت :

«اشتريت لك سمكاً .»

لم يتمالك نفسه ، جلس على السرير ، دنياه تحولت إلى كرة نارية متوهجة أغشت عينيه ، رجف قلبه ، جلست أمّه لصقه .

قالت :

«أنت بحاجة إلى **زوجة** كي لا تشعر بتعاسة الحياة .»

«أنا مقبل على الموت يا أمّي .»

وضعت كفها على فمه .
صاحت :
«بدأت تذبحني بكلامك .»
«أعتذر عن هذا يا أمّي .»
«دع هذه المصيبة يا ابني ، يمكنني أن أخطب لك – **ميعاد** – بنت أخت جارتنا أم – مازن ـ»
«لم أفكر بالزواج بعد ، لننتظر ماذا تفعل المساعي **غير** الحميدة .»
«الناس تقول إن الحرب ستتوقف عما قريب .»
ضحك (ماهر) .
«ما الذي يضحكك .؟»
«لا شيء . . »
«أنت تسخر من كلامي يا ماهر**!**»
«مجرد كلام سمعته في المعسكر مر بخاطري .»
«وهل معكم من يسخر منّي؟»
«ولم يسخر؟»
«ربما شباب اليوم يسخرون من النساء القرويّات .»
«ليس هذا ما يضحكني يا أمّي .»
«وما الذي يضحكك .؟»
«كلامك بخصوص توقف الحرب .»
«وما أدراني ، الناس تقول إنها ستتوقف عما قريب .»
ضحك (ماهر) من جديد .
«ماهر . . لم تضحك؟»
«من كلامك .**!**»

«أتسخر منّي؟»

«كلا . . »

«لكنك تضحك من كلامي .»

«كلامك يذكرني بكلام الآمر .»

«وما هو كلام آمرك؟»

«يشبه كلامك .»

«وهل قال إن الحرب ستنتهي عما قريب؟»

«كلا . . يوم احترق – ماجد شبوط – أبو السمك ، قال : سيتوقف – الضراط – في ساحة العرض بعد اليوم .»

أطلق ضحكته وشاركته الضحك .

«لكن الناس كلّها تقول هذا الكلام .»

«أرجو ذلك كي لا يموت الشبّان وتندحر حياتنا القادمة .»

«هيّا قم لتساعدني في طهي السمك»

ساعدها في تهيئة الغداء .

ساد الجميع وجوم عام .

توقفت رغبة صناعة الفوضى والصخب داخل القاعة الجملونية ، وقف (ماهر) يتأمل فوضى الدخان الممزوج بالغبار المتصاعد ، تحوم كأشباح تحت **وهج** كابي للمصابيح ، انقطع التيار الكهربائي وحصل لغو عام ، دوت صفارات الإنذار تمزق الفضاء الصامت ، فهيمن خوف شامل .

المنطقة مستهدفة ، مدرسة قتال وتدريب ، مرت الدقائق قبل أن تزعق الصفارات زعيقاً طويلاً دليل انتهاء مدة الغارة الجوية ، ارتج فضاء الجملون المظلم لـ (**عفطة**) مدوية ، انطلقت ضحكات هستيرية أنهضت المعسكر ، هرولت أجساد نحو الجملون ، أنير المكان ، وجدوا أنفسهم أمام ضابط الخفر ، يرافقه (نائب العريف) الأسود مفلوق الشفتين . . صاح بوجههم :

«أولاد الزنا . . الليلة سأحتفل بكم ما لم تظهروا الذي تسبب بالضحك .»

قال جندي :

«سيدي نحن ضحكنا على عدونا لأنه جبان ، لا يستطيع الوصول إلى هنا لأننا سنسقط طائراته .»

همس جندي بجانب (ماهر) :

«بضراطك سنسقطها .»

على ما يبدو أن الضابط الخفر اقتنع بالجواب الصريح ، أطلق ضحكته هو الآخر .

قال :

«نعم كما تقول عدونا جبان ، سترون غداً كيف **يهزم** في المعارك أمام ضرباتكم الساحقة ، إخوتي الجنود ، أنتم أمل بلادنا ، البلاد تحتاجكم اليوم كي تدفعوا عنها شرور العدو ، غداً تنتصرون وتعودون لأمهاتكم .»

قال جندي هامساً :

«نعود ملفوفين بالعلم .»

همس آخر :

«من . . . . أمّي نعود .»

بدّل (ماهر) مسار الكلام :

«سيدي سمعنا أن هناك نقلة عسكرية .»

«نعم هذه الليلة ستنطلقون إلى – **مركز تدريب الدروع** – كونوا أشداء ، لا تتهاونوا في الواجب .»

توقف عن الكلام ، قدّم (نائب العريف) الأسود مفلوق الشفتين قائمة الأسماء له .

قال الضابط الخفر :

«من أقرأ اسمه يهيء مستلزماته ويخرج خارج الجملون .»

حدث لغط ، صاح (نائب العريف) :

«اقطع الكلام .»

بدأ بقراءة الأسماء حسب الحروف الأبجدية ، سمع (ماهر) اسمه ، شعر برغبة سريعة في الموت ، وجد نفسه بين زملاء بعضهم

يطلق **عقيرته** ربما بدافع الخوف ، وربما من باب العبث وفقدان الشعور .

بعد نصف ساعة وصلت الحافلات ، صعدوا وانطلقت بهم ليلاً باتجاه المجهول .

فجراً وصلوا إلى (مركز تدريب الدروع) ، وجدوا حياة عسكرية مختلفة ، وجدوا قدراً مناسباً من الاحترام من قبل المعلمين ، داخل قاعات فيها وسائل مريحة ، تعلموا فن الرمي بالدبابات عبر دروس نظرية وحقيقية ، شعر (ماهر) بفرح غامر كونه تخلص مبدئياً من الصنوف الأُخر ، المشاة تعاسة الصنوف العسكرية ، وهكذا بقية الصنوف ، لم تدم فرحة وجودهم في المعسكر ، كانت الهجومات متواصلة ، جبهة حربية طويلة ، تتسع وتطلب مزيداً من الجنود لسد الفراغات الحاصلة .

تخرجوا في ظرف (٤٥) يوماً ، حاملين شهادة فن القتل والتدمير .

في الحرب تتواصل المفاجآت ، حدث هجوم في (شرق البصرة) ، توقفت الإجازات الدورية ، وجدوا أنفسهم يساقون إلى آتون الجبهة ، حافلات جاءت بسرعة البرق وخطفتهم تعويضاً لخسائر بشرية جسيمة ، جرّاء هجوم مباغت واسع النطاق ، لم يشعر (ماهر) بخوفٍ ، صنف الدروع وفر له شجاعة مضافة ، وجد عيون الكثير من الجنود تنظر إليه بحسد بعدما استلم تجهيزات عسكرية رومانية .

بعد ليلة ونصف نهار ، وصلوا معسكر (الدريهمية) ، وجدوا أنفسهم في استراحة ترويحية ، في انتظار الأوامر العليا من القيادة العامة للقوات المسلحة .

حالة لفتت انتباه (ماهر) ، لم يأتِ من فراغ ، وجد الجنود كل أصيل يحملون البطانيات معهم إلى السوق ، لم يقتنع بحصول **إفلاس**

جماعي ، قبل أن يجيء الخبر اليقين .

جمعوا الجنود بصورة مفاجئة ، نالوا تعنيفاً جماعياً من قبل ضابط التوجيه (السياسي) ، جواسيسه من رجال الاستخبارات العسكرية ، تمكنوا من رصد حالة جماعية شاذة ، قام بنفسه لجلب الدليل القاطع ، كانوا واقفين مرتعدي الفرائص ، لحظة وصلت مركبة حمولة ، أنزلوا منها أكثر من مائتي (بطانية) .

صاح ضابط التوجيه السياسي :

«أما تستحون ، كيف تواجهون عدونا ، أما تخجلون ، هل وصلت بكم الدناءة والخسة أن **تضاجعوا** عاهرات - حي الطرب - بالبطانيات ، أما لديكم نقود كي تشتروا بها الرذيلة؟»

عرف (ماهر) أن الجنود كانوا يذهبون إلى (حي طرب) حاملين بطانياتهم كي يتم التبادل النفعي (المتعة **مقابل** البطانيات) .

بعد أسبوعين تم سوقهم إلى (الفاو) ضمن أطقم دبابات عفا عليها الزمن ، دبابات نوع (m24) مدافعها عيار (٧٥) ملم ، تستخدم كقاذفات قنابل باركة خلف سواتر ترابية غير حصينة .

وجد (ماهر) راحة تغمره ، العيش داخل غابات النخيل حياة مثالية بالنسبة لزمرة جنود زمن الحرب ، كانت النخيل مثقلة بتمور أنواع ، متروكة من قبل مالكين فروا من جحيم القصف .

تكيفوا مع الوضع الجديد ، زارهم ضابط برتبة (عميد ركن) وهيأ لهم أرزاقاً جافة بواقع كيسين مملوءين ، اتفقوا على تنسيق الواجبات أثناء الرمي وأوان وقوع الهجمات .

وجد (ماهر) التجوال داخل غابات النخيل متعة شاعرية ستمده بفيض الحنين إلى (مها) ، بوسعه أن يكتب لها ما يشاء من جمل

غـزليـة تطربهـا ، الحيـاة صـارت كـوابيس خـانقـة ، بلاد لبـست ثوب العسكر ، لم يعد المرء يمتلك رغباته الطفولية ، القلب خضع لرجفات القنابل المنفلقة ، لم تعد لديهم أحلام مؤجلة ، ينام الحلم حين تشتعل الحروب البشرية ، العقل ينفلت بحثاً عن ملاذات آمنة ، أكثر مما ينشغل بوجدانيات الحياة العابرة ، يتجول (ماهر) أحياناً بمفرده وأحياناً برفقة الجندي (موحـان) ، لا شيء يشغلهـمـا سوى وجع القلب واحتـراق المشاعر .

حدث الهجوم المزعوم .

منتـصف الليل تحـديداً ، الجـانب الآخـر من الشط ، غـازلهم بتحرشات صغيرة ، استنزفت كامل قدراتهم الحربية ، الإرباك وارد بالنسبة لجنود خبرتهم بالحروب لا تتعدى دروساً نظرية في أيّام ، ما حصل فوق احتمالات الخيال ، دفعات بشرية مهيأة في عدة محاور ، من شمال البلاد حتى جنوبه ، جبهة طويلة ، تعذر على القيادة العليا معرفة المحور الرئيس للهجوم .

(ماهر) جالساً بوغت بوهج غاصب ، وميض عنيف ومض ، ساده الوجوم ، كل شيء فيه سكت ، من لحظتها شعر أن نصلاً حاداً اخترق جسده وسلب منه شيئاً ثميناً ، شيئاً ظلّ لا يحرك جوارحه ، لا يشغل مشاعره ، خاله وميض قنبلة من العيار الثقيل ، لم يسبقه أو يرافقه دوي ، خالها قنبلة فاسدة لم تنفلق ، وميضاً متناثراً على أديم الجبهة ، سهرة ليلية دائمة لإزعاج العدو ، فلسفة عسكرية قديمة ، أن تهلك عدوك بترويعه ، بحرمانه من الراحة ، أن تفتك بمشاعره بمواصلة قصفه وفق برنامج ليلي متواصل كي يذعن للجبن أوان الهجوم .

رسالة حربية مكشوفة ، موجزها :

«إننا على أهبة الاستعداد ، متهيئون وجاهزون لكل فعل مباغت يبدر من جانبكم يا أعداءنا .»

بدأت القنابل تهطل .

قنابل تذهب ، قنابل تأتي ، الرفاق لم ينهضوا من نومهم ، بقي (ماهر) متوجساً يخترق الظلام بحدقتين ذاهلتين ، يبحث عن متسللين كما أفهموهم أيام التدريب :

«عدونا يمتلك طريقة ماكرة في الحرب ، يقصف ويمرر جنده في تسلل مباغت .»

اندفع إلى إحدى الدبابتين ، بدأ يرمي عشوائياً ، أنهى عتاد الأولى ، بدأت بتفريغ الثانية ، متعباً عاد ، وجد رفاقه يحدقون فيه بجنون .

قال (موحان) :

«مجنون .!»

«جننت . . »

«سينهشوننا بقنابلهم .»

«هذا ما أريده بالضبط .»

«لا تيأس يا أخي الحياة طويلة .»

«ربما منذ لحظات قليلة بدأت أشعر بتفاهة الحياة .»

«أبهذه السرعة تخليت عن أحلامك .»

«شعرت أن شيئاً ما ثميناً سرق مني .»

«هذيان يدركنا في لحظات الخوف .»

صمت .

خرج (موحان) من صمته . . قال :

«وجدت المكان الملائم ، ستكتب قصائد كثيرة هنا .»
«لم أعد أشعر بشيء يحرك مشاعري كي أكتب شعراً .»
«اكتبها بالقنابل .!»
صمت .
مع البوادر الأولى للفجر ، نعست المدافع وظلّ الضجيج **يلغم** الفضاء ويخرس النخيل .
تركوا الملجأ .
في الحرب يجوع الجندي ، دمه يحترق سريعاً ، الخوف يبدد طاقة جسده ، أخرجوا من صناديق الدبابات ، معلبات وقطع بسكويت ، وتناولوا فطوراً مرتبكاً لدحر **ضجيج** الخوف .

ليلة أخرى .

فاقداً كينونته ، لم يعد مزاجه كما كان يرقى لعالم يوجد ضمن محيطه ، وجوده كما يذهب اعتقاده مرغماً ، قدر قرر وجوده في زمن عاشه ، في مكان ما ولد فيه ، ظلّ يلاحقه بتفاصيله المتشابكة ، بثقله ، بهيبته ، بتمرده .

للأمكنة سطوة غاصبة مثل دفة سفينة تحضر دائماً في الخيال ، أينما يوجد المرء ، حتى في قلب الفردوس ، تباغته تلك السطوة ، قد تعكر صفاء ذهنه ، وقد ترميه في قلب الفرح لو كان ساقطاً في ضيق .

لم يعد وفق حسابات بيدر الذهن ، كائناً يمتلك نشاطاً عاطفياً ، يؤهله – ولو بقدر مقبول في أسوأ احتمال – لتكملة مشواره البشري ، في عالم يائس ، هلوعاً يلهث نحو حتفه ، متعثراً ، غامضاً ، كظامئ يلهث خلف بقعة سراب .

قام .

لم يجد منفعة من نوم مضطرب ، ما عاد النوم ينفع في زمن تحاصر فيه إرادة البشر ، تستلب معنوياته ، تقنن قوته ، لا يضيف النوم سوى مزيد من القلق والأرق ، وحسب علمه الافتراضي ، النوم في قاموس الوجود موت مؤقت ، وحسب تصوره الخاص حساب فسيولوجي معقد ، كون المخيلة مراقبة والقلب محاصراً بنشيد سيادة الظالمين ، ومستقبل غير موثوق كونه مرسوماً بأقلام تجهل رغبات الرعية .

النوم عقد فطري أزلي مبرم ، مغلق المنافذ ، ختمه شمع أحمر ، هالة مقدسة ممنوع التقرب من خطوطها الحمراء ، أو محاولة فك الاشتباك الحاصل ما بينه وبين الأجساد المتهالكة على مدار الزمن .

تنام الكائنات .

شيء غامض ، محسوس ، يأتي ، يفرض عقاره ، لا كائن بوسعه مقاومة الخدر الحاصل ، كل كائن يمتلك طريقة ملائمة للنوم ، بعض الكائنات تنام بعين واحدة ، قد توجد كائنات مائية لا تنام ، بحكم غريزتها تدرك ، النوم يعني بالنسبة لجنسها طبعاً **نهاية** التاريخ ، تعيش في خطر دائم ، تحيق بها وحوش دموية مفترسة الطباع .

بعض الطيور تنام على ساق واحدة .

الوحش في الجوار .

تلك هي فلسفة حياتها الخالدة ، ذلك الرعب الموجود حرك قدراتها العقلية وثقافتها الذهنية فمنحها الله نوعاً من نوم ملائم ، يعطيها راحة بال ، يمنحها من جهة أخرى ، فرصة مراقبة ممتازة لكل خطر متربص .

الحياة مهما تمت صناعة أمنها ، مهما تم **تطهير** غاباتها المتشعبة من وحوشها ، تبقى ساحة قتال دائمة ، مفتوحة ، الخطر يكمن في الجوار ، ، لذلك يتحصن المرء داخل بيوت مسوّرة بحيطان عالية ، داخل غرف قوية الأبواب ، تغلق الأبواب ، ليلاً ونهاراً ، التدثر بدثار رغم الوجود داخل غرف محصنة ومغلقة .

نوم . . نهوض ، أرجوحة القدر ، قدر كل الكائنات ، كل مفاصل العلم ، قديمه الفلسفي ، وحديثه التكنولوجي ، لم يجد كبسولة علاج تفصل هذا التوأم الأزلي المتوازن ، نوم/يقظة . . يقظة/نوم .

لم ينم .

لم يعد يمتلك رغبة تدفعه إلى مواصلة الحياة ، عباب يأس يزحف ، يقف متأملاً كتاب حياة مفتوحة ، طقوس عاشها كما تعيش الكائنات ، كل كائن معه كتاب حياته ، **مسرات وأوجاع** ، كتاب فيه مدونة تعاسته وومضات سعادته ، غالباً ما تكون كمّية التعاسة هي الغالبة ، طالما الحياة محض سجن كبير ، دهليز خانق سادته دهاقنة الظلام ، وسدنة العنجهية .

معابر . . يمشي كثيراً لمجانبة فخاخها ، العقل أحياناً يتمرد على السائد من الأوضاع ، ينقاد المرء طائعاً تحت سطوة بادرة مباغتة تركب **سفينة** الخيال ، فتدير دفة فكره عادماً ما عزم عليه .

المرء دائماً في ظل سيادة القسوة يعيش بازدواجية ، ككائن مسيّر على **شفير** الجحيم .

(ماهر) يمشي .

رأسه في فراغ يسعى ، فكره ما عاد يعرف اتجاهه ، مختصر مناسب ، (ماهر) فقد بوصلته ، حكمة العقل ، الوميض البريء ، الفطرة التي جبل عليها كل كائن يوم يولد ويوم يعيش ، يتم نزفها كونها ثورة على الطغيان .

لم أعد أمتلك شرراً
يا صبيّة
قلبي ما عاد يمتلك وطناً يحتوي
أحلامك الوردية .!

***

شخت في ظل حربٍ قبل الأوان
ما نفع الحب
في بلاد ساستها
رعيان
وناسها
طليان .!

****

عمري ما عاد سفينة كلام
أخرجي يا ثعابين الأحلام
من غابة أيّامي .!

****

مذ عذبنني النساء
صرت أسكن الصحراء .!

****

واقفاً يتأمل العالم .

وشاح الظلام يغطي مسرح الحياة ، الأدوار تتواصل بلا ضجيج تحت قيامة سواد ، تنخره نجوم تضج بخيوط ضياء خجلى ، لم يعد الهواء البارد ذا أهمية .

شباطي ما عاد يثلجني . (قال لسانه)

ما عاد جسده يستوعب أشياء الحياة الكبيرة ، صار سفينة عملاقة تائهة ، مليئة بأحلام معقدة ، في محيط مليء بكواسج خرافية ، تمشي بلا بوصلة ، بلا ربّان ، بلا رغبة ، تتناهبها أمواج غاضبة تتلاطم كألسنة الحرائق .

طقوس عادية ، بعضها صاخب ، عاشها مثل كائنات **مفروغة** الحلم ، معبأة باليأس الخالد .

قبل حلول ظلام مباغت ، ظلمات لا رجعة فيها ، في غير أوانها ، ساور ذهنه قلق خفي ، استفزاز مباغت ، تخاذل ، قاده الشك إلى تيقظ تام .

لم أنا بالذات؟ (قال لسانه)

الحديث عن الذات يشكل رياضة نفسية ، تطهير من أدران شوائب تتعلق بالمرء شاء أم أبى ، غالباً ما تكون مراجعة نقدية ، تندمية ، طالما هناك طفيليات تتغذى بالبشر ويتغذى البشر بها ، بحث عن جرم ألقاه صريع مستنقع الفائضين ، وجد في وقفته الليلية **جيش** هواجس ٍيغزوه ، لم يهتد لوسيلة تنجيه من مشاكسات الذهن ، ذهنية إنسان العالم الثالث ، تغرق في بركة واحدة ، العالم المصدوم بجدران البلادة والتأخر ، عالم بلا عالم ، خطأ سموه العالم ، فهو **معتقل** أو **معبد** أزلي محض لأصحاب عقول سريعة التخثر .

فقدت ما أمتلك من أسلحة دفاعية في أول النزال
مستسلماً .
كغريق أفلت آخر صيحة بوجه الفراغ
سمحت لصولاتها (الغزوية) ، لا . . لا . . ليس من باب السلوى . .
محال
الفرح ما عاد يمتلك فضاء كي يسوط الزمن بنشيد الآمال .
الفرح لا يليق بكائن ولد في معتقل تجنياً سموه بلاد .
يبقى الفرح تلك الرغبة المتفاقمة فينا كالخيال .

أن ننجو من إخطبوط الهلاك .
رغبت الذاكرة قيء مزابل الأهوال
تراكمات سلبية من باب الاحتمال
قد تكون ومضات فرحي الأخير
قد تكون مقبرة لما تبقى في من جمال
هاجس يقنعني بهذا السجال . . !

واقفاً على ضفة جدول مائي .

شق أخدودي متعرج ينحدر من شط يحمل هويتين ، اسمين متخاصمين ، جهة (**تعربها**) ، جهة (**تفرسها**) ، رهط اتخذ حلاً وسطياً من باب إخماد حقن الضغائن ، قام بـ (**أسلمته**) ، الأخدود المائي مثل ثعبان يتلوى شاقاً أحشاء البساتين ، واصلاً إلى أطرافها ، قرب الشارع العام الذي يصل مدينة (البصرة) ببلدة (الفاو) .

الشط ذات زمان كان هادراً ، يوماً إثر يوم بدأ يحتبس ماؤه ، تتقلص مساحته ، وتغادره سفن الشرق والغرب .

يصعد الماء ويهبط ، عبر تراجيديا أزليّة ، مد وجزر ، على ومضات النور المنسكب من قرص قمر يسبح خجلاً في سماء مغبرة .

بوقفته الشرودية ، يراقب (ماهر) من كثب بعينين متعبتين ، أسماكاً صغيرة تكافح ، مشهد ممتع ، أن تفاجأ بصور حياتية متواصلة قربك ، كل كائن يمتلك حياته الخاصة ، يمتلك أخلاقه ، منبوذ من يخرج من فلك **كائنيته** .

مشهد أسماك صغيرة تمرح في ماء وديع ، أنزل بندقيته من كتفه ، جلس يتمعن حياة متعبة ، حياة أسماك تهرب ليل نهار ، حولها وحوش لا ترحم ، من بني جلدتها ، من كائنات أخر ، الكل يعشق التهام السمك ، القطط والكلاب والأفاعي والبشر والطيور والدببة والسلاحف

والتماسيح ، سمك يعيش على سمك ، حياتها تشبه حياة البشر ، البشر أيضاً ينقسمون إلى قسمين متعادلين ، **مفترسين وضحايا** ، ليس بالضرورة أن يأكل بعضهم بعضاً ، توجد وسائل تتساوى في موازين الحسابات العقابية ، الغيبة ، النميمة ، لوك معلن للحم البعض ، مضغ حي ، سلب حقوق واستغلال تام لتعساء الأرض .

الحياة قتال متواصل ، في الماء ، في البر ، في الفضاء ، في العلن ، في الخفاء . (قال لسانه)

أسماك صغيرة تتراقص ، تبحث عن غذائها ، رفرفت أجنحة ، كان ظل الجناحين مستقيماً يرتسم على الأرض ، طائر مائي منقاره طويل ، واقفاً يطير ، يسلط عينين خارقتين في سرب أسماك تكافح ، على مسافة عشرين متراً من وقفته ، الجوع منحه شجاعة كاملة لاقتناص غذائه ، طائر مذعور راقبه بحماسة ، حط منقضاً كصاروخ (جو- أرض) ، اخترق الماء ، خرج طائراً ، وجد صيده ينفلت من منقاره ، لاح مدى خوفه من وجود جندي بيده سلاح ، متلهفاً ركض (ماهر) نحو الكائن المائي المتراقص ، حمله ، تأمله وأعاده إلى عالمه المائي ، الطائر ظلّ يرمقه من الفضاء غاضباً ، يشتمه بصوت حزين ، يتمنى لو كان هذا الجندي **قطّاع** الرزق سمكة مهما كان حجمها لانقض عليها ومزقها بمنقاره المدبب عقاباً .

حمل بندقيته ، ألقى نظرة ، وجد ساعته متوقفة ، نسي أن يبدل بطاريتها ليلة أمس ، في تلك اللحظة سمع صوت نائب العريف (رسول) يناديه :

«ماهر . . انتهى وقت حراستنا .»

مشى إليه ، معاً واصلا السير نحو الملجأ ، تمدد على فراشه ، جسد

مرهق ، ضجيج دمه يتفاقم ، بدأ يبث عزفاً صاخباً ، نشيد يفرض سطوته كلّما كان في الفراش .

قال (رسول) :

«ماذا دهاك .؟»

«أشعر بتعب غير طبيعي .»

«ربما اشتقت إليها .»

«لم أعد أشعر بتلك الرغبة العارمة .»

«بعد غد ستشبع منها - **عجناً** - وتقبيلاً .»

«لم أعد أرغب بمغادرة الجبهة .»

«أنت مجنون .!»

«ربما تكون على حق .»

«نم .؟يجب أن تغط في نوم طويل ، كي تنهض **قربة منفوخة** برغبات عاطفية عارمة .»

غط (رسول) في نوم شخيري .

بدأ بسياحة ذهنية ، غربل حياته العسكرية القصيرة ، لم يهتد لمشهد يؤرقه كي ينام ، طال تحديقه في **شاشة** الفراغ ، فئران **تخشخش** بين الشقوق ، هدوء نسبي يعم الجبهة ، عادته الدائمة قد تنجيه من حمّى الإحباط ، سحب دفتره ، سحب القلم الجاف ، طريقة مجربة تقتل حيرته بـ **قيء** قيح مشاعره ، كلمات حب تطفىء نيران شهواته ، جمل غزلية ، يحشرها في مضيق أوزان عاطفية ، نسيها (الفراهيدي) ، وهذا يدل على أنه كان بلا قلب ، أو مجرداً من العاطفة ، لا خيار وجد ليضعه تفسيراً أنجع منه .

كل ما يكتب ، يقرأه بذهن **منفوخ** ، بكبرياء شاعر جاهلي ، قبل

حـشـرها في مظروف مـهـيـأ ، وعـبـر بريده اليـدوي ، يدي تلك الطفلة الوديعـة ، سـاعي بريده المجـاني ، يرسلهـا إلى (مـهـا) ، ضـوء القلب ، مصباح أضاء ظلمات حياته ، تتلقفها ، تقرأها ، تعيد القراءة ، تسهر الليل ، كتابها بين يديها .

كل عاشقة مفضوحة ، هكذا يقول دليل المحبين ، المواقف والمشاهد لكل العصور السالفة ، كل حبيبة تتصرف بشيء من خفّة الروح ، بمرح وسعادة تتطاير من مقلتيها ، يكتشف **النبيه** هذا التبدل الفاضح في تصرفات البنت ، في تعايش الولد داخل كل البيت .

(مها) ستضبطها أمها ذات ليلة :

«كفاك قراءة ، ستطفئين نور عينيك»

لا يخشى (ماهر) على (مها) ، تمتلك خيارات دفاعية متينة . . ستقول لأمّها :

«لدي امتحان كبير غداً يا أمّي .!»

«وهل هناك امتحان أكبر من حياتنا البائسة؟»

ستنسحب أمها بينما (مها) ستهمس جواب سؤال الخلود في نفسها :

«نعم يا أمي إنه امتحان الحب .!»

تجهل الكثير من الأمهات قراءة سحنات بناتهن ، يجهلن فضيحة القلب مرتسماً في عيون الأبناء ، في كلماتهم ، في تصرفاتهم ، في طبيعة تناول الطعام .

الحب **جرثومة** شاملة التأثير ، تجاربهن لم تعلمهن درس الحياة الكبير ، أم هي لعبة الحياة المعقدة ، كل كائن عاشق يغدو رماداً محضاً حين يتركه الدهر في حفر الحياة .

تغادر أمها ، تنام ، تبقى (مها) لتؤكد عبر كل رسالة ، المشهد ، لتعلمه بمدى قوة حبها له ، تقرأ كلماته من بين دفتي كتاب مدرستها ، تعيد قراءتها ، تحفظها عن ظهر قلب ، تبدأ بالكتابة ، تكتب مشاعرها المحترقة بنيران اللهفة ، بحرائق الانتظار ، بنت مراهقة وجدت نفسها ذات صباح في حديقة مسرات كونية ، حديقة مراهق يانعة .

لا تركن الأم للهدوء ، قلبها دليلها ، ثمة عزف مزعج ، يسلب من العين النوم ، أمها ستباغتها مرة أخرى :

«الصباح سيطلع ، كيف تقاومين في المدرسة؟!»

«انتهيت من تحضير دروسي ، سأنام حالاً يا أمي .»

مسكينة أمها ، حتماً ستصدقها .

تضع (مها) كلمات حياتها داخل مظروف ، تنتظر عودته ، ساعي البريد ، فتاة المراسلة اليدوية ، واقفة ، توزع مناشير لهفتها على همسات صباح بلدة تتناهض بكسل تام ، تترصد الدرب ، تجلس مع بنات صغيرات ، هن يلعبن ، هي عينها على الدرب ، تنتظر عاشقاً لم يمت بعد ، أخطأته رصاصات الحرب ، لم تكتشفه **صواريخ** الحقد البشري ، يأتي دائماً مع الغروب ، الجبهة بعيدة ، **ست** مركبات تكمل الخط الممتد ما بين بيته وموضع قتاله ، متعباً ، يتنكب حقيبته ، يمشي بعينين مرتجفتين ، فتاة البريد تقتنصه من مسافات قصية ، تحفظ مشيته ، تركض إلى (مها) ، تلهث ، تستقبلها بفرح غامر ، تعرف من لسانها المتوقف ، من عينيها الدامعتين ، حبيب القلب عاد ، من غير عوق ، ماشياً على قدميه ، غير مرفوع على الأكتاف ، لا نعش يقتحم الزقاق ، جاء غير ملفوف بعلم صار وظيفته الوطنية **لفّافاً** للموتى ، بعدما كان **مروحة** هوائية الحركة ، **تهش** وتبش من غير سبب ، لتنعش عروق

البلاد بنسمات حرية مزعومة ، وسيادة وهمية على رقاب رعية غذاؤهم الدائم **أوهام** الوطنية .

تقبلها (مها) ، تعيش ليلة حالمة ، لا تنام ، «**ليس الوقت وقت نوم**» ، دائماً تكرر الجملة بيقين لا يتزعزع ، تقولها بشيء من الحساسية المفرطة ، من خلال الكلمات المضغوطة ، من خلال صرير القلم ، يعرف (ماهر) لكم كانت تكتب الجملة بعصبية متشنجة ، تكتبها بطريقة متعرجة ، في كل رسائلها الملتهبة .

لم تعد الجبهة تهمه ، مكان لا يليق بعشاق الحياة ، (**مقبرة أحياء**) على حد زعم نائب العريف (رسول) ، كل شيء يلوح أمامه (مها) .

في الليل ، توفر له (مها) فرص تبادل الرسائل ، تقف تلك الصغيرة على الدرب ، يخرج ، تجده بعينين لا تخطآن ، تركض ، قلبه يقشعر ، جسده يرتجف ، يخاف (ماهر) من المتلصصين ، قد يراهما متلصص ، قد راقب كثيراً ، منتظراً – على جمر الغيرة والحقد – عودته ، يريد دليلاً ملموساً ضدّه ، ربما ضدّها ، لغاية قد لا يعلمها ، قلبه دليله ، دائماً يحسسه بهذا الظن المتواصل ، ثمة **كلب** يترقب مشهد الإثم .

آه . . دائماً (مها) تميت أحراش الخوف في مهدها ، رائحتها ، زقاقها ، طلعتها ، طفلة بريدها . . تطمئنه :

«لا . . ليس في الزقاق من يستطيع كشف أسرارنا .»

يرتمي القلم **مزوبعاً** بتسويد الورق .

أصابعه متشنجة ، فكره مشغول ، أصيل محموم بهدوء منسوب لتعب العدو ، أعداء لا يتعبون في الاعتداء ، فلسفة حربية تليدة ،

التحرش **نشيد** حربي خالد ، العدو قد يركن لهدوء نسبي ، يراجع فيه أوراق **الاعتداء** القادم ، وتهيئة المستلزمات الضرورية لتحقيق اعتداء كامل التدمير ، غير منقوص الغنيمة ، الحرب أم الغنائم ، **خالتها وعمتها** ، من يسحق ندّه يلتهم ما عنده ، **يحرق ويسرق** ، تلك هي لغة الحرب في الغابات ، في المدن ، بين الحيوان ، بين الإنسان ، من عصر (النياندرتال) إلى عصر (أطفال الأنابيب) .

هدوء العدو وراءه عاصفة ، إنّه يخطط لفعل كبير ، أقسى اعتداءً ، كل شيء ممكن ووارد في خط النار ، هجومات موسمية تتواصل ، لا أحد يقرأ أفكار غريمه ، كل طرف يمتلك كمية مؤهلة لإبادة غريمه .

في الحرب تنام الأخلاق ، وتسبت فكرة الإنسانية ، يغدو البشر **حمراً** مستنفرة يجب إخلاء البسيطة من صخبها المتنامي ، كل طرف عند غريمه حمير فائضة عن اللزوم ، معتبراً نفسه الأسود الكاسرة ، تمتلك الحق الكامل في تنظيف الغابات من نهيقها .

داخل قاعتين قيادتان متباعدتان تنسجان الملاحم الدموية بغاية في الكتمان ، وكثير من الوحشية والغباء .

دائماً يتم إعدام قادة فشلوا في وقف زحف العدو ، أو تعذر عليهم تطهير **ثلمة** أرض غير مؤهلة للعيش محتلة ، أو أعطوا ضحايا فوق الحد المسموح به .

فكر (ماهر) يشتغل ، شعرياً يصافح الموجودات من حوله ، من غير راديكالية ، من غير تدقيق حرفي في حفرياتها الغائية ، أو فلسفة هيرمونطيقيتها ، الجمال الشكلي والمشهدي ديدنه ، التكعيبية لم تعد تنفع هلوسات الحرب ، السريالية وباء لوّث الجمال الفطري لكل المخلوقات ، لن تشفع لـ **خربطات** مزاجه ، الرمزية ثوب مفتوق ، مشقق

الغـايات ، مـيـزان الذهب لم يعـد ضـيـزى ، ترتب أوراق جنونه ، فن التقطيع والتلميع والتسريع باطل الأباطيل من يهندس عليه هذياناته .

الجمال سر خالد يطيل من سعادة المرء ، في كل موجودات الحياة حفنة جمال ، في الحجر والشجر ، ألم تتحول الأحجار والأشجار إلى منحوتات ذات قيمة فكرية ومادية؟

تأتيه أفكار متنوعة ، تصفع ذهنه وتمضي ، (رسول) يشخر ، جيوبه الأنفية فشل في أيجاد العلاج الخامد لنشيدها ، أمام عينيه تسبح كلمات تعذبه ، تمزق على وتيرة متصاعدة أعصابه ، تحاول بالتقسيط المريح خداعه ، تتراقص على مهل ، لا ترغب في الهبوط إلى **قلم** شبه خائف ، يرتجف بين أنامل فقدت معنوياتها ، يحاول ، يفشل ، همومه جثة غير طائعة ، تقاوم بضراوة نمرة محاصرة ، يرغب في صيدها ، لا سلاح يمتلك في قتالها ، لا عزيمة تشحنه بطاقة قتال كي يتناولها ضرباً بقلمه ، كي يحيلها إلى قوالب أحلام **تتعتع** خلجان قلب (مها) .

علي أن أقتنص ما هو مناسب . (قال لسانه)

كلمات غير طبيعية ، تهز أغوار (مها) من قراءة أولى ، ليس بالأمر اليسير ، باتت الكلمات لا تشبع ثورتها العاطفية ، رغباتها **بلشفية** نوعاً ما ، تريد شعراً متمرداً ، عنيفة القوافي ، مثل طلقات **مسدس** - غوبلز - الثقافية ، كلمات نارية تغربل أغوارها الجاهلية .

(مـهـا) أدمنت لعـبـة الكلام ، صـارت تكتب أكـثـر مما يكتب ، كلماتها فوق مستوى كلماته ، متحررة ، تحيره أكثر مما يحيرها ، ليس لأن قلبه **مقفول** على وتيرة رتيبة ، أو غير نابض ، قلب الفتاة حين تعشق تغدو فردوساً يسع أحلام الدنيا ، قلب الفتاة عالم صادق ، قلب الشاب **مستودع** خادع ، تكتفي الفتاة بمحب واحد ، والشاب يرغب بامتلاك

فتيات العالم دفعة واحدة .

مزاج (مها) غير طبيعي ، خبر عواطفها من لقاءات متفاوتة في المتعة .

(مها) صغير عمرها ، عقلها أكبر مما يتصور عقله ، عمرها لا يؤهل غيرها لمغامرة وجودية في غابة بشرية موحشة .

(مها) جريئة ، لا يرف لها جفن ، لا تخجل من كلام الحب ، عجزت ذاكرته ، لم يعد يصطاد **جملاً** يسكر بها قلبها المتمرد .

قلمه أبى الانسحاب من ساحة الحب ، بعد فشل واضح لتدوين الأرق ، وتعذر **مشلول** لتسطير لواعج وخلجات الذات ، رفض قلمه أن ينسحب من غير **قذف** رصاص ذائب .

أناا

لم أعد أنااا

فمن أنااا .؟!

***

مظروف رسالته تهيأ .

لم يعد يتذكر ما الذي هيأ ، بقى متيقظاً ، لم يعد كما كان ، قارئ كتب ، دنيا تنغلق ، قلبه يضيق ، شيء ما يستصرخه :

«**لم أنت بالذات؟**» ترجيع صدى .

لم أنا بالذات؟ (قال لسانه)

تسحبه الصرخة .

متأملاً الفراغ المترب

لا عدو يرصدني

لا قدر يأخذني بضغطة زناد
لا رصاصة تريحني من ضجيج يستفحل
ويسكت فيّ
هذا العناد
ضجيج يمزقني
يكاد يبتلعني على مهل
يكاد يلقيني
جملة مهملة من غير فعل .!

***

«رسول» قام لم يجده ، وجد أوراقاً مبعثرة ، وجد رسالة مختومة ، شتمه ، دائماً يقول له :

«إذا تركتني وحيداً في الملجأ ، سأصب عليك لعنات الدنيا .»

يكتفي (ماهر) بهزة رأس وابتسامة شبه مخادعة .

(ماهر) كل ما يكتب يقرأه ، رسائل وقصائد ، يستطلع أقرب رفاقه (**موحان ورسول**) من غير خوف على مجمل أسراره .

(رسول) لحظة قام من غفوته ، لحظة لم يجده ، تبعه ، يعرف دائماً أين يجده ، أمسكه من معصمه .

صاح بوجهه :

«أجننت .!»

جرجره إلى الملجأ .

صاح أخرى :

«أتريد أن تموت .»

«نعم ، أنا لم أعد أنا .»

«أنت تهذي يا – ماهر – »

«لا أجاملك . . »

حدجه بنظرة ملؤها توسل . . قال :

«ماهر . . لم تخبئ عني أسرارك .؟»

«ليس لدي جديد .»

«المظروف مغلق .»

«لا شيء يستحق الاهتمام .»

تمدد (رسول) على فراشه ، أمطره بنظرات شبه جارحة ، تكاد تكون غريبة .

(ماهر) تعلم فن الهروب ، فن الكذب .

العشق أكذوبة ، كل ما يقال في حضرة المحب كلام فارغ ، أحلام رملية ، هاجس بدأ ينمو ، ذهنه بدأ يفسر الأشياء كيفما اتفق ، كل ضفة تمطر الضفة المقابلة بما تمتلك من غبار **معسل** ، أملاح لابد منها لترطيب الجو ، لتمتين الآصرة .

قال :

«الرسالة لأمّي .»

«تكذب .»

خطوة أولى متعثرة ، ليس كل إنسان يستطيع تمرير أكاذيبه ، هناك **بشر** أكاذيبهم تداوي هموم العباد ، تسكن آلامهم ، تقبر جوعهم ، تريح أعصابهم ، ألسنتهم **غير** الصريحة ، تقودهم ليصبحوا **رؤساء** بلدانهم ، يذيبوا الحجر بخطبهم الرنّانة ، يميتون أحلام الناس الكبيرة ، يمتلكون وقوداً سحرياً ، يحيلون الغضب إلى **ولاء** .

حقاً (**إنّ من البيانِ لسحرا**) .

لسان (ماهر) غير مهيأ للكذب ، لسان عادي ، غير مهيأ لوميض السحر ، محاولة أولى فاشلة ، طالب رسب في امتحانه الأوّل .

قال :

«وددت أن أمازحك .»

(رسول) أسمر ، مربوع الجسم ، حاد النظر ، كل هادئ يقرأ أفكار الآخرين بتمحيص ، يمكنه تمييز الأشياء ، ما هو نافع وما هو ضار .

قال :

«لم تمارس هذا الأمر من قبل .»

«دعه جانباً .»

«أنت مريض يا – ماهر – »

«ربما الخوف بدأ يعتريني من هذا الصمت الملغوم .»

«جبهتنا دائماً صامتة كصمتك .»

«لم تلح يا أخي .»

«كي لا تكذب علي مرة أخرى .»

«حسناً كما تريد .»

ساد صمت طويل . . حل الغروب .

عدّوا عشاءهم ، مع غروب شمس كل يوم ، توقد نار صغيرة ، يشويان اللحم ، يأكلان كريات لحم مشوي ، يحتسيان الشاي قبل أن يتهيآ لواجب ليلي ممل من أجل اصطياد الفراغ .

في حفرة على الساتر .

سأله (موحان) :

«كيف أحببتها؟»

«لا أعرف .!»

«لا تتغابى . . أريد أن أعرف كيف تعلقت بك ، كيف حصل التغير الاستراتيجي في معركتها الفاصلة مع الحب؟!»

«صدقني قبل **وميض** الحب كانت **تلعب** بالتراب .»

«ألم تصارحك عن كيفية تأثيرك العاطفي عليها!»

«في الصباح كانت تلعب بالتراب ، في الليل تحرشت بي ، وصرنا حبايب .»

«ربما لعبها بالتراب كان تعبيراً فسلجياً عن نمو ساخن لعواطفها ، كون التراب **أصل** البشر .»

«عدت منتصف الليل من المقهى ، لا أعرف كيف لمحتني في ظلام الزقاق ، كانت برفقة شقيقتها ، حاذتني وضربت كفها كفي .!»

«مصادفة . . »

«لم تكن مصادفة ، كانت مقصودة .»

«كيف .؟»

«كانت في الطرف الآخر من الدرب ، ما إن لمحتني حتى غيرت مسارها وانتقلت إلى جهتي .»

«رب صدفة خير من ألف **حرشة** .»
«لا تتفلسف برأسي ، أحكِ لي عن حبك .»
«أنا لا أحب .!»
«من لا يحب مكروه .»
«فتاة وضعتها في بالي ، ما زالت رغبتي تصطدم بصخرة عاثرة .»
«إمّا أن تكون - **جباناً** - عاطفياً ، أو أنها لا تستسيغ هذه السحنة المحروقة .»
«لا هذا ولا ذاك .»
«أم أنك بندول متأرجح .!»
صمت .

بمواجهة ظلام الليل ، يحتضنان بندقيتيهما ، يحاولان **اصطياد** أشباح ترتسم في حدقتيهما ، ليل طال ، برد الجبهة لعين ، برد مشبع برطوبة الماء وندى النخيل ، عصيباً يواصل خلخلة معنوياتهما .

من بعيد ترسل القنابل وميضها ، يشعران برجات خفيفة تحتهما ، تطرد النعاس المتشكل من رطوبة الجو ، (موحان) يصمت طويلاً قبل أن يخرج سؤالاً أو رغبة في التعبير عن فكرة تشغله ، كم دقيقة مضت ، سؤال صعب جوابه ، كوّر (موحان) كفه اليمنى حول ساعته اليدوية ، ضغط زر الساعة ، توهج ضوء كاب تمكن من خلاله من معرفة الوقت .

قال :
«ساعتي متوقفة .!»
«كيف عرفت .؟»
«ساعتي تقول إننا قضينا من فترة حراستنا نصف ساعة .»
«هراااااااااااااااء .!»

«لم تصرخ؟»
«آه انفعلت ، كنت واضعاً في ذهني أننا على وشك ترك النقطة لمن يلينا .»
«يجب أن نعرف الساعة بالضبط .؟»
سمع (ماهر) وقع أقدام **شبه** بشرية تتحرك على أرض الواقع ، أمسك معصم (موحان) ، سحبه هامساً في أذنه :
«ربما تسللوا .!»
«أكاد أصرخ أنك على حق .»
تمددا .
كانت العيون تخترق الظلمة المتحركة ، قلب (ماهر) بدأ يدوي بضرباته ، واصلت **الأقدام** تعذيبه ، تتضخم في رأسه كصدى طبول قادمة .
همس (موحان) :
«لنخبر آمر السرية .»
«ليس قبل أن نتأكد أولاً . . ربما قطيع خنازير مذعورة .»
«ولكن لم الخنازير بدأت تغادر الشط وتتجه نحو الصحاري الرملية ، لابد من سبب واقعي .»
«قل لي هل توجد تماسيح في الشط؟»
«كلا . . توجد – **سلابيح** – »
«ليس هذا وقت مزاح .»
«أي تماسيح يا – ماهر – شطنا يكاد يختفي ، هذه الهجرة وراءها أسباب حربية .»
«ربما رحيل قسري جراء **تفخيخ** جرف الشط بالألغام .»

«وما أدرى الحيوانات بالألغام؟»

«آه . . تذكـرت ، ربما بدأ جنودنا باصطيـادها وأكلهـا بعـدمـا تعـذر وصول أرزاقهم .»

«ومن **أفتى** بتناول لحم الخنازير؟»

«قيادتنا الحكيمة**!**»

«الجوع يلغي **الشرع** أحياناً .»

«جواب غير مقنع .»

«ألم يدربونا على **أكل** الضفادع والفئران والخنافس وتمزيق الكلاب الحيّة بأسناننا أيام التدريب**!**»

«لقتل الرحمة فينا .»

«كلا يا عزيزي تحسباً للطوارئ .»

«لنترك هذا الجدل لما بعد التأكد من القضية .»

وسط الظلمــة **ظهـر** رهط خنازير تولي الأدبار ، مـرت بالقـرب منهما . . همس (موحان) :

«كما توقعت ، على ما يبدو أن عقلك تم تبديل - **كويلاته** - بعد تجربتيك العاطفيتين المتواضعتين .»

«موحان . . أكاد أشم رائحة خطر غير متوقع .»

«في علمي - **اليـمـاميـة زرقـاء** - عـرفت بحـدة بصـرها لا بقـوة شمها .»

«قوة البصيرة أنفذ من قوة البصر .»

«لكن حاستك الـ **سادسة معطلة** .»

«أليس الشعر نتاج قوة الحاسة الـ **سادسة**»

«أنسيت قول جناب السيد الآمر**!**»

«كلامه كثير وما أدراني ما تريد .»

«كلامه بخصوص الشعر .»

«نسيت كل شيء بعدما اخترقني الوميض .»

«ألم يقل الشعر – **ضراط** – الرؤوس الغازية .»

«نعم هناك رؤوس **فارغة** من الثقافة ، ما يخرج منها لا يعدو سوى غازات خانقة»

«وشعرك من أي الفضلات هو؟»

«دعنا من هذا ، لعنه الله ، ربط كل شيء بالضراط .»

«حسناً سأشيع بولادة – **أزرق جلبلاء** – يشم الخطر على بعد دهر .»

«موحان . . قلبي يشعرني بهاجس غير مريح .»

«قلبك عاطفي جداً يا ماهر .»

«لكنه صادق بما يتوقعه ، ألم ينطق شعراً ، الشعر شعور .»

«وما جدوى الشعر في حياتنا القادمة؟»

«الشعر صوت الحقيقة الضائعة .»

«لكن صوت الرصاص دائماً أعلى من صوت الشعر في شرقنا الذبيح .»

«مهما يكن ، ثمت أمر جلل يحيق بنا .»

«سادر في شططك يا أخي ، ليلة أمس صلبتني في قلب القلق ، واليوم تروم نحتي (فزّاعة) من توقعاتك الفارغة ، لن أرتئي برأيك من اليوم فصاعداً .»

صمت .

ليل مدلهم ، يتعذر فيه كشف خبايا الحروب اللعينة ، لا مفك من

الشك في ليل الجبهات ، تنعدم الرؤية ، والمكان مؤهل لخلط الأوراق الحربية ، عدو وجد الليل ساحة مؤهلة لتحقيق انتصاراته ، بعد سلسلة مناوشات خائبة ، لم تتعد ضرب **أطراف** المدن ثم **أحشائها** بصواريخ بعيدة المدى ، ترويع الناس خيار سياسي ضاغط ومفتوح ، طريقة **شنيعة** لكنها مثلى لزعزعة بنيان الخصم ، الحرب خدعة ، الحرب **سلة** الانحطاط الأخلاقي للبشرية الملتهبة بجراثيم الطمع وفحولة الحيوان ، جنس موجود يشعر أن ذاته متفوق على ذوات الآخرين ، غالباً ما يأتي من خلف الكواليس البشرية ، صبيان **يولدون** في أحياء مستهلكة ، غير صالحة للمعيشة ، أولاد زنا ، يكبرون على جمرات الفزع والسرقة ، مثخنون بأوبئة ، يتأهلون ذاتياً لكسب **أوراق** المستقبل ، يتمردون على كل شيء ، تختارهم الظروف للوصول إلى مناصب سيادية ، يصبحون رؤساء ، يبدأون باحتفالات تمجيدية على رقاب شعوبهم ، يتصورون أنفسهم فلاسفة ، حكماء ، صانعو حياة ، يراهنون على **قولبة** الحسابات التليدة ، تاركين مساوئ الصفات تترجل علناً بين طبقات كل مجتمع (**غشيم**) .

ما بين الظن واليقين .

تناهى لسمع (ماهر) حركة غير طبيعية في ماء الجدول ، خال الأمر لا يعدو سوى مرور خنازير خائفة .

عمود شرخ الظلام ، فرك عينيه ، هيكل بشري أسود ، أحدث فزعاً في الطيور اللابدة .

تهيأ لقنصه ، (موحان) شدّ معصمه بعنف .

مرعوباً همس :

«طنطل .!»

تجمدت أوصاله ، تحرك العمود داخل الجدول المائي ، حتى ذاب في الحلكة المتخثرة .

قال :

«أكاد أزمع أنه غوّاص متسلل .»

«أوقعتني في الوهم مرة أخرى .»

«أي وهم ، ألم تره كيف كان يشق مسارب الجدول؟»

«نعم . . لكنه كان مجرد تهيؤ .»

«أتقول تهيؤ وأنت تعترف أنك رأيته .»

«لأنك زرعت الوهم مذ شعرت بوجود وقع خطوات وهمية تضرب صفحات مخك .»

«ظنّي لم يخب ، ثمة واقعة تنتظرنا!»

وضع (موحان) كفه على فم (ماهر) ، لم يرغب بإضافة كلام ، بدأت العيون تجتهد لشق مسارب الظلام ، فكر (ماهر) مشغول بما رأى ، وما سمع ، وما فرضه عقله من فرضيات متوقعة ، أشياء كثيرة تتوالد لحظات الصمت ، حين يكون المرء مبرمجاً لوقائع دموية مفتوحة ، أمام عدو قريب يفصلهما شط هادئ متواضع الماء ، بعدما كان عارماً بموجه والبواخر التي كانت تمخر عبابه ، لا شك أن الحرب تسبب تباينات غير طبيعية في بنى الثوابت ، المطر سنوات الحروب يرفض الهطول ، تهطل بدل الماء رفوف التعاسة ، المناخ يتبدل ، مناخ الخوف يتسيد ، تتجرد المواسم من صفاتها ، تتداخل في إنتاج توليفة مناخية هادمة ، يتخلى الشتاء عن قسوته ، قسوة الحكومة تطغى ، يستغل الصيف الموقف ، فيطيل من جلبابه ، يبقى الربيع في حالة لملمة أطرافه ، خشية المعركة المتواصلة ما بين شتاء يموت وصيف يتشدق .

تموت الأشجار واقفة ، وهي تنتظر **دموع** المعركة الحياتية ، كذلك الخريف ينام كونه كسولاً يائساً من قدره ، لم تعد الحروب تترك شيئاً نافعاً ، حتى أوراق الأشجار تقتلعها باكراً ، حياة مجردة من الرغبات ، هكذا البشر أيضاً أيام الحروب ، يلقون **أرديتهم** الحقيقية ، كل فرد يرتدي الحلّة التي تقيم حياته .

تحرك (موحان) ، ذهب إلى الجدول وعاد .

قال :

«أردت أن أنسف الظن فيّ وفيك .»

«لم فعلت هذا؟ أرجو أنك لم تسقط في حساباتك السريعة بخصوص القضيّة .»

«كلا . . فقط أردت أن أسحبك إلى أرض الواقع ، أنت حائر ، مشغول بوهم ركب رأسك .»

«عقلي في مكانه ، عيناي رأتا كل شيء بوضوح .»

«الإنسان مجبول بالسقوط في دائرة الوهم ، كثيرون أمثالك يتجولون في الأسواق والأزقة ، تراهم يحاورون الهواء ، يقومون بحركات جنونية ، حين تستطلع أفكارهم يحلفون بأغلظ الأيمان أنهم كانوا يرافقون الـ **جن** في حوار مشحون عن حقيقة البعث والنشور .»

«لكن الذي رأيناه كان جسداً آدمياً .»

«عدنا للوهم . . »

«حسناً . . لنحترس؟»

«دعنا من هذا الأمر ، حدثني عنها**!**»

«لم يعد الحديث عنها يشكل شيئاً أمام هذا الهاجس الذي يشغلني .»

«سأتركك لبعض الوقت لتبلور أفكارك على رحى اليقين ، لكن إيّاك أن تطيل علي الجواب .»

تحرك (موحان) بعيداً عنه ، ذهب وجلس على مبعدة ستين متراً ، في نقطة حراسة أخرى .

ربما كان على حق ، قد يكون الذي رأيته مجرد (طنطل) . (قال لسانه)

كائن خرافي يقبع في أغواره ، جدّته لأبيه زرعته في ذهنه ، أيام طفولته .

صمت يعيد حساباته ، مرهفاً السمع ، يحدق في شبح جدول الماء .

متأرجحاً ، ما بين قدرين قاتلين ، شك **يلح** ويقين **يتذبذب** .

فزع على يد لامسته ، أحد الجنود جاء يستلم نوبته .

صباح مكتئب جداً .

الصمت يتواصل ، صمت عجيب لنخيل توحشت سعفاتها ، بعدما ذهبت الأيدي الحالقة لها ، طيور لا تغني ، هي الحرب ممنوع التغني بالجمال ، إنها مذعورة تترقب الشظايا الطائرة ، ومروق الرصاصات العشوائية ، غناء آخر يهيمن ، دموي الكلمات ، حيواني الحماسة ، بدأ ينشر **خبثه** في تضاعيف الحياة ، أناشيد تغلق منافذ الذاكرة ، تحجم مساحة الرؤية ، بدأت تفرض نفسها كتحصيل حاصل لمجابهة رعب يستشري عبر ألسنة الناس .

رعب في الطبيعة .

رعب في استغراب الطيور .

هرج كبير أنهضه من نومه ، كان متكوراً داخل الملجأ ، **بسطاله** لم يتسن له سلخه ، جلس والنوم **يضاجع** عينيه .

قال :

«ماذا يجري؟»

(رسول) واقفاً . . صاح :

«إنهض . . رفيقنا – موحان – مقتول .»

قفز من فراشه ، صار وجهه بموازاة وجه (رسول) . . صاح :

«أنت تمزح أم أنه سرد لك مجمل القضيّة .»

«أية قضيّة؟»

«قضيّة الطنطل!»
«هل رأيته؟»
«نعم . . »
«تعال معي .»
رافقه .
صامتاً يمشي أمامه ، وجد سائق النقيب (طلال) دامع العينين ، عانقه **جاهشاً** بحرقة .
قال والعبرة تخنقه :
«قتل ابن عمّي – موحان – »
«ماذا جرى؟ أنا لم أفهم شيئاً من كلامكما .»
دخل (رسول) وخرج ، أشار بحنكه ، كان النقيب (طلال) جالساً في موضعه . . قال :
«اجلس؟»
جلس . . قال :
«حدثني بالتفصيل عن كل شيء؟»
قال (ماهر) كلامه ، هز النقيب رأسه . . قال :
«كان يجب أن تبلغني في الليل .»
«سيدي . . أمات يقيني ببروده .»
«كان من الممكن أن ينحرك أيضاً .»
خرج .
في الملجأ ، وجد (رسول) يحتسي الشاي .
قال (ماهر) :
«أنا لم أفهم القضيّة بعد .»

«على ما يبدو ، أنهم استخدموا الجدول ليتسللوا نحونا ، وتمكنوا من تحقيق غايتهم .»

«وكيف عرفت أن هذا حدث؟»

«ألم تره؟»

«أكاد أجزم أنني رأيته ، هو أيضاً رآه لكنه تراجع عن يقينه وراح يتهمني بالوهم .»

«كل إنسان يموت في يومه .»

شاركه شرب الشاي ، أعاد عليه القصّة كاملة ، قبل أن يقول :

«حقاً إنك – زرقاء الليالي – يا – ماهر – قرر آمر السريّة أن يجعلك ساهر الليل ، الشعراء أحاسيسهم مرهفة ، يرون الأشياء الثمينة المدفونة بين رفوف الظلم والظلام!»

مات (موحان)! (قال لسانه)

صديق رافقه من مركز التدريب ، تآلفا معاً ، وجده يفهمه أكثر من بين الجنود ، يشاركه حلمه الشعري ، امتلك رغبة صارخة لكسب ود فتاة جارة ، صبوراً رغم تمردها ، تحدث كثيراً عن أوقاته المصروفة من أجل كلمة تنطلق من لسانها ، كلمة ظلّت واقفة في المسافة الفاصلة بين لسانها وأذنيه .

دمعت عينا (ماهر) وهو يعيد مشهد الليل ، تحركت قوافل الكلمات المستفزة داخل معسكر أغواره ، تجحفلت ، بدأت الصولة بثبات ، برغبة ، برهبة ، لم يعد ملك نفسه ، ذاب في غبرة معركة ضارية ، تعالى رعد المدافع ، زلزلت الأرض ، خرجت ينابيع الألم جارفة روحه .

يد أنقذته من الهلاك .

«ماذا دهاك؟»

«آه . . فقدت زمام نفسي .»

«هيّا استحم ، أنت متعب يا – ماهر – »

أخذ برأيه .

في إجازته الدورية .
بعد استقبالٍ حافل رصدت أمّه حالة شروده .
قالت :
«لم هذا الشرود يا بني؟»
كررت سؤالها .
بعيداً بعد مشرق الشمس عن مغربها فكره يسبح ، يتعثر في بحر موحل ، يقتله هم كبير ، ما عادت الحياة تشكل هاجساً حيوياً بالنسبة له ، ما عادت الأحلام تلح على ذاكرته ، نبض قلبه يخبو يخمد ، يمشي ، يريد نهاية رحلة لم يخطط لها ، وجد نفسه عائداً ، رأسه ينفلق من **مضجة** التفكير .
جفل ، يدان تمسكانه .
تكلم :
«لم أعد أمتلك أيّ شيء .»
جواب لا يسكن خوفها ، ابنها في خطر ، ماذا دهاه ، **ذهب** أسداً **عاد** ضبعاً ، (ماهر) عنقود عنب وحيد ، تركه رجل دخل حياتها فجأة ، مات فجأة ، لم يرغب في الموت رغم فقر حاله ، محباً للحياة كان ، مركبة سريعة سرعة قرارات الحكومات البلشفية مرقت ، كان واقفاً ينتظر زميله ، مرضه القديم نهض من سباته ، خرجت المركبة من فلك الذوق والأخلاق ، عادوا به عجيناً ، لطمت نفسها ، مزقت ثيابها ،

نزفت كامل حزنها ، كان (ماهر) غارقاً في فراغ مهول ، ملجوماً ، مفقود الحواس ، وقف ينظر **حفلة** مأساة أمّه ، أفرغت ما فيها من مشاعر ، وتفرغت كاملة له .

حائرة تنظر . .

حائرٌ أنظر . .

عيناها في أعماقي

عيناي في أغوارها

لكن نظراتنا لا تلتقي

أنا في بحيرة حزني أغرق

هي تجتهد

لإنقاذ ولدها الشقي .!

***

(ماهر) في عالم غائم ، هي في عالم ضاج ، تبكي ، دموعها جداول غيرة ، تنحدر مياه مزججة عبر حفريات خديها ، يمد يديه ، يمسح الزلال الهابط ، تسحب رأسه ، تربت على كتفيه ، تتوقف عن البكاء .

«ماهر . . لا تقتلني .»

«أنا . . لم أعد أنا .»

فلسفة عميقة ، كلام غير وارد على سمعها ، (ماهر) ابنها ، بلحمه ودمه ، تعرف هذا ، وجهه ، جسده ، كل شيء فيه هو نفسه ، ماذا يهذي هذا الكائن المتمرد؟ تعرفه .

(ماهر) اخرس ، في عينيه يلمع بريق محنة ، في كلامه رعب واضح ، لا يملك وجهاً جريئاً كي يوضح الأمور ، لم يحن بعد أوان

الاعتراف وسكب ما في الصدور من غير استحياء ، هو ابن مجتمع يغرق في مستنقع الخجل ، لا يسمح بالتفوه بالأشياء المقدسة ، كل ما هو مخل بالشرف ، كل فعل يجرح **شجرة** الأخلاق ، تذبح الأرومة من الوريد إلى الوريد ، تنزل **عقال** رأس الديرة والعشيرة .

(ماهر) يحتاج لوقت أكثر ، يرغب أن يتأكد ، ربما **حالة** عرضية ، رغم ثقته الدائمة ، أن عوالم المرء الخفية لا تتعامل بعملة التريث ، كنزه ضاع لحظة ارتعش جسده لنور كبير مفاجئ ، باغته وسحب من عروقه شيئاً معلوماً ، لم يعد عالمه كما كان ، لم يعد يشعر بحرارة جوفه .

قالت :

«هل تشكو من شيء؟»

«لم أعد أهتم بالحياة .»

«لكننا اتفقنا على مستقبلك .»

«لم أعد أمتلك **مستقبلاً** في بلاد يحكمها قتلة .»

«كلامك خطير يا ولدي .»

«حقيقة واضحة كالشمس ، من العار الهروب من نيرانها .»

«لا تتكلم هكذا أمام أصدقائك .»

«يجب الاعتراف بالأخطاء في عالم يواصل الكذب علينا .»

«أنت مريض يا ولد .»

«لا لست مريضاً . . ما زلت أمتلك كامل عقلي .»

صمت .

دمعت عيناها .

النساء يبكين سراعاً ، قلوبهن رقيقة ، قلوب الرجال حجر ، من أين يأتين بماء **معسول** متراكم في أحداقهن ، كل شيء بات لا يشكل

عنده ومضة دهشة ، يريد معرفة الحقيقة ، يريد أن يعرف أين ولم ولد؟

أمّه أجابته ذات سؤال :

(بيتنا كان على الشط ، أبوك كان في المعسكر ، ولدت في الليل ، تألمت كثيراً قبل أن تأتي لتنير تلك الليلة ، أبوك ظلّ قلقاً علينا ، في معسكره سهر ، مع الفجر جاء ، جارتنا - أم سوادي - خرجت تشتري الفطور ، رأت أباك ، قالت له كل شيء ، عدل عن فكرته ، ذهب وانتظر في السوق ، اشترى لك - كاروكاً - جلب لنا - قيمراً و صمّوناً حاراً - جاء وفرح بك .)

تركها تغرق في بحر أحزانها ، حان موعد تبادل الرسائل .

صاحت وراءه :

«لا تتأخر ، لا تقل شيئاً لزملائك؟»

المكان معتم ، وقف ، عيناه تخترقان حجاباً أسود ، لا مصابيح ، النور في زمان الحروب أهداف مغرية ، إشارة تجسسية للعدو ، كلام يعاد عبر ألسنة حرّاس السلطة ، الوشاة لا يتركون جوانب الحياة الأخرى ، كل شيء يفسر لصالح الضد ، نظراتك عليك أن **تقتصدها** ، لا تنظر بعين جامدة ، عين تحمل أسئلة كثيرة وهي تحفر في وجوه رجال الحزب والجيش والأمن والشرطة .

من بين العتمة ينبثق شبحها يمشي ، لا أحد غيرها ، عيناها أحد من عينيه ، تدنو ، قلبه ينخلع يطير ، تقف .

«خالتي تسلّم عليك .»

لسانه مات ، لم يعد يرغب في مواصلة العيش ، العالم يرفضه ، استلمت رسالته ، استلم رسالتها ، عاد (ماهر) ، منكسراً ، مسلوب الوعي .

جلس يقرأ بعين شبه جامدة :

[ما عاد ليلي ليلاً ، قلبي ينخلع ، يسافر إليك ، لم أنت نائم ، لم لم أعد أراك كما كنت في أحلامي ، ما الذي أوقف ساعة العشق في سوح الحياة ، العالم وحش مفترس ، كل جميل كائن مرفوض ، أنت موجود في كل حرف في كل كتاب بين يدي ، مدرِّستي تشرح ، أنا عيني في كتاب يستحيل إلى ساحة حرب ، الجنود يصولون ، يطلقون الرصاص على بشر قادمين ، أنت تصوّب فوهة سلاحك نحو غزالة هاربة ، أنادي عليك ، أصرخ ، لا تطلق ، أصل إليك ، لم أنت دامع العينين ، لم لم تعد كما كنت ، شيء ما حصل ، مجهول ، مخيف ، غائم ، ليس بوسعي تشريح معالمه ، قل لي ، أرحني ، متعبة أبدو ، لم أنت لم تكن أنت ، لم هذا الغموض ، لم أعد أثير اهتمامك كما كنت ، قلبي دليلي ، قلب العاشقة مرآة تتجلى على زلالها انعكاسات الأحلام الصريحة ، لم تعذبني بصمتك ، بغيابك عن أحلامي ، قل الحقيقة ، قل أي شيء ، سأقتنع بأي كلام ، أريد توضيحاً عن غيابك الليلي عنّي ، يا ماهر .

صنعت بيتك في قلبي ، شيّدت صرح مستقبلنا ، لم تهجر مملكتك ، لا بد من انقلاب عاطفي حصل ، قل قبل أن أهيم مجنونة ، سأترك دراستي ، سأمشي إلى الجبال ، مجنونة أنا ، بت لا أحتمل هذا الخوف الذي

يكبر في .
قلبي يرتجف .
دمعي يتواصل .
يداي ترتجفان .
قل أي شيء يا ماهر
قبل أن أتكسر
قبل أن أجف] .

***

صباح مزجج بدموع الضباب ، هادئ هو العالم ، يجلس ، هارباً من البيت ، يحمل كتاباً شعرياً ، يريد أن يقرأ ، القراءة علاج .

لما لم تتركني (مها)؟ (قال لسانه)

كلماتها نار ، غابة يابسة هو ، شاب خرج ليقرأ في الجبال ، فكر أن يكتب لها ، قلمه تركه في البيت ، ربما ضاع منه لحظة ركض قليلاً ، كلاب متوحشة اعترضت طريقه ، لم تنفع حجارته معها ، ركض ، نجا منها ، أمام الوادي الكبير (كن قرمزي) بيوت طين متناثرة ، جلس ، نزف لهاثه ، امرأة خرجت ، جلست **تشخ** بولها ، لا تدري ، شاب يائس ، هرب من العالم ، جالس في زاوية حرجة ، يمتلك كامل الرؤية الواضحة ، رفعت ثوبها وقعدت تفرغ ماء جوفها وربما **خراءها** ، قامت ، لم يشعر بحماسة عاطفية ، نار أحشائه لم تلتهب .

لم أنا بالذات .؟ (قال لسانه)

صوته عبر الوادي ، هز الكائنات الجبلية المتخثرة من تعب الليل ، تحركت الحصا ، فر بوم لابد ، كلاب تنبح بوجهه ، واقفة ، بينه وبينها مسافة يأس مشترك ، **مسافة** حلم صغير تناثر .

ماذا يكتب لها ، كيف السبيل لإقناع فتاة تمردت على الواقع ، بنات الزقاق بدأن يحسدنها .

قالت (مها) ذات مرة :

«في عيونهن نار الغيرة متأججة .»

«لا تجعلي الوهم يسكن قلبك .» . . قال لها .

(مها) كل ما يقوله ، تفرش لكلامه قلبها ، لا تخرج من فلك قراراته العاطفية ، منحها في زمن قصير ، ثقة كاملة بنفسها ، صغيرة تعلمت ألف باء الحب عبر رسائله ، تستغرق كلّما تصلها رسالة عبر بريدهما اليدوي في عالم حالم ، تعلمت الصبر ، تعلمت الصدق .

قالت يوم نقلوه إلى الجبهة :

«خذني معك!»

«لو سمحوا بذلك لأسكنتك سويداء قلبي .»

«لا . . لا . . أريد أن أسكن بويضاء قلبك .»

ضحك .

«من الآن فصاعداً سأغير المفردة من أجلك .»

«لا تحرمني من فرصة الدفاع عنك!»

«وطناً زجوه في مستنقع موحل ، علينا أن ندافع عنه .»

«ليدافع العشّاق عن عشّاقهم ، وليدافع عديمو العاطفة عن تراب الوطن .»

«ليس هذا إنصافاً يا – مها – وطننا هو وجودنا .»

«لكنني أريد السكن معك أينما تقاتل ، أنت وطني يا –ماهر –»

«أنت معي ، ما أكتبه لك عطر حب دائم الضوع .»

لا يمتلك رغبة في القراءة ، ليس بوسعه الكتابة ، قلمه ليس مشكلة ، ذهنه يشرد ، العالم من حوله استيقظ ، لا أحد يدرك حجم مصيبته .

قام ، مسكوناً بخيبة يجرجر خطاه ، وصل الشارع ، عند دكان الحداد ، فتاة البريد اليدوي تقف حائرة ، تبحث بعينين سعيدتين ،

على ما يبدو أنها حرمت نفسها من لذة نوم الصباح ، واقفة تنتظر ، ماذا يقول لها ، لا . . لا . . لن يقول نسيت قلمي ، ماذا تقول لو قال لفتاة البريد نسيت قلمي؟ (مها) عاقلة وذكية ، ستقول عنه أشياء كثيرة ، ستقول : **غير مهتم بي!** ستقول : (ماهر) **لا يستحق اهتمامي!**

مشى . . نظرات الفتاة فيها **جمل** خائفة ، ربما (مها) حقنتها بكامل لهفتها ، جريئة هي الفتاة عندما تعمل من أجل الحب ، ربما لا تعي خطورة مهنتها ، لعبة بدائية ، كثيراً ما تفسر ضمن أطر اللا أخلاقيات الحديثة في بلدة متكاسلة ، (ماهر) يسميها متكاسلة ، لم تلق سربال ماضٍ رث ، تقاليد ناسها تتواصل في قاع **جهل** عتيد .

فتاة البريد تقدمت ، قالت من غير خوف :

«خالتي تنتظر المكتوب .»

«لم أكمله بعد!»

«ماذا أقول لها؟»

«عصراً . . »

ركضت البنت ، مشى وراءها ، عند رأس الزقاق ، لمح (مها) من شق الباب تنظر بعينين دامعتين ، لم ير دموعها ، لمح يدها تمسح أو تفرك عينيها ، فرحة فتاة عاشقة برؤية معشوقها ، واصل سيره ، يسير بتعثر ، بخوف ، بقلب لا يسكت ، بنفس كالحريق ، بشهيق متعسر .

قالت أمّه :

«ستهلك نفسك!»

«أفكر بالهروب!»

«يا ويلي ، الحكومة ستشنقك في الزقاق!»

«لا تخشي . . »

«كل يوم يشنقون مجموعة شبّان .»

«سأغادر البلاد .»

«سيشنقونني أنا .!»

«اذهبي إلى القرية؟»

دخل غرفته .

(مها) تنتظر ، ستقف فتاة البريد عصراً ، يجب كتابة شيء ، سحب قلماً ، كتب ، ماذا كتب ، لم يعرف ، كلمات هبطت كمطر في غير أوانه ، سكبها على بياض عالم يرتجف أو يجف ، لم يركن لهدوء ، فتح الرسالة ، قرأ ما كتب ، لم يجد وازعاً لتبديل الكلمات أو تصحيح ما وجدها منافية لما رغب تدوينه .

وجدي ما عاد يسكن قلمي
آه . .
من يمسك طيف مستقبلي
ويجرده من زحف الألم
عالمي . .
غدا مستودع حروف
تتشكل . .
خارج أحواض الحلم!

***

لغتي ساحة ندم
لهفتي شرارة سقم
حولي تهفو نظراتك

وأنا معطوب القلم!

***

الحرب تلتهم شعري
الصمت يلوي عنق دهري
آه . .
من يسلب من بريد الموت
رصاصة الرحمة
ويعيد لي بقية عمري!

***

بالأمس
قبل غياب الشمس
فقدت كامل أنفاسي
برق خطف من عندي كل الهمس
من أين آتي بلسان صريح
يسجر لنا
ليالي الأنس!

***

ما عاد كلامي أناشيد تبدد الظلام
في معسكر الحرب جملة أوهام
ترتدي حلّة الحقيقة
عندما أكون خارج الآلام
عندما يضيفني حبك في حفلة الوقت
يصطدم بكائن مفروغ الغرام

آخر الأنباء يحرره
بلبل الكلام
يا حب . . توقف
لم يعد لدينا بقايا أيّام!

***

وقتي ملغوم
موتي معلوم
أنا ولد مشئوم
مذ ضيفني البرق المسموم
مذ صيرني البرق مستودع هموم
صار شتائي الدائم بلا غيوم!

***

منفرداً لا شيء يشغله سوى تحديق شبه عقيم في سقف غرفته .

كيف عرفت (مها)؟ من أخبرها؟ لابد فتاة البريد تمتلك روحاً حريصة على أداء واجباتها ، إنها تندفع بلا تردد ، لتمتين الآصرة وشحن قوة الجذب ما بين الحبيبين ، فتاة صغيرة ، ناعمة ، عيناها واسعتان ، تمتلك صبر عاملة نحل ودأبها ، تتابع بلهفة ، تراقب ، تلملم أخباره .

قوة الوله عند اليافعات بلا حدود ، يمتلكن **شجاعة** الذباب ، يتلصصن ، يراقبن ، يحفظن دروس عواطفهن برغبة حياة خالدة .

طرقات خفيفة ، خالها (ماهر) نقرات **عصافير** تحد مناقيرها في خشب غرفته الطينية ، نهض ، كانت (مها) واقفة بكل شجاعتها ، فتحت ثغراً عذباً ، ثغراً حرث خديه بلظى حرائق لا تبارحه ، حبة كرز مفلوق ، بدقة ومهارة يرتسم ثغرها على وجه متحفز ، خلوص ، يتحول أوان الموعد إلى جمرة نار لحظة التقبيل ، ثغرها بئر سقتها بما في فيها من عذابات الشوق .

على الشفتين تحفزت جمل كشفت النقّاب عن جنسها ، صرّحت عيناها أنها كلمات تعنيف وعتاب .

دفعته . . وصلت سريره .

«لم جئت؟»

«هل تطردني؟»

«لم هذا الكلام يا مها ؟!»

نزل دمعها ، مطر قاسي دمع البنت ، وقف متفرجاً ، كائن فقد كل شيء ، ما عاد يمتلك روحاً قتالية ، حاول تهدئتها ، بكفين راجفتين مسح دموعها ، من خلال بقايا دموع شفيفة نظرت إليه ، جميلة تبدو الفتاة حين تبكي ، دموعها كلمات قلب ليس بخادع ، ربما مخدوع ، مفردات صادقة :

لمّا يعجز اللسان
عن توصيف الأحزان
تتكفل العينان
بإنقاذ الموقف التعبان!

***

بلعت (مها) ريقها . . قالت :

«لم تعد كما كنت .»

«هناك أشياء كثيرة في هذا العالم تخنقنا في أوقات معينة .»

«أنت تريد تركي!»

«أنا تركت نفسي!»

«لم تعذبني يا ماهر؟»

«أريد تحريرك من براثن صدمة قادمة .»

«لا تقل إن الحرب ستأخذك!»

«ليت ذلك لهان الأمر!»

«لا تقل إنك ستهرب!»

«ليت ذلك يحصل .»

«لا تقل وجدت واحدة أخرى .»

«لا . . لا . . يا – مها – ما أعانيه فوق كل كلام .»
صمت .
عيون تشتبك ، ثغران حائران ، تبادلا بضع قبلات سريعة ، شرهة (مها) في تلاحماتها الغرامية ، رغبت أن تذوب فيه ، أن تموت في لحظة حب .
(ماهر) ليس كما كان ، بارداً ، مستسلماً .
قالت :
«ماذا كتبت لي؟»
«لا شيء!»
«لم؟»
«لا أعرف . . »
«هناك ما يقلقني .»
«آه .كتبت شعراً .»
«كل ما تكتبه يهمني قراءته .»
«حسناً . . ما زال الضباب يغلف كلماتي .»
«لكن الضباب عمره قصير .»
«ثمت أشياء تخنق فرص سعادتنا .»
«أما أكفيك لتهزم هذا القلق من داخلك؟!»
«ليت القلق مشكلتي .»
«ماهر . . أنت تخيفني .»
«ما في ذهنك خارج مشكلتي .»
«قل أي شيء ، يمكنني أن أكون جنبك .»
«كل شيء سيتضح في حينه .»

«سأعيش قلقة .»
«حين أتأكد منه ، سأمتلك الشجاعة الكاملة لأعلنه عليك .»
عانقته وتبادلا قبلات ودموعاً .
خرجت .
فتح ورقتها . . قرأ :

[شعرك أخافني ، لابد أن أضع حداً لزرع بدأ ينمو بشكل غير مألوف ، هذا الهاجس دفعني أن أحمل رسالتي بيدي ، الحب مغامرة أليس كذلك؟ تمر . . تنظر إلي ، أعرف . . فكرك في مكان غير مريح ، أعرف مدى تأثير إحباطك الدراسي على نفسك ، قدر عابر ، لو نجح العالم كلّه في الدراسة لتوقفت حياتنا ، لماتت فكرة المثابرة والجهاد ، هل أنت خائف من هذه الحرب اللعينة ، الناس تقول ستنتهي على خير ، ستعود ، لا تستسلم يا – ماهر – سأنتظر قدومك ، سأسهر الليل ، كن معي ، لا تدع قلبك يستسلم لهواجسك الكابوسية ، الحب يغسل أفكارنا من رمال الخوف واليأس ، الحب مطهر ساحر ، قل ما الذي يعتريك ، هل دخولي عالمك أثار هذا الشرود الدائم فيك ، أم أن كلام الخبّازة أم – سليم – بدّل فكرك ، كنت تمر ، المرح كلّه يرافقك ، البنات ينظرن إليك ، كل واحدة تتخيل نفسها ، يدها بيدك ، جنباً لجنب تمشي معك ، خفت من كلامهن ، قررت أن أسبقهن ، جاءت الصدفة ، لا

تقتل هذا الحلم ، فكر بعقل لا يستسلم ، أنا في انتظار الصحو في ربوع عينيك ، اقرأ كلماتي بتمحيص ، لا تتعجل الكتابة ، ربما الشعر يخفق أحياناً في التعبير عن نبـضـات القلب ، قل كلـمـات بسـيطة ، كلـمـات تـريح أعـــصـــابي ، هيّـــا يا - مـــاهـر - قل أي شيء؟ أرجوووووووووووووووووووك]

❋❋❋

نشيد أوّل قصير

ما كان **لحناً** منسجماً .

كان ذلك في زمن ليس ببعيد ، قلب (ماهر) رجف ، فراغ كبير احتواه ، جعله يسهر لياليه ، يتسكع مع طلوع الفجر ، يمشي ، يبحث عن سر قلق سكن جسده ، نشد دواء يريح هلعه ، كل شيء وجده يخاصم ، الصباح ما زال متكاسلاً يتنفس ، قطط سائبة متناعسة ، كلاب متكاثرة تتجول جماعات ، فحق إعلان الثورة عليها ، دجاجات تتقاتل حول مزابل الأزقة وداخل مياه المجاري ، أصوات فتية تأتي من الأزقة البعيدة ، كسبة يرفعون أصواتهم ، راغبين في جذب الناس لشراء ما عندهم من فطور دسم (بيض عرب ، لبن جاموس ، حليب بقر ، زبد ، جبن ، قيمر ، صمّون حار) .

لم يجد ما يخمد غضب أحشائه .

انطلق . . حاملاً كتابه ، كتاباً شعرياً تحديداً ، وأوراقاً **تستوعب** أرقه ، تدغدغه **دودة** قصيدة .

ضج العالم بفرح مباغت ، ارتجت البلدة له ، فرح لم يفرحه ، ليس ثمت خلايا جاهزة لتفعيل ومضات السعادة فيه ، كل شيء فيه خاضع للتمرد .

كان فرح الناس يضج بإبر عميقاً تسافر فيه ، لم يحتمل خندق البيت ، فخرج ليتخلص من جراحاته .

الحرب لها شعرها الخاص ، لها لسان فصيح ، دست في جنبات البلاد **أوّل** فرح سياسي ، جاء بعد أيام قليلة من تناوشات حربية على الحدود ، بضع قنابل **جس** النبض ، نصفها انطلق من العدو ، نصفها انطلق لخرس العدو ، الناس خرجت حيرانه ، أترقص؟ أم ما الذي ينبغي أن تعمله ، تنتظر العيون الإيعاز الوطني ، كل شيء وفق **خارطة** طريق ، ليس بوسع المرء أن يفتي أو يبتكر بهجة في ظل حكومة (أوتوفردية) ، الحاكم وزبانيته يمتلكون العقل السليم ، لديهم حكمة وبراعة لتوفير مهرجانات من فنون الولاء ، خالية من أمراض الغرب ، العدو الدائم للشرق ، لا داعي للمواطن أن يشغل نفسه ، يميت الكثير من خلايا مخه ، ويصرف غالي وقته لاهثاً وراء أفكار جديدة يرفع بها كعب الحكومة ، لينم مرتاح المخ ، رجال الحكومة نذروا أنفسهم لخدمة السلطة ، ساهرون لحراسة الشعب ، سيتكفلون بتيسير **قاطرة المجتمع** على **شارع** الثورة بأمان .

(بيان رقم واحد) . . حرره المذيع ، ظلّ يعيده بحماسة وحمرة سحنة متفاعلة مع مضمون البيان ، لا أحد شك في رغبة المذيع ، حماسته وعياطه ، البعض تصور أنه سينقذف من الشاشة ليقع بين أحضان الناس قرباناً وأوّل المتفاعلين والمضحين من أجل النصر المؤزر .

جيش البلاد انتصر بإرادتهم ، بتصميم وعزيمة قائد (الجمع المؤمن) ، بحكمة حامل راية (الأيوبي صلاح الدين) الذي قهر الصليبيين في (بيت المقدس) وعالج عدوه من وعكته الصحيّة ، بفكر حفيد شرَّع أوّل قانون للبشرية (حمورابي) .

تصرخ شاشتا **تلفزة** البلاد ، يوم لم يكن يعلم المواطن الصبور ، في كل بلاد يمكنك سحب تلفزات العالم بأسره بصحن دوّار ، صحن

(الثريد) كما يحلو وصفه ، صحن يحوي كل أنواع الطعام متشابكة ، الخبز والرز والمرق واللحم ، كذلك (الصحن الدوار) يحتضن تلفزات العالم كلّها في جوفه .

تعج الموسيقى ، تنطلق الزغاريد ، ويبدأ الرقص **العام** على طول البلاد وعرضها .

ناس في كثير من المواقف لا تعرف لم تخرج ، مجرد **هوس** سلفي ينهض مع الجموع الحائرة ، العقل الفارغ في الجسم الفارغ ، تندمج وتسير مثل **قمامات** تلعب بها رياح عاصفة ، لا تعرف أين مستقرها ، تحليق جنوني قبل أن تكتشف نفسها خامدة من جديد ، فتنسى أحزانها وآلامها ، فلسفة حياتية مجربة في بلدان مثقلة بالفقر والبلادة وسياط **ساسة** محتالين .

مواكب بشرية تتقاطع ، ترفع رايات لا تعرف ما معنى ألوانها .

الـ أحمر . .
لون دمائها التي سالت عبر العصور
الـ أسود . .
لون حظهم المقرور
الـ أبيض . .
لون جيوبهم الفارغة على مدى الدهور
الـ أخضر . .
لون عمامات رؤوس أضاعت عليهم منبع النور . . !

***

ناس تصفق ، تطربك ، تعربد ، تهوّس .

(ماهر) . . شيء ما أنهض هوسه ، أخرجه على مضض ، كان مختنقاً على سريره ، يفكر بالشعر ، يفكر بفتاة حلم تأتي من عالم الخيال ، تثير فكره ، يفكر بطريقة توصله لحلمه .

شعر باختناق لا يطاق ، لم يعد يحتمل نفسه ، قام ، لم يرغب بـ **تضجيج** نفسه بجنون الناس .

قرب محل مرطبات ، لا شيء يفرحه سوى خروجه من كوابيس غرفته ، دائماً يجد الحرية مطلباً جسدياً ، تحديداً عندما يشعر بـ نار الشعر يتأجج ، حريّة المشي ، المراهقة يروضها الإرهاق ، أينما يقود العقل ، حيثما تأتي رائحة الفواكه المنتشرة ، نظرات تعطي القلب راحة ، يتلفت يمنة ، يسرة ، كل **فتاة** فاكهة ناضجة تسد جوعاً مهولاً .

تناول بعض المرطبات ، حرائق جوفه تنمو ، وقف يكتسب قسط راحة ، لاح منظر فتاة **تطرح** أنوثتها ، تتقدم بشيء من المراهقة الظامئة ، هكذا يقول منظرها ، تمشي بكثير من **دلال** مصطنع ، بأنوثة **جد** حالمة ، ببسمة تريد إعلان **جاهزية** الجسد للمغامرة الفراشية ، بقبول هبوب الأناشيد الخالدة كي تتجسد على ربوع مسارحها ، وجد قلبه يرتبك ، لسانه تحرك سريعاً ، لا وقت للخوف ، بعدما شبع ارتباكاً ، انتهت (الفتاة) من اقتناء حاجاتها ، همّت أن تبارح الدكان ، بلسان واثق همس :

«سآتي كل يوم إلى هنا .»

تلفتت ، لا تخاف الفتاة يوم **نشيدها** الأوّل ، ابتسامتها توسعت ، شملت عينيها ، حركاتها ، وربما العالم من حولها .

قالت :

«أنا أيضاً سآتي .»

جوع مفاجئ **دحرجه** نحو السوق ، أكل **نفرين** كباب ، الحب الأوّل يجوّع الجسد ، ينسيه **حجم** معدته ، **مدى** رغباته ، يخرجه من **قالبه** الواقعي ، في عالم **مفتوح** الشهية (يدعبله) .

في الليل .

النوم واقف في شبّاك غرفته ، ينتظر فرصة انقضاض ، صمد جسده ، كانت الفتاة مرتسمة بكامل أوصافها في الخيال ، خياله ظلّ يتذبذب ، تارة يلملم تفاصيل سحنتها ، تارة يتبع أشباحاً تشبهها ، يتيه بين الوجوه المتوامضة ، ينهض من فراشه ، يعود إليه ، لم يجد في الليل غير كواكب سيّارة تتقاطع ، أقمار تمتص المواقع الحيوية لبيعها إلى أعداء الثورة ، نجوم تواصل دلق ضيائها ، مرتاحة ، غير متأهبة لتمطر الشهب على أبالسة يبغون التلصص وسرقة تقاويم البشرية ، شياطين تنازلت عن فكرة الصعود لاستراق السمع ، وجدت أناساً خادمين لديدنهم فسكنوا فيهم مرتاحين .

فكر أن يذهب إليها ، هاجس لح ، قلبه نبض بالمغامرة .

لا يعرف كيف **سرقه** النوم .

كيف **هل** الفجر .

ضجيج ما زال يسكن رأسه .

قام . . شرب قدحي ماء ، لسانه متخشب ، جسده متيبس ، حاملاً أوراقاً وكتاباً خرج ، في الطرف الجنوبي من البلدة يقع زقاقها ، يحتاج (ماهر) لسير دؤوب ، وقلب متهيئ ، ولسان أعدّ وجبة كلمات دافئة :

من على سياج سطح البيت
تراقب الطريق

فجأة . .

شبَّ في جسدي حريق

قلب جاء أوان الضيق

صار لي

خير صديق!

****

لوّحت البنت ، **هارعة** هبطت ، وجدها سارحة الشعر ، لا تخاف ، كـأنه أصـبح في تلك اللحظة كل دنيـاها ، تقـدمت بدلال ، بنضج ، جسده يرتعش ، وقفت أمامه ، بسمتها غير متكلفة ، ثغرها يكافح ، كلام نافع وجميل يخجل أن يندلق ، واقف بـ باب الثغر ، «**ليت للثغر شبابيك وروازين ومنافذ تسريب الأبخرة والدخان**» فكرة أضحكته ، بحث عن تصريح ، عن أذن تستوعبه ، عرف (ماهر) أن بسمتها ثابتة ، لا تحتاج جهداً أو مكراً أنثوياً لصناعتها .

قالت :

«انتظرتك حتى منتصف الليل**!**»

وقف يبحث عن كلام يفيد أوّل **تناغيات** العشق ، تحجر لسانه ، شـاب مـسكين **ترعرع** في بيت دين ، في بيت طين ، لم يتـدرب على لقاء الحياة السريّة .

قالت أيضاً :

«تعال إلى هنا كل يوم كي أراك**!**»

وجد **ريح** شجاعة تمسح **أرق** المفاجأة . . قال :

«أخاف عليك ، بيتنا بعيد في الطرف الآخر من البلدة .»

«ومم تخاف . . ؟»

«من أهلك ، من رجال الحكومة .»

«أنا مدللة ، لا أحد يكسر خاطري .»

«أنت جميلة!»

«كلا . . أسمي – مهدية ـ»

«اسمك جميل .»

«وما اسمك . . ؟»

«ماهر . . »

«يا للصدفة ، أسمانا يبدءان بحرف الميم .»

«مصادفة جميلة .»

«أرجوك تعال دائماً ، سأنتظرك كل يوم على سطح البيت .»

«أعدك أنني سآتي كل يوم .»

ضحكت وركضت عائدة .

مشى (ماهر) عائداً .

روحه خفيفة ، جسده يرتفع ، ليس مع ضجيج السائرين تحت يافطات تحتفل بالنصر ، شيء ودود سكنه ، يدفعه بسعادة غامرة ، يكاد لا يصدق ، علاج أرقه الليلي ، الدبابيس الشاكة لمخه ، لم يأت من طبيب مختص أو صيدلية خافرة ، وليس من رقيّة أمّه أو تميمة من تمائم جدّه ، ولا خلطة أعشاب يبتكرها دجّال .

فتاة ، بريئة ، تملك قلباً عطوفاً ، تتجسد فيها مبادئ ثورة الجسد ، تتطاير من عينيها أيديولوجية السلام والرخاء والعطاء ، تمكنت من إخماد حريق لياليه .

غامضاً عينيه ، استرجع كلامها ، تشبع جسده بـ شهيق الحرية ، كائن جديد موفور الصحة ، حطم باب الغموض ، قطع سلاسل

الخوف ، عاد مترعاً بشجاعة نادرة ، يداعبه حلم كبير يدفعه لتحرير العالم من كسله .

وحين عدت
من ملعب السرور
وجدت ضحكاتها حول سريري
حلماً يدور
بين طيّات دفتر أشعاري خبأتها
فضج ليل البيت بتغريد شحرور
قالت أمّي :
- في عينيك يسكن
ملعب النور ،
قل لي . .
ما هذا الجذل الصادح فيك؟
ما هذا الورد المنثور؟
حائراً
أفقت . .
خائراً
سقطت . .
في بركة خوفي
من غير شعور .!

***

تعلم (ماهر) فن الحب .

تعلم كيف يفك **مغاليق** نظرات الفتيات ، كل تلك الحلول هبطت عليه فجأة ، (مهدية) أشعلت هذه النار ، حررته من **قيود** الغباء ، من كوابيس الليل ، من وهم الشعر ، من ضجيج أبالسة السأم ، وعنجهية زمن يتغامض ، صارت شمسه التي **تشرقه** بيوم الفرح ، شعره الضائع في فوضى العالم .

بدأ (ماهر) يعتني بمظهره ، أمام المرآة الوحيدة ، بحجم الكف ، كان والده يضعه على صفيحة زيت فارغة **ويطيح** بلحيته كلما نبتت بطول سنتمتر واحد ، اللحية في الجيش ممنوعة ، أنها زرع الشرع ، ونور الآخرة ، عكس لحيّة جدّه الثلجية ، المتهدلة كـ **حشيش** لم يمر عليها **منجل** القص .

صار يصرف وقتاً طويلاً ، يحدّق في نفسه ، مسامة مسامة يحرث بعينيه أديم سحنته ، يعيد غسل (كفشة) رأسه عدة مرات ، يفرك وجهه بصابون (عطور) كونه يعيد طراوة الوجه ونقاوتها من البثور ودمامل الدهون ، استلم تلك المعلومة من دعاية تلفازية تغري الناس بترك صوابين العالم وشراء صابون (عطور) ، صار يبدل قمصانه ، يجتهد لتنسيق مظهره ، رصدته أمّه . . قالت :

«الولد بدأ **يهتم** بنفسه**!**»

«يا أمي أصدقائي يعيبونني .»

«أنت أجملهم .»

«يجب أن أكون كذلك .»
تركها وخرج .
صاحت :
«تناول فطورك .»
«لا أشعر بالجوع .»
توجه صوب زقاقها .

لم يعد يرغب بمواصلة الدراسة ، كل شيء صار (مهدية) ، العالم ، حياته ، مستقبله ، حتى الحرب التي بدأت لم تعد تشكل سوى **قلامة** ظفر من أظفارها ، كل بلاد لن تشكل شيئاً يذكر أمام عاشقة ، تغدو البلاد **موطناً** هامشياً ، طالما الأنثى الموطن الأصيل للبشرية ، هي الحاملة والمنجبة والمرضع والمربية ، تحترق وتسهر ، تطبخ وتغسل وتكنس ، قبل أن يتم تحويل ملكية الأبناء بالكامل إلى ولي الأمر (**الكبش**) حاملين اسمه في كل محفل ، في الأوراق الثبوتية ، في (هويّة الأحوال المدنية) ، في (الشهادة الجنسية) ، في (الجوازات) ، في التنادي بين الناس ، (أبو فلان) و (أبو فلتانة) ، رغم علم الناس أنهم يخاطبون يوم القيامة بأسماء أمهاتهم ، في حياتنا الفانية كل واحد يعرف أبيه ، يخرج ليجد وجهاً بـ شارب يفرح بقدومه ، يتآلف معه ، يعلمونه كلمة (بابا) ، في (يوم التناد من مكان قريب) ، لا يعرف المرء ابن من هو ، فقط يعرف (**المخرج**) الذي قذفه خارج الرحم .

يقول العلم الحديث ، يتشكل الجنين من **مجامعة** أو من **ملامسة** أصابع المرأة في أسبوع اللقاح بذرة ذكورية ساقطة على فاكهة في دكان بقّال ، أو على ملابس في محل ، أو على مقعد في مركبة ، أو لحظات الاستحمام وهي تغسل ملابس ذكورية ، مدججة بالحيامن ، للإخوة

والأبناء ، وربما في فندق أو مستشفى ، نطفة فارة من جحيم الصلب ، تلتصق بإصبع امرأة ، تدفعها بجنون لتحك منطقة **الوطن** المؤقت ، إنها تفر من السجن بحثاً عن ملاذ آمن ، بحثاً عن الحرية المزعومة ، فتنمو وتغدو كائناً **واقعياً** يمتلك أباً **مشكوكاً** وأماً **معلومة** .

يمكن للمرء أن **يعيش** بلا بلاد ، في الغربة يجد الكثير سعادات لا تنقرض ، ولكن الصعوبة تكمن أن يعيش إنسان ما من غير نصفه الضائع ، الضلع المخلوع ، ممكن أن يهاجر المرء من بلاده ، وأينما يعيش لابد من أنثى تقيم له وطناً .

المصريون قالوا الحقيقة في جملة مفيدة ، حين تسأل مصرياً :

«فين بلدك؟»

واثقاً يرد :

(إللي فيها مراتي .»

الحب زمن الحروب نعمة تقهر كل **مفاصل** الخوف ، تعلم العاشق أفانين التخلص من شراسة القنابل ، من هاجس **عفونة** الواقع ، من برودة الموت .

(مهدية) نعمة جاءت في وقتها المحدد ، وطن مترجل ، يمكنه أن يحمله معه أينما تلقيه الأوامر ، دراسته بعد سنوات من الإخفاقات المتواصلة لم تعد تشكل مستقبلاً متواضعاً له ، لم يجد وازعاً يغريه أن يستوعب الدروس ، وجد خياله مدرسته القادمة ، دائماً ينفلت بشرود سعيد ، ليسكن عالماً متشرنقاً ، مكافحاً ينهمك لفك اشتباكات الأمور ، قريباً سيناديه الوطن ، إلى آتون المحرقة ، جندي مكلّف صغير ، سيكتشف بعد حين أن أشعاره باقة (**كلام فارغ**) ، لا تقيه من رصاصات العدو .

في الحرب يمكنه أن يتسلى بذكرياتها ، فالشعر **عدو** الحروب ، الشعر الهابط من رأس ثائر ، رغم أنه كان وسيلة تعزيمية لنفخ **رؤوس** الرعيان ليستأسدوا في حروبهم القبلية ، أو **توهيم** فتاة ناضجة فيها تستعر شهوة ورغبات ، لإسقاطها في بئر (الحدث الأكبر) ، هناك في الحرب ، ستتحول كلماته إلى سلاح رادع لا سلاح خادم .

حب (مهديّة) ساتر ، سيلوذ به ليقاوم **مطر** الموت القادم .

وصل زقاقها ، كانت الساعة تهدر في ذهنه ، ساعة الدخول إلى الصفوف ، لابد أنه غائب أيضاً ، مرة أخرى سيتم استدعاؤه إلى الإدارة ، ربما الاستدعاء الأخير ، سيجلسه (المدير) ، سيحاول فك عقدته النفسية ، سيرخي **حبل** حكمته شيئاً فشيئاً ، سيروِّض نفسه كما كان يروّض الكلمات لقولبتها ضمن قافية ملائمة ، رغم تكرار مثوله المتواصل أمامه ، لم يمل من محاولة فك **مغاليق** قلبه ، كان يدرك أنه يعاني من **هوس** الشعر ، لذلك كان يجعله بمثابة أحد أولاده ، كان المدير شاعراً متيماً بالشعر ، يتذوق القصيدة بحلاوة تذوق السكر ، يعطي الطلاب دروساً في فن العروض ، حصة دروس غير مقررة منهجياً ، كلّما توفرت دروس شاغرة ، يترك الإدارة ، متلهفاً **يلملم** الطلبة من الساحة ، يبدأ بقراءة قصائده ، ويطلب منهم قراءة بِراز أقلامهم .

في صباحات (الخميس) يقرأ (المدير) قصائده ، مشعلاً في قلب (ماهر) نار الغيرة لقول الشعر ، ظلّ ميّالاً له ، يواصل تطبيبه من **ملله** الدراسي ، راسماً له كل أنواع دروب المستقبل الزاهر .

[**مرة قال :**

«ماهر . . أنت شاعر ، لا يكتب الشعر إلاّ من اكتوى بنيران الحب .»

«أستاذ أنا لا أحب .!»

«ليس بالضرورة أن تكون مرتبطاً بواحدة ، أنا لا أحاسبك ، بل أريد منك أن تكون ماهراً في دروسك كما أنت ماهر في الشعر يا – ماهر – »

«أستاذ لا أعرف ما السبب ، أنا أكره الدراسة .»

«ستموت لو فكرت بهكذا طريقة في الحياة ، مثلما تموت السمكة حين تخرج من الماء ، الشاعر سمكة ، المدرسة ماء .!»

«ما العمل؟»

«يمكنني أن أساعدك في أي شيء .»

«طلبي الوحيد منك أن تتركني أستاذ .»

لم يرصد فيه مللاً ، كان يرمقه بنظرات حنونة ، أحياناً يجده ناحتاً بصره فيه ، من غير أن يشعر أنه يبتسم له ، ظلّت فكرة ترك المدرسة تنمو ، حتى وجد فرصته الخالعة] .

ها إنني أتغيب مرة أخرى .! (قال لسانه)

خائفاً يمشي ، عيون الناس لا ترحم ، وجد الصباح ساحة ملغومة بالصمت ، من بعيد لمح سطح البيت ، لم يجد (مهدية) ، انقبض قلبه ، سواد **لوّث** لون العالم ، حاول أن يكون أكثر تماسكاً ، مشى ، قدمه تضرب قدمه ، وقف عند الدكان ، كانت خلفه المركبات تمرق بـ **مضجة** ، أعلام البلاد تصفق فوقها ، تحرر عبر مضخمات الصوت أناشيد صاخبة ، لم يحتمل فوضى **الدجل** المستشري بين الكثير من الناس ، فكر أن يعود ، قبل أن تفاجئه قادمة نحوه .

مبتسمة تمشي (مهدية) ، كان هو يرتجف . . قالت :

«توقعت مجيئك .»

«فكري مشغول بك .»

بسمة (موناليزية) ترتسم على ثغرها ، قلبه ينبض كـ **ماكينة** طحن الحبوب .

قالت :

«تعال وراءي .»

تبعها .

تمشي بهدوء ، جسدها يتمايل كغصن تحت رحمة نسمة عذبة ، يتلفت (ماهر) ما زال الخوف يرافقه ، وصلا زقاقاً خالياً ، اخترقت ممراً شائكاً من القصب وأغصان الصفصاف المتهدلة ، وقفت تنتظره ، بغريزة لا تخطىء عرف نيتها ، صار معها ، فجأة طوقته ، يدان لا ترحمان التفتا **حول** عنقه ، لم يبد عدوانية أو شيئاً من التمرد ، استسلم لعنادها ، أمطرته تقبيلاً ، شعر بشيء من الشجاعة ، شاركها فرحها ، قبل أن تنسحب لتستغرق في بكاء صائت ، لم يمتلك حيلة لوقف بكائها ، احتضنها وأمطر وجنتيها بقبلات نهمة ، قبل أن تدفعه بيد ويد تمسح دموعها .

قالت :

«ما العمل يا – ماهر – أرجوك ساعدني!»

«ما الذي حدث يا – مهدية –؟»

«خطبوني .»

«لا . . لا . . أنت تمزحين يا – مهدية ـ»

«كلا . . ليلة البارحة ظهر لنا عم من – **المريخ** – يريدني زوجة لابنه .»

«سأهرب بك إلى آخر الدنيا .»

«أنا جاهزة يا – ماهر – خذني قبل أن أموت أو أحرق نفسي .»
«أرجوك يا – مهدية – حاولي أن ترفضيه .»
«ما العمل . . ؟»
«حاولي أن ترفضيه ، ألست مدللة البيت؟!»
«لم تنفعني دلالي .»
«ارفضي .»
«لن أستطيع .»
«وما العمل؟»
«لم لا نهرب؟»
«أين نذهب ، البلاد كلها ستغدو ساحة حرب ، سور البلاد مقفلة بالجنود .»
«ألست كوردياً؟ لنهرب إلى الشمال .»
«الشوارع صارت مكهربة بالأسلحة .»
«وما العمل؟ أنا أحبك يا ماهر .!»
صمت .

وقفا لبضع دقائق أُخَرْ قبل أن تنسحب ، رآها مطأطئة الرأس ، حائراً ينظر إليها ، مكتوف اليدين ، لسانه لم يعد يقتنص الكلمات المناسبة ، عيناه ظلّتا **عدستين** بلا روح ، جوفه يتفاعل ، أحشاؤه تصرخ :

اللعنة على العالم كلّه ، شرقه وغربه ، شماله وجنوبه . (قال لسانه)

مشت بضع خطوات ، استدارت ، رأى **دموع** العالم كلّه متوقفة تنتظر تصريحاً من لسانه كي يندلق أو **يتحجر** ، فقد توازنه ، تضببت عيناه ، استدار وهرب .

في غرفته تحطم سد ذاته .
لم يجد مسوغاً لمواصلة البحث عنها ، قالت **صريح** كلامها ، صارت خارج **أفلاكه** العاطفية .
حب وامض ، أغنية سريعة نضجت ، سريعة رحلت .

نطقت في السكون
همسة رحلت وتركت فيَّ الجنون
حرب خبيثة قذفت من عالم المريخ عم مدفون
جاء يأخذ قمري الحنون
ما عاد النوم يصالح عيوني
تحجرت جفوني
يا زمن يا ملعون
قلبي محزون
ما قيمة كفاحي الحرون
بعدما فقدت في أوّل الدربِ
بنفسجي المكنون!

***

أعددت لها أجمل الألحان
حجزت لها منابع النور
يوم المهرجان
أماتت في المآسي والأشجان
تهيأ القلب لدحر عربة أحزاني
مذ تعاشق وجدانها بوجداني

في أول الامتحان
سقط الحلم
وتوقف نشيد الزمان!

***

ما بين نومي وسهري
خاصمني قدري
بعدما رحل عمري
سأحفر بمعول الشعر قبري
هكذا قرّ أمري!

***

فعل اليأس فعلته .

بدد الكثير من مشاريعه ، بدد أحلامه ، لم يعد يشعر بـ نار في جوفه ، أين مضت حرارة الرغبة ، نار الشعر ، كل شيء من حوله هامد ، خال القضيّة وعكة **إحباط** مؤقت للمشاعر ، شيء من هذا القبيل يلح في محاولة فرض الهيمنة على جوارحه ، وجد نفسه **ملجومة** بقوة خفيّة ، لم يتخذ ما يناسبه من إجراء يعيد صحوته ، أعدمت من باله فكرة الخروج من الحياة بطريقة ما .

ملازماً البيت .

يصرف دقائق الإجازة بالتحديق المتواصل في سقف الغرفة ، أمّه خارج البيت ، سمع طرقات ناعمة على الباب ، في البدء خال إحدى الجارات جاءت تريد الخلوة بأمّه في جلسات مسائية لا تنتهي ، طرق خارجي تحول إلى طرق داخلي ، نقرات ناعمة مثل مطر نيسان على سقف بيت طيني ، هكذا تناغمت الموسيقى مع وجيب القلب ، قام وتحرى ، كانت **فتاة** البريد واقفة بلهفة وخوف ، **تعصر** ورقة بين أناملها الناعمة ، سمح لها الدخول ، وجد السماء تمطر ، كانت مبللة الثياب ، وجهها يلمع بقطرات الماء .

قالت :

«خالتي تسلّم عليك .»

كلام ناعم ، صوت موسيقى هادئة ، وجد أغواره تردد صدى

الصوت ، جارفاً تراكمات السأم المتراكم فوق قلبه .

قال :

«كيف هي؟»

«بخير ، تقول سأنتظره في الليل .»

«لكنني أشعر بوعكة صحيَّة .»

«تريد أن تراك ولها كلام كثير .»

«حسناً سأكون عندها في الموعد المضبوط .»

«الساعة العاشرة تنتظرك .»

خرجت بهدوء ، رافقها حتى الباب الخارجي ، عاد يقرأ كلام (مها) .

[يا - ماهر - حائرة أنا ، أكاد أختنق ، الدنيا تخاصمني ، الأم تحاصرني ، هناك مصيبة كبيرة تدنو مني ، أرجوك جد لي حلاً سريعاً ، الكلام كثير ، في الليل سأنتظرك ، يجب أن تأتي ، أرجوك من أجلي فقط تعال ، أشعر أن هناك حبالاً تمتد حول رقبتي ، أكاد أن أموت يا - ماهر - لم أنت تتصرف بهذا البرود معي ، لم أشعر أنك فقدت مهارتك في الحب ، كنت قمراً ساطعاً ، من أي الأفلاك زحف هذا الخسوف المرعب ليحجم حبك عني ، ها أنا أبعث رسائلي إليك وأنت تتمرد ، قل لي هل طفت على سطح ذهنك مهاترات أم - سليم - ألم أقل لك لا صحة لكلامها ، هل وجدت من هي أجمل مني ، لم تتمرد ، لم لم تقل

لي شيئاً ، حتى نظراتك لم تعد فيها حرائق الشهوة ، ثق يا - ماهر - هذه الرسالة أنا أكتبها ، لا أحد يعرف بها كما اتفقنا ، لن أدع واحدة تقرأ كلماتك ولن أسمح لواحدة تكتب لي رسالة لك ، أنت علمتني الحب والكتابة وربما سأفاجئك بقصيدة من بنات أفكاري ، علمتني الحياة والمستقبل ، لا تدعني شجرة من غير ماء ، أنت كل شيء بالنسبة لي ، فقط تعال ، هذه الليلة لدي كلام كثير ، وخطير أيضاً . . نعم يا - ماهر - خطير ، فالحياة عربة واقفة في محطة الليلة ، إن لم تأتِ ربما ستمضي العربة نحو الظلام . . تعال أرجوك يا - ماهر-]

***

طوى الورقة .

كانت مبللة ، بدأ شهيقه يضيق ، لم يعد يتنفس بحرية كما كان ، (مها) في خطر ، ربما شعروا بحبها له ، ربما وشاية ما وصلت إلى أخوالها ، كل شيء وارد طالما الحب جريمة في بلدة (جلبلاء) ، رغم تحمسه لها ، لم يجد حماسته المعهودة ، قرار يلح ، يجبره أن يتخذ موقفاً حاسماً .

دخلت أمه .

قالت :

«يبدو أن هذه المصيبة لن تتركك .»

«أية مصيبة يا أمّي؟»

«وهل لدينا في الزقاق مصيبة غيرها؟!»

«يا أمّي دعِ البنت لحالها .»

«تريد توريطَنا بمصيبة .»

«أنا أعي نفسي .»

«وما كان وراءها؟»

«من؟»

«الطفلة . . »

صمت .

لم يرغب أن يكذب عليها .

أردفت :

«خرجت من البيت .»

«من قال هذا؟»

«نساء الزقاق!»

صمت .

قلب نفسه في الفراش وراح يتظاهر بالتعب والنعاس .

ليلٌ مبللٌ بالرطوبة .

كلصٍ محترف يبحث عن فرصة مناسبة لتحقيق سرقته ، الزقاق **متجمد** بالصمت ورذاذ المطر ، بقي يلوذ بجدار كي لا يعطي **فرصة** فضيحة لمستطرق أو لعينين تستطلعان الخارج من خلال نافذة ما ، كانت الدقائق تمضي وقلبه يشتد في نبضه ، مختنقاً يراقب رأس (مها) ، وربما المصباح الموجود فوق الباب ، كانت دائماً تنيره ليالي الغرام ، كان منطفئاً ، رآها **تبرق** إشارتها ، لحظة دخل وراءها ، وهي **غاطسة** في لهفتها ، عانقته بحرارة وبادلها ببرود .

همست :

«ماهر . . أنت تقتلني!»

«لكنني معك .»

«لم أنت غاضب؟»

«ومن قال هذا الكلام؟»

«لم تعد كما كنت .»

«حالتي صعبة يا – مها –»

«أ . . مكانك خطر؟»

«لا توجد رقعة آمنة في بلاد تحارب **نفسها** وجاراتها .»

«أرجوك اهتم بنفسك ، لا تخرج من موضعك .»

«ليست الحكاية حكاية موضع يا – مها-»

«ماهر . . لدي كلام غير مريح .»

«وما هو؟»

«هناك من يطلبني زوجة!»

«وما هو رأيك؟»

«نهرب!»

«أريد رأيك؟»

«لنهرب إلى مكان ما .»

«وهل وافقت على ذلك؟»

«أولاد خالي شرسو الطباع ، ليس بوسعي التفوه بكلام في حضرتهم .»

«وما العمل؟»

«نهرب .»

«لكن الهرب ليس حلاً دائماً .»

«وما العمل .؟»

«تحججي بالدراسة .»

«أهل القرية لا يؤمنون بالمدرسة .»

«هذه مصيبة تضاف إلى مصيبتي يا – مها-»

«وهل أجبروك على الزواج من قريبة؟»

«أي زواج يا – مها –»

«وما هي مصيبتك؟»

«ليتك تعرفين أي مصيبة تنتظرني!»

صمت .

ينظر إلى عينين غارقتين في بركتي دموع ، وجه يلمع تحت وهج

المصباحِ ، وجدها تخنق موجة بكاء يكاد أن ينطلق ، عانقها وراح **مثلوجاً** يمطر وجنتيها بقبلات لا معنى لها ، وجدها تسترخي ، تريد التحليق في سماوات الحلم والرغبة .

قال :

«لا يجب أن لا توافقي على ذلك .»

«أمّي وراء هذا الزواج .»

«وهل تريد التخلص منك؟»

«سمعت بقصتنا .!»

«ماذا؟»

«أم – سليم – باحت لها بكل شيء .»

«مصيبة . . »

«أقنعتها بعدم وجود صحة للموضوع .»

«وماذا قالت؟»

«قالت إنها كانت تشعر بذلك منذ فترة ، وكانت تراقبك وأنت تمطرني بنظراتك كلما تمر .»

«وما العمل ، ليس بوسعي المرور من هنا مرة أخرى .»

«ستبعدني عنك بالزواج .»

تعطــل الكلام ، استكملا بقية الليل بالحب ، هي بحرائقها ، هو بـ **ثلج** متوالد فيه .

حاول أن يشعرها بمشاعر ملتهبة تسكنه .

كان **عزاء** مضبباً ، جهداً مهدوراً ، للحيلولة دون اكتشاف مصيبته .

نشيد آخر

أيضاً يبدأ اسمها بحرف الميم . (قال لسانه)

(ماجدة) لعبة قدرية أم مصادفة جمالية ، صغيرة رغم جسدها المترع بالعافية ، سمراء تمتلك عينين واسعتين ، قصيرة مربوعة الجسد ، لها جرأة نادرة عند فتيات من عمرها ، كانت تمر بالقرب منه ، دائماً تمر من غير أن تحرك ذاته ، أو تمنحه نظرة **فيها** معنى .

كعنكبوت محنك حاكت خيوط غزلها حوله .

في صباح ضبابي ، بكر بالخروج ، وجدها تدنو .

قالت :

«صباح الضباب يا ماهر .»

لم يجبها ، كان الخوف **واقفاً** يخنقه ، وجدها تقف من غير تردد ، رغم أنها تسكن في الزقاق المقابل لزقاقه ، فتاة معروفة ، شباب من أزقة مختلفة يمرون من زقاقها ، شم منهم رائحة **شهوات** مفضوحة .

أردفت :

«يبدو أننا لا نستحق سلام الحلوين .»

لم يجد وازعاً لجوابها ، خشية أن تأتي (مها) وتضبطهما بـ جرم الغرام .

واصلت كلامها :

«لا يهم . . خذ هذه الورقة لك .؟سأنتظر جوابك ظهراً .»
ألقت ورقتها ومضت .

لم يجد رغم الضباب شجاعة لالتقاطها ، فكر أن يلتقطها ويفحصها ، في تلك اللحظة لم يكن يعرف أن بوسع القلب أن **يحشر** فتاتين فيه ، لو كان متعافياً ، والجسد يمتلك كامل حرارته ، لربما سحقها داخل **مستنقع** رغباته ،

لم يتواصل تفكيره طويلاً ، رأى (مها) تشق رفوف الضباب ، اقتربت . . قالت :

«صباح الضباب .»
«صباح الوضوح يا – مها-»
«كتبت لك رسالة .»
لم تلقها .

تناولها ، مست أنامله كفها ، مضت من غير أن ترى الورقة الساقطة قرب قدميها .

ماذا لو رأتها ورفعتها؟ (قال لسانه)

رفع (ماهر) الورقة خوفاً من ورود اسمه فيها ، سريعاً عاد إلى غرفته .

قالت أمّه :
«أين الصمّون؟»
«آه . . نسيت يا أمّي .»
«يبدو أن هذه المصيبة أكلت رأسك .»
«حالاً سأذهب وأجلب لك الصمّون .»
«كلا لدينا ما يكفينا فطورنا .»

تناولا الفطور .

رغبة ملحة شحنته لقراءة ورقة (ماجدة) ، هاجس لحوح دفعه إلى تأجيل ورقة (مها) ، انهمك يقرأ :

[آه يا حلو . . ليتك تعرف كم أهواك ، ليتك تعرف كم أذوب في هواك ، ليتك تعرف أنت القلم الذي أخط به كلمات قلبي على بياض ورق يشبه صفحتي وجنتيك ، متى تدرك مصيبتي يا - ماهر - لم أنت تقف هكذا من غير بسمة تحلقني في سماوات الحلم ، عرفت أنك شاعر ، والشاعر لا يعيش ولا يكتب من غير ملهمة تمده بفيض الكلمات ، أما يتغزل الشعراء بالسمراوات ، المطربون يحوكون كلمات أغنياتهم حول الفتاة السمراء ، أين أنت من سماري ، أرجوك أنا صريحة معك ، لم أعرف الحب إلاّ حين رأيتك ، أنتظر ردك في القريب العاجل . . يا ماهر . . يا حلو . . ماجدة المعذبة . . تهواك] .

***

مصدوماً ، يرتجف ، حب آخر مباغت يداهمه ، لم يعد يرغب في قراءة رسالة (مها) ، لم يتمالك نفسه ، وقف حائراً ، أن يكتب شيئاً لها ، أو يتركها تجنباً لمصيبة متوقعة ، فقد تماسكه وانطلق خارجاً إلى البلدة ، مر بالسوق وعاد ، فاقداً هدوءه ، سقط في بئر الحيرة ، قلق ينمو فيه ، يرافقه خوف واضح .

(مها) و (ماجدة) طالبتان في صف واحد ، زميلتان ، لابد أن واحدة ستقول للأخرى :

«ذاك حبيبي ينتظرني .»

ماذا يحصل لحظتها ، ستكشف الأخرى أوراق قلبها ، الغيرة والرغبة موجودتان في استحواذ الأشياء الجميلة عند كل مراهقة .

وقف يسترد اللحظة ، الضباب يتناثر أمام صفعات الشمس ، من بعيد وجد (ماجدة) تمشي ، وصلت قربه ، وقفت من غير خوف ، مركبات تمرق وتطلق منبهات مقصودة ، تحرر كلام من فم سائق :

«ألعب بيها يا بو – سميرة ـ»

ظلت واقفة تحدق بعناد .

قال :

«ماذا تريدين؟»

«قلبك!»

«مشغول . . »

«أعرف .»

«تعرفين!»

« (مها . . لن تفيدك يا – ماهر –»

«ماذا تعنين؟»

«أن تحبني .»

«و . . مها!»

«لن تنالها ، أنا أعرف أخوالها ، يكرهون الأكراد .»

«أنت تهرفين .»

«أنا أقول الحقيقة .»

«أرجوك واصلي سيرك .»

«ليس قبل أن ترتبط معي .»

«بماذا أرتبط .»
«بحبل الحب .»
«حسناً أنا معجبة بك .»
«هذا كلام عابر لا يكفي .»
«ماجدة . . ستورطيننا بمشكلة .»
«أنت لا تعرفني جيداً ، لن أبرح هذا المكان ما لم تحقق رغبتي .»
«وما هي رغبتك .؟»
«أن تعلن بصراحة حبك لي .»
«لكنني لا أشعر بالحب .»
«ماهر . . قل كلامك كي أرتاح؟»
«حسناً . . أنا أحبك .»
«سأنتظرك في الليل .»

اندفعت تهرب كغزالة ارتوت من ماء ينبوع بعد ظمأ شاق ، زاد شهيقه ، شعر بتمرد جسده وانفلاق خياله ، لم يعد يرغب بالوقوف ، خشي أن تشم (مها) رائحة **خيانة** عظمى ، جرت على مرأى الناس ، عاد إلى البيت يتفكك ويتلاشى ، شرق يغريه وغرب يغتصبه ، ما بين الفتاتين صار سفينة بلا ربّان ، تارة يميل فرحاً وتارة تجذبه رائحة فضيحة ، هاجس ما بدأ يغريه ، أن يقيم مملكة أخرى للحب ، ربما (ماجدة) جاءت في اللحظة الحاسمة لتطبيب جرحه ، ربما كانت أمّه على حق يوم قالت له : «أشعر أن هناك من عمل لك عمل سوء .» ، ربما كلامها صحيح ، لابد أن (مها) فعلت شيئاً بمساعدة أم (سليم) انتقاماً ، شعر أن قلبه كبير **يسع** منازل أخرى للشعر والعاطفة ، بدأ ينفتح على جوانب أخرى خفية ، لكن ليتأكد من نفسه ، ما زال يشعر

بفقدان حرارته ، ما زال دبيب الموت يسري عبر عروقه ، حتى تلك اللحظة كان على يقين أن كل أنثى خلقت لذكر واحد ، كذلك الذكر خلق لأنثى واحدة ، لكن ما الذي جعل قلبه ، أن يفتح باباً جديداً لفتاة سمرتها مصباح ألقها ، جرأتها ، جسدها .

سارت به سفينة الرغبة إلى شاطئ راحة ، كتعويض عن تحديات المستقبل ، تذكر قول والده حول بناء المنازل .

البيت الأوّل كان (مهدية) .

البيت الثاني (مها) .

ها هو وجد البيت الأخير (ماجدة) .

بعدما امتثل أخوال (مها) كقطاع طرق أمام قافلة مراهقته .

جاء الليل .

ورقة (مها) مطوية ، من باب الفضول رغب أن يتفحصها ، طغيان (ماجدة) قفل أبواب الحلم بوجهه ، تركه سجيناً ينشد منفذاً للرحمة .

قرأ :

[بدأت أخاف عليك يا - ماهر - لا أعرف ثمة كوابيس بدأت تطاردني في يقظتي ، يوم أمس فتاة زميلة ذكرت اسمك أمامي ، كنت واقفة بين زميلاتي ، كانت تلك الفتاة الجريئة تردد اسمك ، كانت تنظر إلي بشكل ساخر ، لم أحتمل كلامها ، وجدت فرصة ملائمة وسألتها عن سبب ترديد اسمك أمامي ، لم تتهرب ، قالت بكل صراحة إنها تعرف بعلاقتي معك ، توسلت إليها أن تكتم ذلك .

أرجوك يا - ماهر - غيّر مكان وقوفك ، لا تدعها

ترصدنا ، لنتفق على مكان آخر ، اختر أنت المكان ، أو نغير ساعة الوقوف . . ماهر – مها – ك تتعذب]

***

كل شيء يتضح ، لابد الأيّام ستأتي بردود أفعال متضادة ، المراهقات لا يمتلكن حكمة في أمور قلوبهن ، يفقدن صوابهن من غير الشعور بالنتائج اللاحقة ، وجد الرغبة في تسوية الأمر بينهن مطلباً متوازناً ، بحث عن فرصة مناسبة لـ **يخلو** بـ (ماجدة) .

مع كثافة الظلام وجدها تطل برأسها من النافذة ، رأته واندفعت تستقبله ، لم يشعر بالخوف ، (ماجدة) وحيدة امرأة مات زوجها **موتاً** غامضاً ، قيل تناول طعاماً مسموماً ، وقيل إن امرأته أطعمته طعاماً بائتاً ، والبعض راح يقول إن أبا (ماجدة) كان يشكو من سرطان مزمن .

صارا في الحمّام .

كانت تخرج وتعود لتطمئن على الموقف .

قالت :

«أمّي نائمة .»

«لم تتصرفين هكذا يا – ماجدة –؟»

«ألا أستحق حبك؟»

«أنت حقاً جديرة بالحب .»

«لكنك لا تحبني من كل قلبك .»

«ولم أنا هنا؟»

«ربما خفت من كلامي .»

«لم أعد أتذكر ماذا قلت .»

«تكذب . . »

صمت .

فكر بطريقة ممكنة توصله إليها ، كانت تلهث محترقة ، أنفاسها **موسيقى** مضطربة ، كان هو الآخر قالب ثلج يموع ، يكاد يشعر بضغط دم يتململ و يتجلد في عروقه ، تشجع أن يمسك يدها ، سحبت نفسها بعيداً ، كان في عمق الحمّام ، صارت هي جالسة في الباب .

«لم تهربين مني؟»

«أنك لا تحبني .»

«لكنني جئت من أجلك .»

«عندما تقطع علاقتك بـ – مها – أصدقك .»

«ماجدة أنت جميلة وسمراء ، أنت أجمل طالبة في – جلبلاء–»

«تكذب . . »

«صدقيني . . »

«سأصدقك لو نفذت لي طلباً .»

«سأنفذ لك طلبات الدنيا كلها .»

«تكذب . . »

«صدقيني أنا حاضر لما تطلبين .»

«حسناً يوم غد ترافقني للمدرسة .»

«ماذا؟»

«هذا شرطي الوحيد!»

«أنت تقولين كلاماً لا يحصل إلاّ في الحلم .»

«هذا شرطي الوحيد كي أصدقك .»

«ولكن هذا يقود إلى **اعتقالنا** من قبل رجال الأمن .»

«وما علاقة رجال الأمن بالحب .»

«أما تسمعين أن الحكومة تعتقل كل فتى وفتاة في لحظة لقاء عاطفي .»

«لكننا نمشي على الشارع العام إلى المدرسة .»

«طلبك صعب ، أنا أخاف من كلام الناس يا – ماجدة.»

«إذاً جئت تلعب معي .»

«ومن قال أنني أرغب في اللعب .»

«لم أمسكت يدي؟»

«لن أكرر هذا حتى تثقين بي .»

صمت .

لاح الخروج أسلم ، قبل أن تنهض أمها ويحصل مكروه ، قام ، قامت ووقفت بالباب .

قال :

«علي الذهاب .»

«لن أدعك .»

«ماجدة . . دعيني أذهب طالما تتصرفين معي بطريقة لا تليق بالحب .»

«قل لي هل تحبني؟»

«**نعم!**»

«حسناً . . أجلس؟»

جلس .

سحبت الباب ، سمع صرير **القفل** من الخارج ، دهمه إحساس أنها خبأت مكروهاً أو فضيحة ، قام وتأكد من الباب ، كان مقفلاً حقاً ، بعد دقائق عادت ، فتحت الباب ودخلت تحمل شيئاً .

قالت :

«هذا مصحف ، ضع عليه يدك واقسم أنك ستحبني .»

«لكنني غير متوضئ .»

«ومن قال إنك تجيد الوضوء .»

«إنك مصيبة .»

«من لا يصلي لا يجيد الوضوء .»

«يا ماجدة . . الحب ليس لعبة ، إنه مشاعر وأحاسيس ورغبات .»

«أقسم لي كي أمنحك الحب .»

«حسناً أنا أحبك وهذا المصحف يشهد على كلامي .»

خرجت مسرعة وعادت ، وجدها تدنو منه .

قالت :

«إيّاك يا – ماهر – أن تلعب معي .»

«الحب حالة مقدسة عند جميع الكائنات ، لا يجوز للعاقل أن يستهين به .»

سمحت أن يمسك يدها .

تراخت وأغمضت عينيها .

فـ سقط فمه على فمها .

عاد إلى وحدته العسكرية .

فاجأه خبر غير سار ، إصابة (رسول) برصاصة قنّاص .

قالوا :

«كان واقفاً يتأمل الشط قبل أن يعلن بنفسه أصابته ، مسك الرصاصة بيده وبيده الأخرى ضغط على الجرح ، على ما يبدو ، الرصاصة جاءت من مكان بعيد ، عجزت عن اختراق عظم الترقوة .»

عاد للرتابة والواجبات الليلية العقيمة ، حاول أن ينشغل بقراءة الكتب ، وجد التعب يبدد تركيزه .

بعد أسبوعين جاء مراسل آمر السرية يركض .

قال :

«ماذا عملت من مصيبة في إجازتك؟»

«أية مصيبة يا محسن؟»

«مفرزة انضباط جاءت تطلبك!»

انتظر وضوح الخبر ، أمسكه من يده وقاده .

رهط انضباط جالس عند آمر السرية ، بادره أحدهم :

«لو كنت فتاة لطاردتك حتى تتزوجني .»

قال آمر السرية :

«ماهر وسيم وشاعر .»

قال أحدهم :

«على ما يبدو أنه دون جوان – جلبلاء»
تدخل (ماهر) :
«ماذا يحصل سيدي؟»
«هناك أمر باستدعائك إلى دائرة أمن بلدتك .»
«دائرة أمن بلدتي!»
تكلم أحد جنود المفرزة :
«مجرد استجواب بسيط **يتعلق** بمشاكل البنات .»
«وما علاقتي بالبنات .»
قال آخر :
«كل وسيم يتورط مع بنات اليوم .»
توقف الكلام قبل أن يجد العيون تحفره .
قال :
«ما المطلوب مني؟»
قال الآمر :
«سترافقهم إلى بلدتك .»
تهيأ ورافقهم .

بدوا ودودين معه ، تجنب البوح بأسراره جهد مسعاه ، رغم أنهم كانوا عليه يلحّون .

بعد رحلة طويلة وشاقة ، استغرقت نهارين وليلة ، وجد نفسه في دائرة أمن (جلبلاء) .

قال ضابط الأمن :
«كم فتاة لعبت عليها يا – ماهر –؟»
«ومن أنا كي أتمكن من التفرغ للفتيات .»

«إيّاك أن تهرب عن صلب قضيتك .»

«أية قضية سيدي؟»

«لا تهرب من واقعك ، لدينا المعلومات الكاملة عنك .»

«ربما هناك عملية **إعجاب** ورغبة في الزواج .»

«لو لم تكن جندياً لنلت وجبة **فلقة** ساخنة .»

«قلت مجرد إعجاب من بعيد سيدي .»

«ماهر . . أنت عملت مصيبة كبيرة»

«أرجوك سيدي أفهمني القضية .»

«لا تتحامق ، تعرف جيداً ماذا عملت .»

اقتادوه إلى غرفة معتمة ، وجد وجوهاً **يابسة** شبه ميتة ، بحث عن شيء ينهي به حياته ، وجد الحيطان كونكريتية ، وقضبان الباب من حديد سميك .

قال أحد السجناء :

«أكيد هربت ، أم أنك **سبيّت** الحكومة!»

«أنا!»

«لا يأتون بأحد إلى هنا إلاّ بتهمة سياسية .»

«لكنني لم أعرف لم أنا هنا .»

«من يدخل هنا عليه أن يهيء رقبته للمشنقة .»

«أنا جندي ملتزم .»

«لم يفلت من هذا السجن من دخله .»

«ربما هناك خطأ ما .»

«رجال الأمن لا يخطؤون كونهم **يشنقون** الجميع حتى لو كانوا أبرياء .»

«أنا قضيتي تتعلق بالبنات .»

سمع ضحكة جماعية ، زحف أحدهم نحوه ، جلس لصقه ، ربت على كتفه .

قال :

«بنات ، نحن **نحارب** الحكومة كي نخلّص الشعب من الظلم ، وأنت تبحث عن البنات ، يا لك من شاب تافه .»

«أرجوك لا دخل لي بما تعملون ، أنا لست معكم ، أرجوكم ، أنا مسالم .»

«مسالم! سمعنا أنك تكتب الشعر ، هلا **ذممت** الحكومة بقصيدة عصماء؟»

«ومن قال ذلك؟»

«أنت شاعر نسوان يا ولد .»

«ومن قال أنا شاعر ، أنا أريد أن أعيش ، أنا وحيد أمّي .»

قال آخر :

«الشاعر أوّل طلقة في الحرب ضد الظالمين .»

«أرجوكم اتركوني؟»

قال آخر :

«يجب أن **تنضم** إلينا .»

«لا . . لا . . أنا لا أنضم إلى أيّة فئة .»

أجاب الذي يلاصقه :

«نحن لا نخرج ، نعرف أنفسنا ، نريد منك أن تقدم لنا خدمة .»

«وما مطلوب منّي؟»

«حين تخرج تتصل بجماعتنا .»

«أرجوكم أنا لا أصلح لشيء ، أنا فقدت كل شيء .»

قال أحدهم :

«لا تكن جباناً ، يجب أن تنضوي تحت لوائنا كي نخلص الناس من القردة والخنازير .»

«أرجوكم أنا لا أملك شيئاً ، أنا مجرد وهم يمشي بين الناس .»

سمع وقع أقدام ، فانزاح كابوسهم ، انسحب الذي زحف ولاصقه ، سمع قفل الباب يدار ، دخل أحدهم .

صاح :

«ماهر .!»

قاده إلى غرفة الضابط ، وجده واقفاً قرب النافذة بيده سيجارة .

قال :

«ها . . ماهر . . ماذا تقول؟»

«ماذا تريد مني أن أقول سيدي؟»

«ألم تسمع بقرار القيادة الموقر .»

«لم أسمع!»

استدار مستشيطاً غضباً .

صاح :

«كلب ، هل أنت مناهض للثورة .»

«سيدي ، ماذا تريد مني أن أقول؟»

«قرار مجلس قيادة الثورة .»

«القرارات كثيرة سيدي .»

«قرار معالجة التسيب الأخلاقي في المجتمع .»

«سمعت أن من يلقى القبض عليه متلبساً بلقاء عاطفي سيساق إلى السجن .»

«حسناً أنت الآن في السجن .»

«ولكن لست **متلبساً** سيدي .»

«كلب . . هذا كلام لا يقوله إلاّ **مناهض** للحزب وقراراته الحكيمة .»

«لكنه ليس قراراً بل توجه سيدي .»

«لا فرق كل توجه أو خطاب بمثابة قرار حاسم .»

«سيدي أرجوك ماذا تريد مني؟»

«القرار تعرفه ، يجب أن **تتزوج** واحدة من الفتاتين ، أم أنك رجل وتستطيع الزواج من البنتين .»

«سيدي لم أعد أشعر بشيء .»

«أي شيء يا كلب؟»

«أنا فقدت كل شيء في الجبهة سيدي .»

«بدأت تهذي ، أمامك خياران ، خيار الزواج يخلّصك من السجن .»

«سيدي الزواج يحتاج إلى موافقات وترتيبات .»

«قرار الحكومة ملزم ونهائي ، من نجده مع فتاة نسوقهما إلى المحكمة ، ونزوجهما بناء على قرار الحكومة الرشيدة .»

«سيدي حلم حياتي أن أتخلص من نار العزوبية لكنني ما زلت جندياً في الجبهة .»

«كلما ذهبت إلى إجازتك تجد من تنتظرك ، أليست حياة الجنود **تسلية وموتاً**؟»

صمت .

لم يعد يمتلك كلاماً يسنده بمواجهة رجل **خلق** ليظلم ، صارم الطباع ، بصوت خشن ، وعينين فيهما نار ورعب ، شاع عنه **معذِّب** السجناء بيديه ، خلاف البعض من رجال الأمن ، ضباط يشرفون على تعذيب النزلاء ، لكن هذا الهيكل المتوحش ، يحب حفر أوشام السلطة بمخالبه في أجساد كل من يجلب ، بريئاً كان أم متلبساً بجرم سياسي ، ذاق عذابه **أصحاب** اللحية ، ومن أجبرته حاجته على دخول **مراحيض** المسجد ، قارؤوا الصحف والكتب ، الواقفون في تجمهرات على طريق طالبات المدارس ، التجمعات الشبابية ، كلها حيثيات تشكل في أذهان دائرة الأمن تمردات على أيديولوجية الحزب ، لم يسلم من مخالبه أولئك الذين يتجمعون في المقاهي ، دائماً هناك ضحايا ، يساقون لينالوا وجبات ساخنة في حفلات ليلية معربدة ، تحت ذرائع كاذبة .

قال (ماهر) :

«جد لي حلاً .»

«رأيي أن تتزوج – ماجدة – هي وحيدة أمها ، ليس من يقف خلفها لينهي الزواج»

« إنها صغيرة .»

«تعقد عليها وتتركها على **ذمتك** حتى وقت آخر .»

«لكنني . . »

قاطعه :

«مها . . جميلة ، لكنها لا تفيدك ، أولاد خالها ضبّاط ، قرويون ، سيسببون لك متاعب .»

«يجب أن أفاتح أمّي .»

«أمك تعرف القضية كلّها ، كانت هنا قبل يومين .»

صاعقة دمرته ، جف حلقه وتوقف بصره قبل أن يتدخل لإسعافه :

«حدثت مشادة في المدرسة بين – مها – و – ماجدة – أنت تعرف ، معارك المراهقات نار سريعة الانتشار ، لولا تدخل بعض النسوة لقضت أم – ماجدة – على – مها –»

«هذا شيء لا يسر سيدي .»

«من خلال التحقيق تبين أنك كنت مع – ماجدة – في الليل .»

«أنا . . »

«حكت – ماجدة – لـ – مها – وحصلت المشادة .»

أطرق برأسه ، رغب أن يفقد أنفاسه ويسقط هامداً .

ما الذي جرى ويجري ، كيف أواجه العالم بعد الذي جرى . (قال لسانه)

قال الضابط :

«ماهر . . تهمتك ليست تمس أمن الدولة بشيء ، إني أجدها فرصة لنزف البشرى للقيادة العليا بأننا حققنا ما جاء في القرار ، سأقف معك ، اختر كي لا تكبر المشكلة .»

«حسناً كما تريد .»

«هذا عين الصواب ، يجب أن نطيع أوامر الحكومة ، كونها أعرف بـ مجريات الأحداث ، لن أحشرك مع تلك الزمرة المناهضة للثورة ، سنرتب الأمور بالسرعة الممكنة .»

«سيدي اليوم جمعة .»

«لا يفرق عندنا .»

«المحاكم مغلقة .»

«سنقوم بمراسيم الخطوبة في بيت القاضي .»

«هل ممكن أن أرى أمّي كي أعلمها؟»

«ليس قبل أن تتزوج وتمضي بزوجتك كي تراك .»

«كما تشاء .»

لم يرجعوهِ إلى السجن .

وضعوه في غرفة فيها سرير ، من خلال النافذة ، لمح ليلاً مزججاً بمصابيح باهتة ، فكره انشغل بالموت .

ماذا أقول لـ (مها) ، كيف أواجهها؟ (قال لسانه)

رأسه ينفلق ، ما كان متوقعاً قد حدث ، (ماجدة) وضعته في قلب مأزق مغلق ، هل حقاً الحكومة صادقة في تعاليمها ، كثيرة هي **هذرنات** الحكومة ، قرارات تعلن قبل أن تنام (**حبر على ورق**) ، هذا توجه غريب يمس شغاف القلوب ، جاء يكتم العواطف الشبابية ، بنج آخر خفي غايته ترويض وتأميل الناس ، فالحرب مستعرة ، تطلب وقودها ، حين يتخدر المرء ، يكون جاهزاً ، قرباناً مطيعاً لديمومة السلطة ، عشرات القرارات تعلن جهراً ، يطلق المذيع ما بوسع حنجرته أن تمد وتطيل جرس الكلمات ، تصدق الناس كلام حكوماتها ، الناس ترغب في تجنب عواقب الأمور ، لا تخوض في متاهات تقود إلى السجن والموت ، كل شيء بمشيئة الله ، تصمد وتصبر على كل أمر .

توقع (ماهر) من قرار الحكومة ، تخويف الشباب وترويعهم ، بعدما استفحلت قضية وجود الثنائيات الشبابية داخل الحدائق العامة ، هاربين من كلياتهم ومدارسهم في العاصمة .

بدا ليل (جلبلاء) كئيباً ، نجوم خجولة تبث **ضوء** الحزن إلى أحشاء أرض ترتج من فعل المدافع ، حيرة تامة ، وقلبه يكاد يتجاوز الحد المسموح للنبض ، كل شيء فيه خضع لـ **عطل** تام .

جاء أحد رجال الأمن وجلس قربه . . قال :

«مها . . أجمل من . . ماجدة .»

«لا أحد يختلف على هذا .»

«لم لم تخترها؟»

«لا أستطيع مخالفة أوامر الحكومة .»

«لكنك وافقت على تنفيذ القرار .»

«لديها أولاد خال شرسون ، ثم إنها محجوزة لقروي .»

«سنلوي عنق كل من يقف بوجه القرار .»

«أخشى أن أعاكس رأي السيد الضابط .»

«يمكنني ترتيب الأمر .»

«السيد الضابط اختار لي ما يجنبني عواقب الأمور .»

«بإمكاني أن أغير الموضوع .»

«أرجوك افعل ذلك؟»

خرج .

تائهاً بين قدرين خانقين ، مسألة الزواج لم تكن واردة في ذهنه ، انشغاله بـ **شيئه** الثمين قفل على كل جوارحه ، لم يعد يشعر بأنه كائن متعافي الرجولة ، ثمت **إحباط** ساكن فيه ، يريد أن يتأكد منه ، أهو من فرط خياله؟ أهو **وهم** ركب ذهنه؟

جاء البشير يلهث ، كأنه خارج من **عرين** زفاف . . قال :

«أبشر القضية أتت كما ترغب .»

«كيف؟»

«جماعتنا وجدوا – ماجدة – وأمها خارج البلدة .»

«وهل تقبل الحكومة بـ **تبديل** المزاج؟»

«حكومتنا رشيدة ، قلبها كبير ، كل واحد يمتلك حرية اختيار زوجته المناسبة .»

«شكراً على تعاونك ، أنقذتني من فكرة الموت .»

«بسيطة يا – ماهر – كل شيء سيتم بسلام .»

«وماذا قال السيد الضابط؟»

«حسناً فعلت حين لم تبد مماطلة وتكذيب الخبر .»

«أنا صريح دائماً .»

«لا أكتمك . . أعددنا لك **حفلة** ليلية معتبرة ، لو جانبت الحقيقة .»

«كان هذا سبب رغبتي في الموت .»

«موافقتك أنقذتك .»

«وما علي أن أفعل الآن؟»

صمت .

خرج البشير ، جلس (ماهر) ينتظر قدره ، كل شيء يرميه الليل **جثة** هامدة ، قصائد كانت تهرب منه ، ها هي تضج على النافذة ، تموت الرغبة دائماً عندما يكون المرء محاصراً بالحكومة ، عيون تتلصص عليه ، أيد تنتفض لتمزقه ، لا يغدو ليل البلدة ليلاً ولا يدرك النهار ما لم يرتو بـ **دم** مسال **وآلام** تفر **وأرواح** تنتزع .

جاء البشير هارعاً :

«هيّا . . إيّاك أن تتجاهل هديتي .!»

السيد الضابط ، يجلس خلف طاولته ، تحت **صورة** السيد الحاكم ، لقطة ليست جانبية ، فتى يافع ، لم يبلغ سن الرشد يبدو ، يبتسم ابتسامة رئاسية ، السيد الضابط يبتسم أيضاً ، يجلس **جلسة** صورة ، يريد أن يشبه السيد الحاكم ، ابتسامته لا تشبه ابتسامة السيد الحاكم ، بون شاسع ما بين التكشيرتين ، أسنان السيد الحاكم ناصعة تطلق **أنوار** مستقبل وافر الخير ، أسنان السيد الضابط كالحة ، مزنجرة ، في نظرات السيد الحاكم سخرية واضحة وحياة زاهرة بـ **وعود** كالرعود تخرج كل مساء عبر قرارات لا تنتهي ، يعيدها المذيع في **رأس** و**بطن** ودبر كل ساعة .

(مها) مرتبكة تجلس على كرسي ، طأطأت رأسها ما إن تصادمت النظرات ، أمها بعين حاقدة ترسل موعداً حاسماً للحساب .

«ماهر .»

صاح الضابط .

«نعم سيدي .»

«كن رجلاً .»

عرف مراميه ، تقدم من الكائنين الصامتين ، بحث عن لسانه ، بحث عن كلام ينفع **تحت** المقصلة .

قال :

«لا تلومينني يا عمّة ، ما جرى كان يجب أن يجري .»

قالت بغضب :

«لولا قرار الحكومة لكانت لنا قضيّة كبيرة معك .»

«اقتلوني . . أنا أستحق الموت .»

«سببت لنا سمعة غير طيبة .»

«اقتلوني أرجوكم .»

صمت .

دخل البشير ماسكاً يد أم (ماهر) ، لم تتمالك نفسها ، سقطت في منتصف الغرفة .

قالت أم (مها) :

«ستقتلها بعملك الجبان ، كان يجب أن تسير على خطى جدّك يا **سليل** بيت الدين .»

تدخل الضابط :

«يا أمّي اجتمعنا على الخير ، علينا أن نشكر الحكومة لأنها جمعتنا على مائدة فرح وليس على مائدة مشكلة .»

قالت أم (مها) :

«أين نولي وجوهنا من الناس؟»

«تطبيق قرارات الحكومة واجب مشرف لكل مواطن جيد .»

«بنتي ما تزال صغيرة ، إنها ترغب بتكملة الدراسة .»

«وما الضير في ذلك ، بوسعها الزواج وتواصل دراستها»

تنفست أم (ماهر) ، جلست تتوسل بالسيد الضابط .

«أولاد خالها سينتقمون من – ماهر-»

«لا أحد يقف بوجه الحكومة ، من يتجاوز على القرار مصيره السجن .»

نظرت أم (ماهر) إلى ابنها ، حاله يحتاج إلى **رثاء** تام ، وجهه خطف منه كامل رونقه . . تمتمت :

«ماهر .»

«أمّي . . »

«لكم حذرتك من هذه المصيبة .»

لم تحتمل أم (مها) :

«بنتي ليست مصيبة .»

صمت .

اقتحم الضابط حلبة الصراع :

«كل خلاف يزول ، علينا أن نمضي إلى منزل القاضي ، القيادة **تنتظر** برقيات البهجة .»

ذهبوا إلى بيت القاضي .

وسط حيرة وصمت وخوف ومسرات مكتومة تم إعلان خطوبة (مها) و (ماهر) .

(مها) . . تملك عتاباً وفرحاً واضحاً .

(ماهر) . . يمتلك موتاً يسري في أحشائه .

أم (مها) . . تمتلك ناراً تلتهم مستقبلها .

أم (ماهر) . . تمتلك غباراً عاتياً يغبر روحها .

الضابط . . وحده يمتلك (**جوكر**) السعادة .

قالت أمّه :

«كنت على يقين أنك ستورطنا في مصيبة .»

«الحب نعمة ربّانية ، قدر أحمق ، الحب ليس مصيبة يا أمّي .»

«ألم يقل أبوك : الحب للأثرياء يا ولدي .»

«كلام مغلوط ، الأثرياء لا يحتاجون إلى الحب ، لا يملكون قلوباً كي ينعموا بهذا القدر الجميل .»

«والدك جاء وتزوجني من غير أن يرى أحدنا الآخر .»

«ربما سقطت في بئره حين رآك .»

«وهل الحب يولد في لحظة؟»

«ثانية واحدة تكفي لبناء أسرة ، إنما الحب لحظة .»

«لولا قرار الحكومة لورطتنا بقضيّة فصل .»

«كل شيء تم بسلام .»

تناولا الطعام .

قال :

«أمي . . يجب أن نوضح الأمور .»

«لا أملك وجهاً يستوعب غضب أمها .»

«كل شيء تم رغماً عنّا .»

«ستبقى غاضبة عليك ما عاشت .»

«بوسعي أن أهب حياتي تلبية لرغبتها .!»

«هذا شيء لا يعوض ، عملك نسف **عمارة** أخلاق يا ولدي .»
«وما العلّة؟ ، إنها تناسبنا ، الحكومة ستدافع عن قراراتها .»
«في القلب أشياء لا تفهمها .»
«قدر صاغ قراره .»
«ليس بوسعي مرافقتك .»
«ليس أمامي سوى حل واحد!»
نهض وذهب إلى غرفته .

انهمك يكتب ، وجد كتابة رسالة أنفع ، يقول فيها كل ما يرغب قوله ، (مها) ستقرأ الرسالة ، ستكتب ما عندها من كلام ، لابد أنها خضعت للأمر الواقع ، قد تكون صدمة ، لكن الصدمات لا تترك كدمات .

مع الفجر وقف كما كان يقف ، هاجس يحسسه ، قضيته شاعت بين الناس . رسالته في جيبه ، وجد عيون مارة تنحفر فيه بشك واضح وسؤال يصرخ .

تقدمت امرأة منه . . قالت :
«ما جدوى وقوفك هنا! ألم تصبح لك؟»
لسانه تعذر عليه الجواب . . أردفت :
«كان يجب أن تختار – ماجدة – وحيدة أمها ، البيت باسمها ، ولديها راتب والدها .»
وجد السكوت وازع هزيمة من الحياة . . قال :
«لا أفهم ما تقولين .»
«البلدة كلّها تعرف موضوعك .»
مضت المرأة ، بقي حائراً ، ينتظر خروجها .

كرامته دفعته يخطو واثقاً من غير تردد أو خوف نحو بيت (مها) ، أنامله ارتجفت ، جاءت طرقات الباب نقرات منقار طائر ضعيف على نافذة .

خرجت (مها) ، صامتة ، في عينيها يتلاعب فرح ينمو وحزن مرتبك . . قال :

«مها . . هكذا أراد القدر أن يجمعنا .»

«لم أكن أتصور أنك تخونني بهذه الطريقة البشعة .»

«لم تكن رغبة في الخيانة بل كانت طريقة لدفع الشر عنّا .»

«لكنها حكت لي كل شيء وحصل ما حصل بينكما .»

«لم يحصل شيء إلاّ في خيالها .»

«لست مستعدة لتصديق أي كلام .»

«ربما كنت على خطأ ، حين وضعت في بالي لقاءها سيوقف مصيبة توعدت بها .»

«كان يجب أن تفاتحني بالقضيّة .»

«لا توجد قضيّة .»

«جعلتنا **علكة** في أفواه الناس وتقول لا توجد قضيّة .»

«أعني ما في بالك ليس صحيحاً .»

«ألم تدخل معها الحمّام؟»

«مها . . أرجوك لسنا في محاكمة ، أنا جئت أقدم رأسي لأولاد خالك ، ليفعلوا بي ما يشاؤون .»

«علموا بالقضيّة .»

«وما هو رد فعلهم؟»

«لم يفصحوا عن شيء!»

«بوسعي الذهاب إليهم .»

«لا تزج نفسك في ورطة .»

«اخترتك . . أليس هذا دليل تعلقي بك .»

«ماهر . . أنت تعذبني كثيراً .»

«لا عذاب بعد اليوم .»

«رسائلك مليئة بالغموض واليأس .»

«سأغير لهجة خطابي من الآن .»

«متى تعود .؟»

«اليوم سألتحق ولدي **نسخة** من قرار المحكمة للحصول على إجازة زواج .»

«أي زواج . . أنا طالبة .!»

«أعني أنني سأتمتع بإجازة كي نرتب حياتنا .»

«الحرب تأكل الناس ، أخشى أن تحترق حياتنا .»

«ربما ستنجح المساعي الحميدة .»

«إنهم يصطادون في مياه عكرة .»

«لدينا كلام كثير ، علي أن ألتحق بوحدتي .»

«أمي ذهبت إلى بيت أخوالي كي تعلم معنى صمتهم .»

«أرجو أن لا يرتكبوا حماقة ، خصوصاً الشاب الذي يريدك .»

«تخلصنا من شره ، يقولون **هارب** تم إلقاء القبض عليه .»

«آآآآه . . كابوس كبير انزاح!»

«ولدا خالي وجدا أختين في - بغداد - في الأسبوع القادم يقطعان المهر .»

«هذا فأل حسن .»

«لم لا تدخل .!»
فسحت له الطريق ، دخل (ماهر) غرفة اللقاءات الليلية . . قال :
«لم يعد الخوف يحضر معنا .»
«ماهر . . ما زلت أحمل العذاب .»
تقدم منها ، وجدها صامتة ، ترغب في البكاء ، عانقها وانهمك يمطرها بوابل قبلات . . قالت :
«ماهر . . أنت بارد اليوم!»
رجف جسده ، لم يجد غير الكلام كي يشعرها بالطمأنينة . . قال :
«قبلات **الحلال** باردة .»
جلسا ساعة وافترقا .

«السيد الآمر عنده دورة ترقية!»

تعذر على السيد المساعد أن يتخذ قراره بمنحه إجازة زواج .

قال :

«مبروك يا - ماهر - لكن تعلم الهجوم **وشيك** والإجازات توقفت .»

لم يمتلك كلاماً ، وطنه **في** محنة ، وقلبه مشغول بمحنته ، والموت راية ترفرف في فضاء مخيلته .

كل شيء يخضع للمفاجأة ، أوامر العسكر تتبدل بالدقائق ، ينفع أن يتدرب الجندي على ضبط النفس ، أن يتمكن من **خنق** كل رغبة تنهض أوان الجحيم ، روّض (ماهر) شكيمته ، عالمه لم يعد يشكل هماً ضاغطاً كما كان في مدرسته ، روحه هائمة ، له قلب لا يرعوي ، وخيال غير مجهز لفرض القرارات أوان الضيق ، هم الموت يطغى ، والحرب كلّها موت متواصل ، **مفرد وجملة** .

في الليل بدا الخوف مخيماً على الجبهة ، نجوم متوجسة ، الهدوء رتيب ، ألسنة الجنود خاضعة لخرس عام ، مباغت ومخيف ، فرّت الرغبات من النفوس ، أجساد **مائعة** تتحرك بحيرة وارتباك ، عيون الجنود تطارد نقاطاً سوداً تتصادم في السمت ، يهذر اللسان بما يخالف الواقع ، كل نقطة منطلقة يقرها اليقين **صاروخ** صامت سينفلق بعد حين ، الكل يرتدي كامل هندامه ، من أخمص القدمين إلى قمة الرأس ،

البسطال والخوذة وزمزمية الماء مملوءة ، والبنادق محشوّة لقتل **أولاد** آدم وحوّاء ، الكل ينقسم إلى رهطين ، رهط **قابيل** ورهط **هابيل** .

توقف النوم ، العيون انشغلت تطارد أشباحاً تتحرك ، طال الصبر وبدأ زيته ينفد ، والهجوم الوشيك تكتمل محاوره .

في الهزيع الأخير لليل ، خط طويل يأتي من الخلف ، خط يلوح أصفر اللون ، أو هكذا فسرت الألسن التي نطقت من بعد **لجام** الانتظار .

(ماهر) يلاصقه جندي اسمه (حامد) ، عرف عنه (كلب الليل) ، جندي ينام النهار كله ، آمر السرية منحه التخويل الكامل بأن النهار يكون تحت تصرفه ، ما إن عرف أنه **كلب** ابن بشر ، يفض بكارة ظلام الليل بعينيه وحاسته **السادسة** ، لم يزعل يوم وصفوه بالـ **كلب** ، كونه فاز بكل النهار وتخلص من واجباته الروتينية .

قال (ماهر) :

«إنهم . . رجال – الحرس الجمهوري – على ما أعتقد لديهم ممارسة ميدانية .»

«لا تصلح **كلب** ليل يا عزيزي .»

«من غير المعقول أن يكون هذا الرتل الطويل **عدواً** متسللاً .»

«الليل **موطن** الأسرار ، لن أقول شيئاً ما لم أتحرى .»

«لو كان العدو لكانت هناك اشتباكات مع القطعان الخلفية .»

«ما أشمه رائحة كريهة .!»

«ألم يقل السيد المساعد ، قيادتنا تهيأت لخنق هجومهم في مهده .!»

«عدونا ماكر يا ماهر .!»

«ربما حشدوا أعداداً كبيرة لذلك جلبت قيادتنا – الحرس الجمهوري – لإشاعة الرعب فيهم .»

«لم يسبق أن زجوا بهم في المعارك السابقة .»

«خطورة الموقف أجبرت الحكومة على إشراكهم في الحرب .»

صمت .

جنود محتارون ، بعضهم يتوسد التراب ويغرق في نومه السابع ، يبدون جثثاً متحجرة ، وفي الخط الطويل للطريق النيسمي ، نمال صفر تدب ، ظلام الليل يواصل **طمس** هوياتهم .

همس (ماهر) :

«قلبي طفق يخفق من **غامضية** الموقف .»

«ربما خفقان الموت يا صديقي .»

«ليت ذلك يحصل كي نتخلص من هذه الحرب اللعينة .»

صمت .

لا تؤمِّن النواظير الليلية رؤية جيدة ، ما متوفر من معدات أخرجتها جيوش العالم من الخدمة ، دول تعرف كيف تصرف **مهملاتها** العتيقة بسعر الذهب ، وراء كل حرب دول صناعية تبتلع **أموال** الطرفين .

تتعب العيون في الظلام ، الحلكة تخثرها ، تعب العيون يتعب الجسد ، ويغلق **أبواب** الذهن .

قال (ماهر) :

«لننم قليلاً . . ما تطفر في العيون أوهام محض .»

«سموني **كلب** الليل الأمين ، ليس من المستحسن فقدان هذه الشارة النبيلة .»

«معظم الجنود غاطسون في نومهم السابع والسبعين .»

«نم أنت ، أشعر أن هناك شيئاً ما يقلقني . . أنفي بدأ يتحسس **طريدة** في الجوار .»

«سأنام ، ليس بوسعي أن أصمد أمام تعب جسدي .»

تمدد (ماهر) واضعاً البندقية تحت رأسه ، لم يغلق مسمار الأمان ، بقى (حامد) يفك مغاليق لوحة تعكس جملة مرايا كلّها تنطق عويلاً .

ماهر) سواء **شبع** من النوم أو مجرد **غفوة** محارب في ظل خطر ، قفز من نومه ، كان الرصاص يرسم لوحة ليلية ، مذنبات تهرب وأخرى تعود ، مجابهة دامية ، الخط الأصفر يتعاشق مع الأرض المترامية ، والجنود يرمون بلا تحديد هدف .

قال (حامد) :

«أنفي تحسس رائحتهم .»

«لكم هي واهية حجاباتنا أيام الهجمات .»

«لا يحصل خرق ما لم تكن **هناك** خيانة .»

«قول معروف .!»

هل فجر مغبر ، جنود مستهلكون ، رهط النمل ضائع بين الحفر والدخان .

بدأت المدافع الثقيلة ترسل برقها . . قال (ماهر) :

«سنقتل بأسلحتنا .»

قال (حامد) :

«عندما يتأزم الموقف ، قيادتنا تعجن الجميع .»

(ما العمل ، هل نفعلها؟»

«خشيت أن أطرح هذه الفكرة عليك .»

«لم ألتقِ إنساناً يخاف من شاعر .»

«حقيقة **لم** أتأكد من شعرك كي أعرف معدنك .»

«لست من **بائعي** الكلمات .»

«طريق النجاة تبدأ من نفق واحد ، لكنه ضيّق .»

في غمرة القتال والكلام ، تحول الساتر إلى قيامة حرائق ، قنابل تمطر ، تبغي تطهير ساتر الوطن من الفوضى .

ذلك كل ما ارتسم في ذهن (ماهر) قبل أن تجرفه **عاصفة** تراب .

بدأت الموجودات تتلامح في عيني (ماهر) بعدما استرد بعض وعيه ، وقسماً كافياً من درجة الرؤية ، وجد كائنين حوله ، يقفان كتمثالي برونز ، أحدهما شماله والآخر يمينه ، كائن يحاول **كبح** جدولي دموع ، وكائن يحاول **كتم** حشرجة نحيب .

كافح أن يشكل في ذهنه ملامح تتذبذب ، من هما؟ ماذا يريدان؟

أكان على فراش الموت؟ جاء ملك الموت لينتزع روحه ، هدأ ينتظر طي **آخر** صفحة من كتاب حياته .

أذرع مثل أفاعي جائعة تمتد لتطوقه ، شيء لا يشبه الموت ، يبدأ الموت من القدمين ، يبدأ ببرود تام يزحف عصيباً نحو الأعلى قبل كتم النفس .

ثغور طرية تحرث وجهه ، الموت **جاء** أخيراً ، بدأوا يودعونه ، عيون تدمع ، ثغور تمطر **لعاب** الهلع ، وسط توهان عقله وحيرته ، بدأت الرؤية تتسع وتتضح ، رأسه تمكن من تمييز الأشياء ، أمّه واقفة ، عيناها دامعتان ، (مها) واقفة تضحك تارة ، طوراً تبكي .

لم يعرف من منهما قالت :

«غيمة عابرة وصحت .»

قالت الأخرى :

«حمداً على سلامتك .»

شعر بوخز الألم ، وجد يده اليمنى راحلة عن جسده .

همست واحدة :

«متى تخلص هذه الحرب اللعينة؟»

همست الأخرى :

«لعنة الله على الطرفين!»

«لا ترفعي صوتك .»

«لا يجب أن يعود ليموت في المرة القادمة .»

«وأين يروح؟»

«حاله حال الكثير من أقرانه .»

«كلا . . أخشى أن يموت بأيديهم .»

صمت .

تعافى (ماهر) ببطء ، بين حب (مها) وحنان أمّه .

(مها) تطعمه وتسقيه ، تمطره بوابل قبلات .

قالت أمه :

«لم أعد أشكل أهمية بالنسبة لك .»

(مها) قامت وعانقتها . . قالت :

«عمتي سأنذر نفسي لخدمتكما .»

قال (ماهر) :

«مهما تكن درجة الزوجة عند الرجل فهي لا تشكل أمام الأم سوى عضد مساعد .»

«ولدي . . أشعر بشيء من الغيرة ، أقولها بصراحة ، طلقت الدنيا من أجلك ، ها أنت تجد من تحويك وتأخذك من أمام عيني .»

«يا أمّي كلامك **ثقيل** على جرحي .»

قالت (مها) :

«لولا أنه – ماهر – لتركته لك ياعمتي .!»

«أتمنى لكما حياة كريمة .»

خرجت أمه .

قال :

«فقدت أهم عضو في جسدي .»

«أنا **عضوك** المفقود يا – ماهر – »

«ربما عضوان على ما أعتقد .»

«لم أعد أمتلك غيرك يا – ماهر ـ ، مهما تفقد من أعضاء ، أشعر أنني لا أعيش من غيرك .»
«لكن المرأة لا تعيش من غير رجل .»
«مهما يكن ، علي أن أكون **راهبة** في محرابك يا حبيبي .»
«وأنا سأكون **قساً** ، نجعل من بيتنا **صومعة** لحياة مثالية خالية من الآثام .»
«لم أعد أمتلك شيئاً غيرك بعدما تركت دراستي .»
«كان ذلك بسببي .»
«وما نفع الدراسة في بلاد لا تعيش من غير حروب .»
«سأواصل كتابة الشعر .»
«ستقرأ لي وأنا أكتبه .»
«سأمرن – يسراي – على تعويض يميني .»
«وما العمل؟»
«بخصوص زواجنا .»
«أي زواج يا ماهر .!»
«ألسنا مخطوبين . . »
«لا أقصد هذا . . بخصوص عسكريتك .»
«سيخرجونني لأسباب صحيّة .»
«ومن قال هذا؟»
«لم أعد أنفع للحرب .»
«لابد أن تحسب حساباً لخلاف هذا الرأي .»
«حين تنتهي إجازتي المرضية ، ستتضح الأمور أكثر .»
صمت .

لجنة (شرحبيل) الطبيّة ، متخصصة بـ بيان سلامة الفرد ، وصلاحيته لحمل السلاح أو ترقين شخصيته (سلاحسز) ، مئات الشباب ، يتظاهرون بفقدان الرشد ، مبتورو الأعضاء ، أنفار تلبس **ملابس** نسائية ، تدربت على ألفباء الجنون ، كلّهم دون استثناء يجرجرون أمهات مبتليات ، متهالكات ، وآباء خائرون ، من كل محافظات البلد ، يحملون باقات أوراق عرائض ، تتمزق لكثرة التدافع والعرض على المختصين ، أوراق مصبوغة بعشرات التواقيع ومهورة بعدة أختام ، دائرية وأسطوانية ومثلثة ، بعضها أحمر والبعض منها أخضر أو أسود ، تقارير طبيّة عديمة التأثير ، كونها حررت من مستشفيات مدنيّة ، حررها أطباء استجابة لبكاء نساء وتوسل رجال ، فالرؤوس الكبيرة ، الحليقة ، الجالسة في غرف عتيقة ، ووراء نضد حديدية صدئة ، رؤوس صلبة ، محقونة بـ وباء الولاء الكامل للحرب وقائدها المفدى ، يمتلكون قدراً كبيراً من انضباط النفس ، ولساناً ذرباً ، يجاملون خلاف العرف العسكري ، حتى شاع أنهم رجال (الأمن القومي) ، صنف مثقف من **جهاز** المخابرات السريّة للسلطة ، متنكرين بصدريات بيض ، كما يفعل الأطباء في المستشفيات الحكومية ، خلاف ما يظهرون في عياداتهم الخاصة ، من غير صدريات بيض ، رجال يراوغون ، بألسنتهم ، بنظراتهم ، يمتصون أحقاد الناس ، يزرعون في نفوسهم المتمزقة بذور الأمل ، لكن عليهم الصبر ، الحرب تحتاج إلى صبر وتضحية ، يعطون

دفقات فرح للزاحفين بحثاً عن فرصة نجاة الابن من عسكرية زمن الحرب .

تختنق بهم المساحة المحصورة داخل سياج شبه مهدم ، حائط مبني بيد غير ماهرة ، وحديقة مهملة ، فيها أشجار غير مهذبة .

في الخارج يجلس رهط متقاعدين على صفائح زيت ، في أطراف ثغورهم الغاطسة تحت شوارب غير مهذبة ، سجائر من أنواع شتى ، أمامهم نضد من النوع الذي يطوى ويحمل على الكتف ، عليها أوراق ودبابيس ملتحمة بقطعة مغناطيس ، (وأسطمبة) يتم ضغط إبهام مقدم الطلب على أسفنجتها الغاطسة بالحبر لوضع البصمة على ذيل العريضة ، لمن لا يجيد الكتابة ويجهل مسك القلم الجاف أثناء التوقيع ، كلهم يبغون التخلص بطريقة ما من الحرب ، أسباب صحيّة ، هلوسة ، عدم امتلاك الذكورة ، فاقدو الرشد ، ضآلة الشخصيّة ، عاهات جسدية ونفسية توالدت أثناء الحرب ، فتدافعت الناس للفوز بواحدة منها مهما كان ثمنها تنقذ بها ابنها البار .

بعد عدة مراجعات ، قررت اللجنة الطبية (شرحبيل) عدم صلاحية (ماهر) للخدمة ، جاء في التقرير .

[بعد جملة فحوصات مختبرية تبين أن الجندي المكلف (ماهر عبد الكريم عبد الخالق) ، المنسوب إلى كتيبة دبابات أم ٢٤ المتجحفلة مع الفرقة الثالثة المشاة الآلي ، قاطع (الفاو) ، أنّه **فاقد** للرجولة لسبب غير واضح ، مع بتر كف يده اليمنى أثناء الهجوم ، لذا قررت لجنة (شرحبيل) الطبيّة ، في التأريخ أعلاه بعدم صلاحيته لحمل السلاح للدفاع عن حياض الوطن]

***

قالت أمّه :

«لم يعد لدي سبب كي أعيش .»

«لكنني تحت العلاج .»

«وما العمل؟»

«مها . . قررت أن تكون إلى جانبي .»

«لكنها سـ . . . . »

«أقسمت أنها تساندني في علاجي .»

«وكيف تواجه أمها؟»

«ستمرغل المنديل بدم كذب**!**»

«لن يستمر ذلك طويلاً .»

«لا خيار بديلاً لي . . »

يشعر (ماهر) أنّ حياته تستقيم عندما يكون وحيداً في فراشه ، كل شيء يشعره بتماثله للعافية ، عضوه **يكاد** يشعر بتحفزه ، رغبته نار تحرق جملة غابات ، لكن المعضلة تنعكس ، كلّما استعد لخوض مشروع الحياة .

(مها) نار ، (ماهر) ثلج .

تزوجا زواجاً بسيطاً ، إنها الحرب ، البلدة ، كل الأزقة تقريباً ، جدران الكثير من البيوت ، تضع قطع أقمشة مستطيلة ، سوداء ، آية واحدة تتصدر كلها ﴿**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أموات ، بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ .

رجال السلطة قالوا «الموت في سبيل الوطن هو الموت في سبيل الله» عبر تجمعات يومية للناس يتم حقن رؤوسهم بمفاهيم الوطنية والمواطنة الصالحة ، على المرء أن يدافع عن أرضه وعرضه وماله ، فالعدو كما

يصرحون يستهدف الأعراض لهتكها كما هتك الملعون (فرعون) أعراض بني إسرائيل ، لمّا تجحفلوا تحت قيادة النبي (موسى) عليه السلام .

مرت فكرة (مها) على رأس أمها ، اقتنعت أخيراً أن (مها) خرجت بنجاح تام من صبيانيتها وصارت عاقلة ، ستكون ربّة بيت ناجحة ، بعدما تعذر عليها إتمام دراستها .

واصل (ماهر) مراجعاته إلى بيت (ملاّ) في قرية نائية ، راح يحقنه بمشاريب ويمدّه كل ليلة جمعة على سرير في غرفة شبه معتمة قبل الغروب بقليل قبل أن يؤذن المؤذن ، يجبره على إغماض العينين ، عدم التحرك ، عدم التنفس بعشوائية ، عليه أن يصب تركيزه على ما يردد وما يقرأ من آيات الرقيّة ، فهو كما زعم جناب المحترم مسكون بـ **عمل** خبيث من جهة مجهولة لسبب ما ، قد يكون من باب الانتقام منه ، وهذا أكثر الأسباب شيوعاً .

تفيض روحه بسعادة ، يعود مخدراً بفرح قادم ، كل شيء سيرقص معه يوم يسترجع حياته النائمة ، (مها) سيحتضنها ، سيأخذها إلى كل الحفر والمرتفعات التي جلس عليها يقرأ رسائلها ، سيعيد في ذهنها احتراقات أعصابه وهو يطارد الكلمات كي يكتب لها قصيدة .

(مها) تستقبله بمودة ، أمّه فرحة ، تكاد تلمح ذلك الكائن الخامل ، متوتراً سيقذف في القريب العاجل **جملة** صبيان في حضنها ، تعويضاً عن فقدان الزوج وعدم تمكنه من تلقيحها بـ **جيش** أحفاد لكانوا الآن يسدون كل فراغات أحزانها .

تبقى الصخور جلاميد مهما تمت معالجتها فهي تظلّ جامدة ، سواء في البنايات أو النصب في تقاطع الشوارع ، أو سحقها إلى دقيق في الصناعات .

(مها) ، بدأت تنشج ، تتذمر ، ليس بوسع أحشائها الصمود وهي تصطلي بنار الحرمان ، ساعات الليل صارت تضخها بكوابيس وشياطين ، تتلوى ، تكاد تصرخ ، تريد شيئاً مثل الحلوى ، مثل **لعبة** مرنة ، فيه **دفء ودفق** ماء وظيفته **بناء** الحياة ، ماء السعادة الوقتية ، تريد حرارة تنسجم وتتناغم وتندمج مع حرارتها ، تريد أن تتذوق طعم الحب الذي حلمت به مذ وجدت نفسها حالمة يوم خرجت من **بيضة** الجهل ، لتصطدم بكائن قريب وليس بغريب ، وسيم وشاعر ، يمتلك مواصفات (السوبرمان) ، كانت تشعر به ، كان دائماً متحفزاً ، متوتراً ، يكاد يصرخ من وراء الـ ستر الخفيفة ، كانت **تموع** بين أحضانه وهو يضمها بعنف ورغبة ، كان **شيئه** الممتع كإزميل أو قضيب حديد ينبت على بطنها ، كان أطول منها ، لحظات الالتحام ، كانت تشعر بأنه يبتعد ويدنو منها ، يمارس وظيفته السريّة وهو غاطس في دنيا خياله ، كانت فرحة بما يفعل ، مانحة نفسها ومسترخية ، **كي** ينجز رغبته بالسرعة الممكنة ، رغم علمها أن سرعة إنجاز رغبته ليست لصالحها ، كانت تود لو يبقى الليل ليلاً أبدياً ، ووقفتها معه وقفة صنميّة ، والشعور النابت فيها مطراً كونياً ، لكن ليالي الحرب غير أمينة ، رجال السلطة يجوبون الأزقة بحثاً عن متسللين أو طيّارين زعموا أنهم أسقطوا طائراتهم .

كان دائماً يتراخى متأوهاً بعدما تشعر أن **حديدته** النابتة على بطنها قد تراخت أو تعبت ، تحدق في عينيه ، في عينيه سعادة لا توصف .

هل حوّلت الحرب شباب البلاد إلى نساء؟ سؤال يضج ، لا تريد جواباً ، فالجواب واضح ، بدأت البلدة تعج بالفتيات العوانس ، والشباب شغلتهم الحرب وفقدان الزملاء ، لم تعد هناك رغبات لتكملة الدين .

تدنو (مـهـا) من (ماهر) ناحتـاً عـينيه فـي الفراغ ، تحـاول أن تحـقنه بجـرعـة أمل ، همـسـات عـشق ، تتجـاوز دائمـاً الخط الأحـمـر ، تتـفوه بكلمات **تجرح** المشاعر ، تنهض براكين الرغبة ، تزلزل صلب أي ذكر لو سـمعـهـا ، لكن (مـاهر) غيـر مـوجود ، جـسـد بلا معنى ، دميـة تعـمل ببطارية ، تتنفس ، تنظر ، تنطق ، لكن **روحها** حجريّة .

تتـعب (مـهـا) تغطس في نوم وحـرقـة ، تنشـد **إتمام** سـعـادتـهـا في الحلم ، لكن الحلم زمن الحرب كوابيس .

(ماهر) مهزوماً ، مأزوماً ، حتى الشعر تنصل منه .

لم تجد (مها) وازعاً يبقيها نمرة جائعة ونمرها **معطل** ، فقدت لسانها في لحظة احتراق :

«لم أعد أطيق هذه الحياة الكاذبة!»

لم يجد دافعاً يلقيه خارج البيت ، ظلّ النداء المتواصل للصباح وإغراءاته يصطدم بصخرة يأسه ، من سقف الغرفة ، خيوط هلامية راقصة تهبط ، تمتصه ، مشلولاً ، لا يملك رغبة للنهوض ، ينظر بعينين شبه ناعستين ، بفكر مخدر ، أشباح كما القطن المندوف أوان طغيانه ، تظهر وتضمر ، شرهة تتلوى قبل أن تتشكل شاشة فضية واضحة ، تحقنه باستفزازات إيروتيكية ، تشله وتمتص بتروٍ كامل رغباته .

تبخرت من ذهنه نغمات الشعر ، لم تعدْ هناك كلمات عارية ، تنفلت من قاموس الوجود ، لم تعد هناك فوضى مفردات تصطدم على بوابة الخيال ، جسده مرهق ، حياة رتيبة لم تعد تشكل هماً يستحق الانشغال به ، لم يعد السأم عائقاً ، صارا ندّين متآلفين ، السأم رجل بلا مأوى ، كائن من غير عنوان أو هوية ، بلا أرض يسكنها ، تائه يجوب فساد هذا العالم ، يبحث عن أنفار لا ينتمون للواقع ، كائنات فقدت أواصرها بالحياة ، تحدوهم رغبات خارج الحسابات العقلانية ، خارج المألوف ، سريعاً يتصالح معهم ، يسكنهم لقدر غير معلوم من الوقت .

كم ساعة بقي تحت تأثير النشوة؟ عجز فكره عن تخمين الوقت ، غالباً ما يجيء الفرج من النافذة ، جلس يصغي لرعود تتواصل ، بدأت تفتر ، نهض .

(مها) ما تزال تتمرد عليه ، لم تصدق ما يقوله ، ما تزال تحمل

فكرتها ، قولها على لسانها ، (ماهر) لم **يعد** رجلاً .

لكن (ماهر) رجل في العزلة ، كامل المواصفات ، كائنه **يستجيب** لغرائزه الذهنية ، في معظم الصباحات يجد بللاً في ملابسه الداخلية ، فحص نفسه ، لم يكن بولاً ، لم يحصل أن بال في فراشه ، البول واضح وبغيض الضوع ، البلل مترسب ، حائل اللون ، يبقى **طازجاً** يحتفظ بكامل لزوجته .

نقر ناعم على الباب ، خرج ، وجد امرأة خالها متسولة ، أبقاها واقفة ، هرع داخلاً وعاد ، ظلّت المرأة تحدّق فيه بذهول ، في عينيها عتاب يصرخ ، ألم عميق ينزف ، لم يجد حلاً ينقذه من ورطته ، هزّت رأسها ، سحب (ماهر) يده الممدودة ، وكفه يعصر النقود :

«أما تستحي يا ماهر؟»

امرأة تعرفه ، قلب **ملفات** ذهنه ، كل شيء تعمه الفوضى ، فكره مشتت ، جسده أسير لجة عاتية ، عيناه لم تعد تريان كما كانتا ، لسانه عجز عن إبداء توسل أو سؤال ، وجه امرأة لم تمر ملامحها بـ شاشة ذهن معطل ، معضلة كونية يسكنها ، «كائن **فاشل** الهوية» ، كل شيء فيه يصرخ ، لم يجد فرصة ملائمة تسنده لتشكيل هيئتها .

تحرك لسانه :

«آسف . . لم أعرفك .»

هزّت رأسها :

«أنسيت تلك الليلة الباردة .»

«كل الليالي التي عشتها كانت باردة .»

«لا بأس . . يبدو أن عقلك كان في يدك .»

(ماهر) ينظر في وجهها ، وجه بدأ يتلون ، يشرق بألفة وحميمية ،

بدأ يعلن عن نفسه .

وجه ليس بغريب! (قال لسانه)

صوتها غائم ، يصحو ويخبو :

«وهل بيننا من لم يفقد ذاكرته؟!»

«ألم يكن شطرك الضائع في هذه الدنيا؟!»

«شطري الضائع ، أنت تتكلمين بطريقة الفلاسفة .»

«محنة واحدة من محننا كافية لجعل المرء فيلسوفاً .»

«لكنني أجهلك ، ليس بالتمام ، ربما مررت بذاكرتي .!»

«هل حقاً كل من يفقد عضواً من أعضاء جسده ، يفقد عقله معه؟»

«ربما أنت على صواب ، فقدان **عضو** في يومنا هذا يثقل الرأس ليس بالهموم فقط ، بل يجبره على الموت أيضاً .»

«أما تتذكرني؟ أم كان عشاءي بلا ملح؟!»

«تتحدثين عن عشاء مشترك ، أين تناولناه؟ في الطفولة ربما!»

«كلا يا ماهر . . بل كان عشاءً قريباً .»

«دعينا من الغموض ، وضحي لي نفسك .»

« حسناً . . من كان صديقك الأثير .؟»

«تصعب الإجابة ، خشية أن أجد شخصاً ينتسب إليك يكون خارج الحسابات .»

«بل كنت توده وكان يعتبرك أخاً لم ألده أنا .!»

«آه . . أرجو أنني استعدت بعض ذاكرتي .»

«حسناً . . لا تجهد نفسك؟ أنا أمّه .»

«أمّه!»

«أم موحان .»

توقف سأمه ، فقد السيطرة على نفسه ، وجدها تدنو ، فسح أمامها الطريق ، صارت وسط الحوش ، آه . . نده لسانه ، تذكرها ، في ليلة نأت من ذاكرته ، ليلة ألحت على بقائه ، كانت باردة جداً ، ليلة عاد مع (موحان) في إجازة قصيرة ، في تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً هبط (موحان) من المركبة ، سائقها طلب حبوب وجع الرأس ، قادهم (موحان) إلى البيت ، خرجت أمّه وأنزلته رغماً عنّه :

«عفواً . . إن كنت قد نسيتك .»

«حسناً . . »

«أمّي خرجت لتتسوق .»

«جئت إليك!»

ماذا تريد مني أم (موحان)؟ (قال لسانه)

وقفت تتفحص البيت .

«هل من جديد؟»

«ماذا تعني بجديد؟»

«ربما كذبوا عليَّ – موحان – ما زال يعيش .»

«ألم أقل لك إنك فقدت ذاكرتك .»

«كثيرون من جنودنا هربوا إلى **جانب** العدو خشية على أرواحهم .»

«كلامك لا يسر .»

«كثيرون دفنوا رفاتهم ، وأقاموا لهم المآتم ، بعد أيّام ظهروا على التلفاز أسرى ، تبين أنهم دفنوا **رفاة** آخرين جلبوا عن طريق الخطأ .»

«دع هذا الأمر جانباً ، أنا تأكدت منه .»

«حسناً ماذا تريدين؟»

«موحان . . كان شاعراً .!»

(ماهر) مسك نفسه ، ضحكة عنيفة تدفقت إلى فمه ، رصدت بوادر سخرية فيه ، ظلّت تنظر إليه بصرامة :

«أتسخر من كلامي؟»

«كلا . – موحان – لم يذكر لي شيئاً عن هذا الاهتمام المفاجئ .»

«لم يذكر لنا أيضاً .»

«وكيف عرفتِ أنه كان يكتب الشعر؟»

أخرجت لفافة أوراق من تحت عباءتها ، امتدت يدا (ماهر) راجفة ، كأنه بصدد أن يمسك شيئاً مقدساً من غير وضوء ، حزمة أوراق ملفوفة بعناية :

«هل حقاً هذه أوراقه؟»

«ابنتي – ميسون – قرأت بعضها ، طرحت علي فكرة أن أعرضها عليك من أجل نشرها في كتاب .»

«هذا يسرني يا أم – موحان – »

«كان يودك كأخ .»

«ما بوسعي سأبذله كي نطبع شعره في كتاب .»

«حسناً . . سأزورك فيما بعد .»

لم يجد شجاعة ، أو ملاطفة لإبقائها ، لفّت عباءتها حول نفسها وخرجت .

جلس يقلب حزمة الأوراق الملفوفة :

هل حقاً صاحبي الودود ، الخجول ، يمتلك هذه الكلمات؟ من أين لملمها؟ (قال لسانه)

لم يفصح (موحان) له ذات جلسة ، أن القصيدة نيران تسكنه ، خاض متاهاتها ، تعذب واصطاد جواهرها ، أكان يخرج صباحاً إلى الجبال بحثاً عن دواء أرقه ، لم لم يلتقيه في تجوالاته ، أم كان يتجول ليلاً ، أغلب الشعراء مساحة جنونهم الليل ، في الليل عندما يكون العالم غارقاً في السديم ، تحلق الذاكرة ، تأتي القصيدة برقاً خاطفاً ، عكس النهار ، تأتي القصيدة كسيحة ، تتأرجح **وسط** صخب الناس .

وجد كلماته تمنح متعة ، تعطي انطباعا ، أن قائلها ليس إنساناً عابراً في محطة الكلام الجميل ، لابد أنه سخر جهداً كبيراً لبلورتها وتنظيمها ، قبل صياغتها نسيجاً ، يوعز أن ناسجها يمتلك قدراً لا بأس به من الموهبة والدربة الشعرية ، رغم كتمانه موهبته ، يقين يوحي أنه يمتلك خصال **أصحاب** الأحلام الكبيرة .

حاول ترتيب الأوراق بما ينسجم مع الأفكار المتجانسة ، لم يترك (موحان) تاريخاً يذيّل الأوراق ، ربما (ميسون) أخته تلاعبت بالأوراق فضاع التسلسل ، أم أنه كان يشعر بالخجل من كتاباته لذلك كان يكتب من غير الترويج عنها ، خطه معتدل ، منظم في رص الجمل ، وجده تحديثي النزعة ، أحياناً يسقط بين مخالب المباشرة والتقليدية ، في مواطن أخرى يؤسس لقصيدة فكرية مراوغة ، يشتغل على الأفكار ، رغم معرفته به ، كان متواضعاً ، خجولاً ، فشل في **كسب** ود فتاة جارة ، ربما صدودها عنه ، ولّدت فيه المشاعر ، أنهضت فيه حرائق الشعر ، قبل أن يجد الورق **ساحة** عامة ، منبراً حراً للتعبير عن خلجات الذات ، وتدوين **رغباتها** المحرمة .

قدّاس حياة سافلة
(أوراق أرق . . موحان)

(١)

حان الوقت . .
سأنسلخ من جلدي
حان الوقت . .
للقبض على هاجس عدم الاقتناع
أجلس من غير رأس على حافات الليل
أبحث عن قناع
حولي أرض كبيرة ليس عليها بيتي
ليس عليها
وطني
ليس فيها متاعي!

***

في الليل مجرد أنا
من كل حلم
من كل كابوس
من كل رغبة تخرس معارك الألم
تخمد نيران

فانوس النفوس!

***

أفكاري تسبح خجولة
في أرضٍ مجهولة
سريرك خارج مدى بندقيتي
كل رغبة ذائقة الكهولة
كل أمنياتي غير مقبولة
عادت من أرض الشكوك
قصائد معوقة
أو . . أفكاراً مقتولة!

***

(٢)

أراك . .
ما بين إقدام وإحجام
توزعين فرحك المبين
إنّي على يقين
كل ما تكتمين
باقة خصام
على مر الأحلام
على مر السنين
تنأى وتعود
مع الأيّام

موطنها السراب
تسكن . .
مقبرة العيون!
***
من عاصر قسوة المراهقة
تسلح بقميص عليه دم عذب
مغسول بدمع لم يجر من ينبوع الحب
من تجمل بعباءة عشقي
دنياه ليست بلهوٍ ولعب
ليت حواري الملتهب
تدركه
لتوقد نار لياليها
على مر الأحلام
من غير كذب!
***

ليت القدر يؤسس لنا بيتاً من زجاج!
ليت الأمل يسترخي
ويسكننا لساعة عمر من غير احتجاج!
ليت مشاعر الأنثى بلا أشواك
أو رائحة عجاج!

***

(٣)

أوراقي . .
انتهت لغتها
أي أرض تمنح حرائق تفكير
أي أرض
تقبلني قتيل الهوى
الأخير!

***

هذا الذهول يبعثر أشيائي
هل من خلوة تسامحني
هل من جدار يفهم معنى وجودي
لماذا أبحث عن لعب سرقت
كانت
مرايا رغباتي
مسلّة تتعلق عليها آهاتي
حائط سلوى
تؤرخ للقادمين
نصف دعواتي
وكامل صلواتي!

***

(٤)

حاولت أن أقتنص علامات وجومك

أحدثت شرخاً في جبين مستقبلي!

***

أي محضر يلملم حروبنا القصيرة
أي قاموس
يستوعب أفكارنا العسيرة
أي المكابدات
تغوي سفينة النجاة
حولنا العالم يزرع مخالب الطغاة
فتتسكع إلى الأبد
إرادة الحياة!

***

تقول أمّي :
لا تسكن بيت العذاب
كفكف أحزانك
لملم أوهامك
تلك تفاحة سقطت من شجرة العناد
في مستنقع ذهولك
حين تلمسها
تغدو أيّامك
واحة سراب!

***

(٥)

علام هذا الوقت المذبوح في العتاب
تذكر . .
في صيد الأيامى
شرائع تهندس مسلّة الحضور
والغيّاب
لا تكبل عمرك بأسئلة
يرفضها كل كتاب
يرفض فاصل التفكير
ويعدم
كل جواب!

***

أحاول تجميع الرماد
وهجاً يرتبك .
يماريني من وراء حجاب الأفق
يبايعني بإغراء
وارف الحزن يشجر ظلّي بالحان العناء
صمتي صوتي
يخرج طولي من بين حطام الأشلاء
سيوفاً ودروعاً وخيولاً تطلق صهيل هزائمها
وراية ترفرف في محطة الأعداء
أي الجبال أرحم

أي القصائد تلملم تاريخنا المبعثر
إلاّ في أناشيدنا والغناء
أي النداء
أي المسارات تلغي ما بيننا من كبرياء
أنا الأرض
هي الماء
أنا الطير
هي الفضاء
أنا الشمس
هي السماء
أنا الداء
هي الدواء
أنا الفناء
هي النماء
يباغتني الخوف بلا استحياء
الخوف لغة لا يفهمها إلاّ التعساء
أي (كيوبيد) حرر سهمك من قوس الولاء
شق صدر محنتي
وأقتل فيَّ هذا البلاء
مأمولة قلبي
واقفة لا تنتظر عودتي
تتأمل جنازتي
تلك هي مشعلة حربي

كل مساء!

***

مشغول بأسئلتي

أحاول تهجير ما ينحرف من جواب

أسئلة تسوق مراكب حيرتي نحو جزر الغيرة

لكنها تغدو

طعماً للتراب!

***

(٦)

(. . . . .) صاحبة السهم الأوّل

علام سكتت حين مستها نار عذابي

لماذا تجاهر في لعبة التفتيش عن ملابسات نظراتي العنيدة

لماذا تطل أوان نومي من شبّاك غربتي

علام تهشم أواصر سعيي

سعيي الحثيث

لتأسيس مدينتها المفقودة!

***

(٧)

في واحة بلا أنس

بلا جان

بلا جماد

بلا حيوان
تحط مراكبي
أحفر قبراً لهزائمي
ألفلفها بنسيج نحيبك
فتورق
على مدار الهم
باقة أماني!

***

يزحف من وجومك الغرور
أفقد أنا في كل مرة
كامل الشعور!

***

تدهمني أسئلتك في الوقت المنحور
أخرج من فرن الحقيقة
نازفاً دمعي
فاقداً دربي
أهيم في أقاليم التسامح
تجتذبني ومضة سرور!

***

في ظلمة محاولاتي
تبعثين ضحكة عبور

تجرجرني إلى مديات
الرغبة
وشاطئ الحبور!

***

(٨)

شِباكْ اليأس تصطادني
مقابلِ باقة سخريات ترشيني
تطردني أرهط الغيورين لمستنقع قدري
بعدما تجردني من بقايا أحلامي
من آخر قطرة نور!

***

حبك يا بدر البدور
آخر المعاقل
آخر القبور
ليتها تستوعب جنازتي
من غير مشيعين
من غير بخور
من غير شق الجيوب
من غير خمش الصدور
من غير ذبائح
نذور!

***

(٩)

مساء وبرد وغربة وبرق
ليست رباعي مرح
أو حديقة فرح
كل محاولة حب ذائقة الأرق!

***

عيناك ترميان المستقبل
بجملة ليست مفيدة
ألهذا . . كلما اختصر فاصل الدرب ما بيننا
أجدك قصيدة عنيدة!

***

عيون أمك
عصا أبوك
وبندقية جاهزة
أقسم حاملها
ليصرمنني وهو مصبح
قاسية هي مشاعرك
كل الطرق ملغومة بالعسس
تواصل مراكبي جنونها الأبدي
وتمضي حياتي
على وتيرة هذا الدرس!

***

(١٠)

لست أمتلك حلولاً لكل نظرة
قرر العشق
العيش أو الممات
يبقى قوس العمر موتوراً
والقلب مدحوراً
والجسد مأسوراً
والرأس قلعة حسرات!

***

أواصل حرثي في أرض بور
لن يكتمل مشهد الرحلة
في فضاء الرغبة تتجحفل فيالق الرعود
تجلجل بصواعق وأطياف
غالباً ما تأتي السيول خارج حساباتنا
للغيوم مزاجها
فتموت فينا
على مرأى الدهور
ومضات السرور!

***

(١١)

مسافر . .
لا يعرف وجهته

الطريق يثقل سيره
متاعه . .
أحلام مقبورة
يتعكز . . بحفنة ذكريات نبتت في ذاكرة متعبة
بولادة عسيرة
لا نهر يمده بحفنة ماء
لا شجرة
تمد خصلة ظلال تنشط البصيرة
ظل يرافقه بغيرة
ظلّه المرتبك
في أفق موته تلوح جزيرة
وكامل أحلامه الفقيرة!
***

(١٢)
روحي . .
تغرق
قلبي يبرق
أحمل كتابي وباقات أرق
أتأبط حقيبة قلق
خارج أسوار عينيها
صباحي ينفلق
عالم مرتبك يغريني

يومض
يقترب
يحترق!

***

(١٣)

ما تمطره غيوم الذاكرة
أوهام ماكرة
تأتي كلما النوم سلطان
كلما القلب
تعبان
فما أسكبه في ليل الهذيان
لا تعيها أذن السلطان
إنها خارطة الزمان!

***

(١٤)

يوم اكتشفت حقيقتي
غادرتني الأحلام
في فنجان شربت الحرب قهوته
تجحفل شعري
رماد أوهام!

***

(١٥)

ثغرك نحت
القلوب الدامية على قميصي
مصابيح تدمي أحلام الفاتنات
ويوم بلغت من السأم عتياً
نارك أوقفت تنور الكلمات
ثغرك ناح
أيها الشاعر
زمنك مات!

***

(١٦)

وقفت . .
خجل ظاهر ينطق على أديم خديها
عالي الدهشة
متحفز الرغبة
أسحب براءة عينيها
ألحاظي تفك طلاسم الخوف
تخترق
مزاجها
تدمي ثدييها
واقفة تتأمل عينين جائعتين
وثغراً يتوسل بأغنية

ما صفعت أذنيها
كم من وقوف فات؟
كم من وقوف باق؟
كم من خجل مات؟
ظلت ساطعة التمرد
غارقة في وحل ماضيها
على حجر الوقت تردع جيوشي
وأنا أواصل حفلات تعذيبي
علها تتخلص من مراثيها!

***

(١٧)
عالقٌ
أتأرجح
ما بين عيون تقتلني
وعيون
إلى جحيم البحثِ – مذ تشابكنا ـ
ترسلني
ما ذقت نسمة ود
حين قلتِ :
ـ يا . . الولد الغضوب
إلى بلد المحبوب
عد . . !!

لا تبارح وطني
قبل أن تزرع أشجارك على لهفة الخد
أعني . .
أن
تقبّلني!
قلت :
- الذي هو ظمؤك
فقدته على أشلاء المدن القصية
حين ارتحلت فوق سفن السأم
تطردني رياحك المنيّة
وزمهرير ثورتك التحررية
رحت أبحث عن تفسيرٍ لأحلامك الوردية
لكنني عدت
بمعطف رثٍّ
ورأسٍ أكله الثلج
وعكازٍ أحتفظ بخلواتي السرية
جئتُ ألوذ بخيبتي الأزلية
أينما أحط الرحال
تباغتني لعناتك الأبدية
يا من عاطفتها بلا حد
أي الجسور إليك أمد
جسر الطفولة
أم

حكمة الكهولة .!

***

(١٨)

ما الذي تبغين من أوراق تشربت بدموع المحن
وجفت ينابيع مسراتها
ما الذي تطلبين
من عيون تعلقت بك ذات زمن
وعادت تنام في جحيم حسراتها
فالقلب مثل البحر جزر ومد
قلبي هجر نسمات التلصص
وثغري
ما عادت تغريه ينابيع المص
فزمني المحتد
أجهض أطماعه الوثنية
من بعد خصام
وضياع نغمة الوئام
هاجرت إلى أقاليم الأحلام
هناك خسر الجسد ملذاته
وعاد مترعاً بانكساراته
هناك في المدن القصية
في الرمال العصية
نثرت كلماتي الوحشية

وجئت

أبحث عن نسمة شروق أبدية

أبحث عن وطن جديد

أزرع في ربوعه

أشجار صبري الممتد

إن كان في العمر بقية!

***

(١٩)

ورقة تشردها الرياح

لا تعرف . .

أين مستقرها

ولا تعرف . .

كيف ألقي القبض عليها

ابتدأت رحلتها

عند انفلاق الصباح

لحظة وقف ديك الجيران متبختراً

وشرّد مخلفات الليل

وبقايا الهائمين

والساهرين

بالصياح!

***

(٢٠)

يوم ولجت مصح الهموم
أدركني من سعير حبك . . الوجوم
ارتشفت زفير الطرقات
وما تراكم من حولي
دنان السموم
ومن يومها ما خطرت بقلبي نسمة انشراح!

***

كنت أطارد الفراش على أديم الحقول
قبل أن يهل بدرك ويسلقني بماء الذهول
مذ رأيتك
تعلمت مطاردة النساء كالمخبول
فؤادي مقتول
وليلي
قيء في سلال العمر
عصير جراح!

***

يا صاح . .
دع ثغري المكبول
يواصل ارتشاف حيرة وجهك الخجول
فأنا عاشق طبعه عجول

يجيد فن الحرب من أجلك
أعزل السلاح!

***

عاشق أنا
ما درى . .
الحب في ظل ساستنا جيش مدحور
هكذا تنطق الملاحم عبر كل العصور
نهاية كل لقاء
ويل وثبور
«روميو وجوليت»
«قيس وليلى»
«مم و زين»
تراجيديات
تمطر
أحزاناً
فكل ما بقي لنا
وسائد الليل المنحور
ندفن فيها صهاريج الأتراح!

***

(٢١)

قلبي يتسكع في عينيك
الذي . . يشغلنا

همٌ مشترك اقتسمناه ذات خصام
ونحرنا
من أجله أعناق اللئام
وأصبحنا
على ذمة الوجود
حبيبين لا يربطهما حزام الغرام!

***

يا تفاحتي . .
في ليل الظمأ
يستحيل بكائي إلى حفنة أحلام
في دورق الرغبة تصطادها
أوراق الأيّام
فتورق مع الفجر
محض أوهام!

***

(٢٢)

الطريق إليك تحرسها آلاف العيون
كلها سكاكين غادرة
تنحر كلماتي النائمة بين الشفتين
فمن أين ينبعث اليقين
ليتواصل شدو حلمنا مع شدو الآخرين!

***

مكبل بكل أصفاد المحال
ليت هناك شباك شك يبعث في يقين الرغبة
بارقة احتمال
قلبي غادرني وسكن عينيك
بلا جدال
من يعيد لمركبة همومي قائدها المقال
راية العشق فوق منارة الجسد تعلن
أنك تعشقين هوى الاحتلال
وأنا جندي حب فقد سلاحه من غير نزال
مذ وقفت بدربه في حومة الميدان تبغين القتال
سرقت قبطان الجسد
قلبه . .
موطن الجمال
وتركت الأحلام عصافير بلا وطن تحدوها الخبال
في عالم صاخب
دستوره قيل وقال!

***

عاشقٌ
يفتقر لآلة حرب تعيد لسفينة كيانه حرية الانتقال
حالمٌ
يبحث عن منقذ يعيد قلبه من سجن عينين
كالكريستال!

***

(٢٣)

لا أحد يقبلني بعد اليوم جندي يخدم الأدب
إنّي فقدت مملكتي في آخر حرب
فمن يرجع جيش مشاعري إلى ساحة الحب؟
من يعيد أساطيل شوقي الهائمة
في الصحاري
إلى بحر القلب!

***

آه يا عاذلتي . .
هواك ألغى تقاويم مملكتي
ونشر الروع في قلوب رعيتي
فحصل في أرضي الجدب!

***

سهام عينيك
صواريخ رغبات من غضب
هزمت جيش عواطفي في أول الدرب!

***

أحجبي فتنتك عنهم قليلاً
إنّي صرفت في بناء قلعتي أربعين جيلاً
ما هزت أركانها أعاصير الندب!

***

تعالي لتسكني برج أقداري
تعالي . .

لتكوني أميرة أشعاري
كي نوقظ في سماء بلادي بكاء السحب!

***

آه . . لو ترضخين . .
سأجيش حواليك حوريات كأنهن الياقوت والكهرب!

***

آه . . لو تضحكين . .
سأرويك ماء ينابيعي العذب!

***

(٢٤)

دائماً تقولين :
ـ استمراري لا يعني أنّي أحبك
حسناً . .
ماذا يعني . .
حين أغادركِ
تهرعين لأصبح عقاراً لقلبك .!

***

(٢٥)

ماذا يعني . .
تذيلين رسائلكِ
(أموت في هواكَ)

وحين أفيق من نشوة اللقاء
أسقط في بحر أساكِ!

***

(٢٦)

أنبل ما فيك
هدوؤك
كلما يباغتني الشك
تباغتني كفّان
فيهما وعودك!

***

(٢٧)

في المساء
تغفين في صحن قلبي تفاحة
وفي الصباح
تستحيلين
إلى
سكين!

***

(٢٨)

أحدنا لن يخسر المعركة

طالما الحب كالبحر
مد وجزر!
***

(٢٩)
وقتي . .
لا يستميل رائحة الورد
وقتي . . مرعوش برماح أشواك
وخلجان أحزان
من يفتح مظلة عشقها
ليطل عصفور ساعتي على قاموس الزمان
هي الآن
أنا لست في الآن
كلانا يواجه تماسيح الوقت
كلانا يشهر بنادق البرق
كلانا حيران
أسلاك الخوف
وقنابل الشهب
وبروق السحب
غمامة وله من غير عنوان
كلما يدنو المطر
تمضي مع سحب الألوان
وأنا أذوب

في خلجة أشجان!

***

(٣٠)

شاطئ للرقص
ورمال تدون مصيري في سجل العذاب
على وجه الماء يكتسح وجهها الضباب
من يصطادها بصنارة رغبتي
ويلقيها في سجني
قدح شراب
أملها يقف كتمثال في وجه السحاب
لا تحزن
لا ترتوي
لا ترتاب
شجاعتها شراسة الذباب
في الليل تغزل ثوب مسراتي
وفي النهار
تحيلها إلى كومة خراب!

***

(٣١)

أعبر حدود الألم . .
أصطدم بمتاهة

واقفة تضحك ببلاهة
أم أنني أشكو من عتمة
أتخيل الغضب نداهة!

***

(٣٢)

الليل يغير حدود الرغبة
بوابل لهب
السماء تهددني بالشهب
هي قلبها لا يتعب
أنا مهدد بهذا العجب
هي على سفينة حلمي تستنطق القلب
حولنا غيوم حسرات لا تهرب
فتحت سد مشاعري
فبان في رمقاتها
سجف الغضب!

***

(٣٣)

لا أمان
الدنيا باقة أحزان
أشعلوا لنا مواقد الحرب
كي يتخلصوا من الشجعان

ها نحن بين أسنان سجّان
ملعب حياتنا
حكيم هذا المتوج بالريح والصولجان
فصرنا محض رعيان
راعٍ يسوقنا لمقصلة العز
ليتخوصر
وسادة الزمان!

***

(٣٤)
حيراء . .
غوري تحطم
تعب
ألق رشيق
يهندم قوامها الرقيق
ثغر يمطر الدر
وأصوات عصافير تستجير
قفص قلبها مضجوج بدموع الأسر
هي . .
خرافة عصر
بيرق يهش غنم رغباتي
هي . .
مشعلة الحرائق في غابات حياتي

خدها ذهب
آه . .
من غير تعب
ليس الدرب
يوصل ضجيج الشغب
من أحشاء تلتهب
إلى غورها المرتقب
أو ينام على خدها
ينزف مدرار العتب!

***

(٣٥)

في الليل
أكتهل
في النهار
أرتحل
يومي سفينة رجاء
الحب حليب الشقاء
لا شعر
يلتمس ضوء نفقها
لا صمت
يبركن طبقات عواطفها
جبل حيرة

يعزل غزلان الغيرة
عن الديار
من أقصى مقلتيها
ضوء الأمل
يفكك ظلام عجرفتها
ويغريني بالمسيرة!
***

(٣٦)
يوم أرتمي على حقيقتي
تتعطل أمنياتي
في فناجين العرّافات
رأيت خراب حياتي
قرأت أنباء مصائبي
دماء توشم رغباتي
لا الصحب يركبون موج الحزن
لا فتيات البلدة يلبسن الحداد
على قلب لفظته الطرقات
من فرط السعي
أرتمي . .
على آثار قدميك
علّها تعطيني مفتاح العبور
وتقبلني مجروحاً

يتطبب على كفيك!

***

(٣٧)

هي قلوب أدمتها ريش الرسامين على قميصك
تلك السهام المنبطحة
والمكسورة
والغاصة في شقوق اللحم
نظراتي المكافحة إليكِ
لا . . لم أبلغ من مدن السأَم عتيّا
ففي الروح معسكر شهوات
هزّي شفتيكِ
سترتمي عساكري
أساور وجد
في معصميكِ!

***

(٣٨)

كم من عمرٍ مات؟
كم من انتظارٍ فات؟
هيهات .
هذا الخجل يعاكسني الحساب
قاسية نظراتي كقسوة السحاب

رهان الآخرين مراث
على رصيف الوقت تذبح كلماتي
غداً تأخذني الريح
وتتعطل حنجرة السفينة
فتموت
في خضم أمواج عينيك
أغنياتي!

***

(٣٩)

كلما يمازحني مزاجي بالاعتراف
- يجيء سهم الائتلاف!
تتشكل مستنقع حيرتي
شكلك يفند حظي من غير انجراف
لم ينبئنِ فنجان
أو نبوءة عرّاف
فكل حفلاتك
ترتمي في يقين الصمتِ
لم تمسها نار الاختلاف
من بعيد أواصل صمتي
حربي وشعري
خارج أسطوانة الزقاق
خارج مستنقع الأعراف

تحاصرني الحرب
ونظرات السادة
أصحاب القيادة
متماهل أواصل صبري
من غير تأرجح
أو . . انحراف!

***

(٤٠)

بائعة الغرور
لا تبيع محنتها لرجل مغدور
رجل محارب
يبحث بين الطلول
عن دولاب متوقف لا يدور؟

***

جيلاً بعد جيل
تمد حبل فرادتها
أنفها في السحاب
وقلبها في التراب
ينشد اللحن المنحور!

***

قتيلة من غير دماء
ثوبها الكبرياء

لو قدّر المقدور
لصارت في صحن طعامي
باقة زهور!

***

في قبيلة الخوف
تشعل أصابعها
شمعة
في قربها
سرير وثير
عليه قلبي المنحور!

***

منذ دهور
أبحث عن دولابها
علّ
الريح تدوّر في واحة قلبي
الناعور!

***

طوى أوراق (موحان) وانشغل من جديد بـ **صولة** يأسه ، قام وخرج ، عبر الشارع ، توجه نحو مكانه الأثير ، جلس ينتظر **تكرار** مشهد الإثم ، كانت فكرة مفاجأة أتت في لحظة شبق ، لم يعد يمتلك جرأة لإقناع (مها) ، اتهمته بفقدان رجولته ، صار **يستحي** منها ، صارت خارج وقته ، وصلته جملة ليست عابرة عبر لسان أمّه نقلاً عن جارتها ، أم (مها) تروم **فسخ** الزواج ، قدّمت أوراق الطلاق إلى المحكمة ، بعدما تعرضت إلى هجمات لسان أم (سليم) ، ودليلها القاطع ، فقدان (ماهر) كرامته .

هاله مشهد الخراب الحاصل ، تلك المنازل الطينية طلول تلعب فيها الكلاب السائبة ، لابد أنها شملت بقرار الحكومة بإزالة بيوت تلك المنطقة ، كونها بيوت تجاوز ، أو بالأحرى بيوتاً يقطنها (أكراد) .

(ماهر) رغب أن يتأكد من رجولته ، قبل وقوع الطلاق ، أراد أن يجلس في تلك الحفرة ، يوم **جلس** هارباً من لقاء ليلي مع (مها) ، يوم خرجت المرأة القروية ورفعت ثوبها لتشخ بولها وربما برازها ، لقد رأى كامل عريها ، لكنه كان نازفاً حرارته مع (مها) ، فلم يشعر بحماسة و**تمرد** شبق .

ها هو يجلس ، غير نازف ما فيه ، جاء ليختبر كرامته .

فرصة مثالية ضاعت لتجريب قدراته ، كل شيء فيه مستعر بقوة ورغبة وصهيل ، انتظر دقائق كي يتأكد أن حالته لم تكن عرضية ،

جلس في الحفرة وراح يفرك **عضوه** غير الشامخ ، مرت دقائق وهو يلهث ، ولحظة شرقت روحه بآهات التعب ، تراخى شبه ميت ، تغمره تعاسة أزلية :

لم أعد أنا إنساناً .! (قال لسانه)

زرر بنطاله ولحظة قام ، وجد ظلال أشباح تحيط ظلّه ، مائتاً التفت ، وجد ثلاثة **كلاب** واقفة ترمقه بحيرة .

مد يده والتقط حجارة ، فرت الكلاب مذعورة ، كانت تهرب وتتوقف لتلتفت إليه .

خرج من الحفرة .

وصل إلى البيت .

أم (ماهر) فتحت الباب ، وجدت **ثلاثة** شباب . . قال أحدهم :

«أين ماهر؟»

«من نقول له؟»

«أمن . . »

هرعت وأنهضته ، كان فاقداً شعوره ، ما زالت الصيحة التي حررها في الحفرة تضج في رأسه ، قام ليتحرى ، وجد الشبّان داخلين عليه غرفته ، صعقت أمّه :

«ماذا تريدون منه؟»

وجدوا قرب سريره كومة أوراق ، لملمها أحدهم ودسها في عبّه .

«ماهر . . مدير الأمن أرسلني يطلبك .» تحرك لسان أحدهم .

لم يمتلك كلاماً ، تهيأ ورافقهم .

زجّوه في غرفة ، وجد فيها أنفاراً جدداً ، لحاهم كثّة ، عيونهم غائرة ، بدوا غرباء ليسوا من بلدته ، تقدم أحدهم يزحف ، كشر عن أنياب مزنجرة . :

«هاهاهاها . . سيجارة .»

«ها . . لا أدخن .»

صفعه وتراجع إلى رفاقه :

«لا يدخن ، هاهاهاها . . لا يدخن . . هاهاهاها .»

تقدم آخر :

«نقود . . !»

«لا أملك نقوداً .»

«هاهاهاها . . لا يملك نقوداً . . هلاهاهاها .»

صفعه وعاد لرفاقه .

وجد الثالث يبغي الزحف إليه ، في وجهه وجد كدمات وجروح قصاص ، أشار إليه أن يتوقف .

تكلم :

«هاهاهاها . . ماذا تريد . . هاهاهاها .»

حذره (ماه) :

«سأنادي عليهم .!»

«هاهاهاهاها .» انطلقت قهقهة جماعية .

في تلك اللحظة فتح الباب ، وجد (ماهر) نفسه مساقاً إلى مدير الأمن .

قال له :

«ما هذه الفوضى في البلدة؟»

«لا أعرف من يروج هذا الكلام؟!»

«ما يشاع عنك أتعرف عقابه؟»

«أنا لم أعد أنا سيدي .»

«يجب الكشف عن الملابسات عند طبيب مختص ، خشية أنك تلقيت تهديداً من أطراف – مها – واتفقتما على هذه اللعبة لنسف قرار القيادة ، أم أن هناك من حقنك بطعام مدسوس بعقار .»

«سيدي . . هذا ليس صحيحاً .»

«الشباب سيرافقونك حتى المشفى لنختبر رجولتك .»

«لدي تقرير لجنة – شرحبيل ـ»

«ربما تقرير مزوّر .»

«دائرة التجنيد أرسلت معتمداً معي وتم تسريحي لأسباب صحيّة من الجيش .»

«ضابط التجنيد فر من البلدة ، بعدما تم الكشف عن ملابسات تسريح بعض الشباب بداعي أنهم **أكراد** ومشمولون بقرار تسريحهم من الجيش .»

رافق (ماهر) شابين من رجال الأمن ، في المشفى خضع لفحوصات سريرية ، تم فحص دمه وسائله وإدراره ، بعد ثلاث ساعات أعادوه ومعهم مغلف مختوم .

فتح مدير الأمن الأوراق ، قرأ التقرير السرّي المرفق ، نظر إلى (ماهر) نظرة رعب . . قال :

«إنك بكامل الصحة والعافية .»

«ماذا تعني سيدي؟»

«أنت تحاول التهرب من قرار القيادة .»

«ليس هذا صحيحاً سيدي .»

«ما يشيع من كلام لم يأتِ من فراغ .»

«حياتي تتأرجح سيدي .»

«تحاليلك تؤكد أنك أفرغت سائلك قبل يوم .»

سكت (ماهر) .

«ارتكبت جرماً جسدياً .»

«لكني ميت الحياة .»

«تحليلك يكذبك .»

«لا أفهم ما تقول سيدي .»
«ماهر . . أنت ترتكب حماقات خارجية ، أتعرف عقوبتها .»
سكت (ماهر) .
«وجهك يتلاعب ، قل الحقيقة .»
«أنا لم أعد أنا ، أنا بلا حياة سيدي .»
«أين سكبت قذارتك؟ ، قل قبل أن تنال عقاباً صارماً .»
«سيدي . . حياتي تسكنني عندما أكون نائماً .»
« كلام فارغ . . »
«تلك هي الحقيقة ، مع – مها – أشعر أنني فارغ المحتوى .»
«كتب الطبيب أن قذارتك جديدة ، عمرها أربع وعشرون ساعة .»
«سيدي . . كل صباح أستيقظ على بلل في سروالي .»
«ألم تجرب طريقة ما لاختبار نفسك .»
سكت (ماهر) .
«يجب أن تجرب نفسك بطرق شتى كي تختبر رجولتك .»
سكت (ماهر) .
«يمكنك أن تستمني .»
سكت (ماهر) .
«أم أنك شاذ؟»
«لم أفهم كلامك سيدي .»
«ما سر وجودك في الجبال يومياً؟»
«دائماً أخرج صباحاً من أجل القراءة وكتابة الشعر .»
«وما سر وجودك عند طلول منازل التجاوزات؟»

«لا أعرف ، ربما هو المكان الملائم والهادئ للقراءة والكتابة .»

رمقه مدير الأمن ، وجد (ماهر) في عينيه سؤالاً صارخاً ، لم يدم السؤال :

«ماهر . . أنت تكذب .»

«لا أجد وازعاً يدعني أن أكذب .»

«سأجعلك تحت المراقبة ، أينما تكن حتى في منامك ستجد من يدوّن تفاصيل حياتك .»

سكت (ماهر) .

«إنك إنسان تعي الأمور ، وتعرف القانون ، من يتحايل على القرارات سيشنق أمام الناس .»

«سيدي . . لست مسئولاً عمّا يدور على ألسنة الناس ، ولن تجدني خارج حسابات المواطنة الصالحة .»

«ليس من أجل هذا طلبت .»

«أخشى أن واحدة أخرى أعلنت حبي لها .»

ضحك مدير الأمن ، قام من وراء النضد وتوجه إليه ، مسكه من معصمه وقاده ، جلسا معا على أريكة .

قال :

«لم تكتب عن مكتسبات الثورة وحكمة القيادة وحربنا المقدسة ضد العدو .»

«ما نزل بي قفل كل شيء في .»

«أن تتفاعل مع الحكومة ، ستجد نفسك تتحرر من ربقة الوهم الذي يبطش بذاكرتك .»

«لم أجده وهماً ، إنها مشكلة وجودي ، إنها حياتي ، تراوغني ،

تارة تسكنني وطوراً تلفظني .»

«لا أفهمك . . »

«رجولتي لم تعد تستفيق .»

«ربما هناك عمل خبيث أجري لك .»

«هكذا أسمعوني .»

«يمكنك زيارة السادة .»

«ما زلت أتواصل مع العلاج .»

«و – مها – »

صمت .

«يمكنني سحلها إلى هنا .»

«أرجوك سيدي ، كل شيء يحسسني بقرب موتي .»

«لو قامت بما يخل بقرار القيادة ، ستتعرض إلى السجن .»

«ما زالت صغيرة ، لها الحق أن تتركني في هذه المرحلة على أقل تقدير ، ليس بوسع أيّة أنثى أن تجلس لتغدو هدفاً لكلام جارح .»

«حسناً ماهر . . أمهلك وقتاً لتصلح الأمور .»

«هذا ما أرجوه .»

«لا تنس أنتظر منك قصائد تدعم معركتنا .»

«حين تعود حياتي بوسعي الحرب أيضاً .»

قام مدير الأمن ، قام (ماهر) :

«هيء لنا قصيدة ، بعد أسبوع لدينا **حفل** بمناسبة عيد ميلاد الحزب .»

خرج (ماهر) مسكوناً بالتنمل ، خوف يفتته ، ورغبة تدحرجه **نحو** هاوية الموت .

(ماهر) يذوي .

دافع داخلي يحسسه بلا جدوى الطعام ، رصدت أمّه سهره ، بحثت عن أسباب تغيره المفاجئ ، حاولت أن **تنتشله** من عزلته ، وجدته دائم التحديق في سقف الغرفة ، لم يكن كما كان ، يرد على كلامها ، يبقى يصغي كممسوس لما تقول ، يهز رأسه ويتظاهر بالنوم ، كلما طفح **كيل** ضجره .

«ماهر . . أنت تقتلني .»

صمت .

«ماهر . . دعني أعرف ما بك .»

صمت .

«كثيرون فقدوا أيديهم وأرجلهم وتزوجوا .»

صمت .

«لم لا تأكل ، إنك تنتحر؟»

صمت .

«ماهر . . وجدت امرأة تمتلك علاجاً فعالاً لك .»

صمت .

«ماهر . . قالوا إنها **تعيد** للكهل شبابه .»

صمت .

«ماهر . . ما الذي حدث ، ماذا قالوا لك في الأمن؟»

صمت .

«هل هددوك ، قل أي شيء ، لم هذا السكوت ، هل قطعوا لسانك؟»

صمت .

«يجب أن أذهب إلى مدير الأمن ، سأفهمه الأمور .»

«لا . . لا . . لا . . »

«آه . . ماهر . . كدت أن تميتني بصمتك .»

«لا . . لا تذهبي؟ أنا أعيش في دوامة يا أمي .»

«دعني أساعدك .»

«لا . . كل شيء سيتقرر بعد أيام .»

«ماذا تقصد يا قرة عيني .»

«كل شيء سيذبل أو يسترد نضارته بعد أيّام .»

«ماهر . . أنت تخيفني بكلامك .»

«النهر الذي توقف سببه توقف المطر عن الهطول .»

«ماهر . . أنا أموت ، ماذا بك؟ بدأت تهذي .»

«الشجرة التي ماتت ، لن تعود ، لأنها بلا جذور .»

«ماهر . . قل كلامك بوضوح كي أفهمك .»

«الحرب التي أشعلوها ، ستحرق **أشواك** حياتي بعد أيّام .»

«ماهر . . ماهر . . ماهر .»

«السماء التي أسكتوا بكاءها ، ستغرق الأرض بأشواك التعاسة .»

«ماهر . . »

«الشعر الذي نما ربيعاً ، سيتحول إلى **خريف** بعد أيّام .»

صمت .

«أنا لم أعد أنا .»

صمت .

«مها لم تعد مها .»

صمت .

«أنا وـ مها – لم نعد – مها – وأنا .»

صمت .

«لم أنا بالذات؟»

سقط (ماهر) في موج بكاء ، شاركته أمّه ، بعد دقائق تحركت الأيدي وأزاحت الدموع .

قالت :

«ماهر . . هل قلت شيئاً؟»

«ماذا أقول ، لم أعد كائناً يمتلك أقوالاً كي يقولها .»

«حقاً الصمت أحسن في يومنا هذا .»

«لم تطاردني الناس؟»

«الغيرة والحسد يا – ماهر –»

«ليس هذا . . »

«تخلصك من الحرب ووجود أبنائهم في الجبهة وراء هذه الأقاويل .»

سحب شهيقاً عميقاً وزفر بحرقة .

قالت :

«أنت تموت جوعاً .»

«جوفي لم يشعرني بالجوع .»

«بدأت تفقد نضارتك .»

«أشعر بعطش دائم .»
«وجدت امرأة في قرية – أم العاقول – تمتلك علاجاً فعالاً .»
« حالتي ليست مرضية ، أنا أشعر بفقدان نفسي .»
«ربما علاجها يعيد لك كل شيء .»
«حسناً . . سنضيف علاجها إلى علاجاتك السابقة .»
فرحت ، قامت وأعدت الغداء ، جلس (ماهر) كما يجلس معها على سفرة الطعام ، لا يرغب بشيء ، يحتسي الماء فقط .
قالت :
«كل .»
«لست بجائع .»
«يجب أن تأكل .»
«أشعر بعطش أزلي .»
«اشرب اللبن ، إنه يعوض عن الطعام .»
شرب قدحي لبن وقام .

الشمس تختفي وراء الغيوم ، مع **طلعة** الصباح ، (ماهر) وأمّه خرجا ينشدان قرية (أم العاقول) ، في كراج المركبات احتاجا إلى ساعة ونصف الساعة قبل أن تنطلق المركبة (**ناقص نفر**) نحو بلدة (خانقين) ، بعدما تقاسموا أجرة المقعد الفارغ ، شاب نحيف ضامر العينين ، كان به قلق ، تبين أنّه مستخدم في دائرة ، بسبب تأخره عن دوامه ، اقترح عليهم الفكرة ، وجدت أم (ماهر) العجلة في صالحها ، فالغيوم المتراكمة غالباً ما تنذر بالمطر ، لابد أن يعودوا قبل الغداء .

***

(ماهر) عاندها كثيراً قبل أن يرضخ لمطلبها ، حججه ودفاعه المستميت عن حالته فشلا في وقف نهر أحزان أمّه . . قالت والدمع يغرق عينيها :

«يجب أن تفعل شيئاً ينقذنا ، ماذا تقول الناس عنّا ، شجرتنا ستموت أمام أعيننا ، ماهر . . لا تغرقني في بحر التعاسة ، علاجك موجود ، سمعت أنها تمتلك مواد نادرة ، تلملمها من الأعشاب ، لا تقتل نفسك بيديك ، لا نخسر شيئاً ، يكفينا نصف نهار كي نعيد الحياة لك ولتلك المصيبة – مها – إن كنت متشبثاً بعنادك وكسلك ، حسناً سأذهب وحدي في الغد .»

«حالتي عارضة ، هناك دليل على وجود حياة تسكنني .»

«الناس بدأت **تقص** عنك حكايات لا تسر .»

«نحن في الحرب ، في الحرب **تسقط** أخلاق الكثير من الناس .»

«كلام الناس جراح عميقة ليست في أجسادنا ، إنها جراح لا تبرأ في كتاب سمعتنا .»

«حسناً . . سأرافقك ولكن هذا آخر ما تطرحينه علي .»

كادت أن تضحك ، (ماهر) خرج من غيمته وطل عليها ، غداً تمنت أن يأتي بعد لحظات .

***

في انعطافة الشارع الرئيس قرب معبر كونكريتي نزلا ، منخفض ينحدر ليغدو وادياً ، عليهما أن يهبطا ويصعدا قبل أن يلتمسا ممراً ترابياً متعرجاً يجانب مرتفعات جبلية مفككة .

أمسك (ماهر) يد أمّه وهبطا المنخفض ، صعدا بعسر إلى الممر الترابي ، سارا صامتين ، كانت البيوت تبدو نقاطاً سوداً متناثرة ، التفت (ماهر) بدا كمن يشعر بـ **ظلال** تطارده ، رصدت أمّه فزعاً غريباً يستوطنه ، شاركته حيرته ، ظلّت كلما يلتفت تلتفت معه .

«ماهر . . أهناك ما يخيفك .؟»

«لا أعرف .»

«المكان خال من الكلاب .»

«هناك **كلاب** من نوع آخر تتبع الناس في أسفارهم .»

«وهل توجد كلاب أجنبية تراقب الناس .؟»

«كلاب **محليّة** تعيش على أرواح الناس .»

«لكن كلاب – جلبلاء – تمت إبادتها في الحملة الوطنية الشاملة .»

«كانت تزعج الناس في الليل ، جناب الحكومة قتلتها كي تنام الناس بأمان تحت حراسة كلاب أمناء .»

«في قريتنا كانت الكلاب كلّها أمينة .»

«هناك كلاب أكثر إخلاصاً تسهر ليل نهار تراقب العدو .»

«ماهر . . هل شردت بعض الكلاب إلى الجبال؟»

«حكومتنا لا **تفلت** من مخالبها نسمة هواء عابرة .»

«وهل شملت الحملة كلاب القرى؟»

«فقط كلاب البلدات .»

توقف (ماهر) والتفت ، تابعته أمّه ، كان الشارع بعيداً :

«كف عن هذا؟»

«الكلاب . . »

«لا توجد كلاب . . »

«أخشى أنها تراقبنا .!»

«لم أسمع نباحاً حتى هذه اللحظة .»

«إنها لا تنبح يا أمي ، إنها **تعض** وتميت سراً .»

«ماهر . . لا تقلقني؟»

«يجب أن نحترس منها .»

برك جالساً وراح يمسح ما حوله بنظرات قلقة :

«ماهر . . أجننت؟»

«يا أمّي . . أبحث عن الكلاب .»

«أيّة كلاب؟»

«كلاب السلطة .!»

«ولم تصرخ؟»

«آه . . أنها تطاردني .»

سحبت نفساً عميقاً :

«لكننا خارج البلدة .»

«ضابط الأمن أكد لي أنه سيراقبني ليل نهار .»

«وهل أنت **معارض** كي يراقبك؟»

«هو قال لي هذا الكلام .»

أنهضته وسارا من جديد .

مدير الأمن كان جازماً في كلامه ، لم يفصح أكثر مما قال ، ستطارده العيون ، ربما سيداهم في البيت ، ستؤخذ أوراقه لتفسير أشعاره ، سيقلبون الكلمات ، سينبشون المعاني ، سيعيدون تشكيل أحرف الكلمات في جمل أخرى تخبئ أفكاراً هدّامة .

الحياة تمضي كسلحفاة هرمة ، حياة كل المدن تتساوى تحت سطوة الحرب .

ما الذي يفعل ، ها هي الأيّام تنقرض ، لم يجد دافعاً أن يلوّث نفسه بمهرجان قصيدة تحرق بقايا روحه ، ظلّ يمشي ، يتلفت ، أمّه تسحبه تارة وتارة يسارع في خطواته ، وصلا **منبطحاً** أرضياً ، وجدا كهلاً يرتمي على ظهره ، جلس يحدق فيهما :

«أأنت هو؟»

«أنا . . »

«لا . . لا . . لا . . أنك لا تشبهه .»

«من تقصد يا عم؟»

«هو . . »

«أهو ابنك؟»

«أهو ابني!»

«أهو يشبهني؟»

«أهو يشبهك!»

«ومن هو الذي تبحث عنه؟»

تدخلت أم (ماهر) :

«هل أنت من هنا يا عم؟»

«أنا من هنا . . نعم من هنا ، وهل ألقتني طائرة العدو لأكون ليس من هنا سقط سهواً هنا .»

«أأنت من – أم العاقول – »

«أنا من قرية أم العاقول»

قال (ماهر) :

«أأنت من قرية – ماجد شبوط –؟»

«وهل تعرفه؟»

«كان جندياً معنا رحمه الله .»

«رحمه الله ، ومن قال إنه مات كي تطلب له الرحمة .»

«إنه أحترق داخل الحافلة .»

«احترق داخل حافلة . . !»

«يوم عدنا من ميدان الرمي انفجرت رمّانة يدوية واحترق مع الحافلة ، ألم تسمع بالخبر .»

«لا تهرف يا بني ، ماجد شبوط لم يحترق .»

«إنه كان معي ، رأيت فحمه .»

«لست على صواب في ما تقول .»

«أنا متأكد من كلامي .»

«وأنا متأكد من كلامي أيضاً .»

«لكنه احترق .»

«ربما شبيه .»

صمت (ماهر) يحدق في عيني كهل ينطق صراحة ، يحاول أن يسترجع تلك اللحظة ، (ماجد شبوط) كان معهم أثناء الرمي ، شاب كثير الضحك ، لا يعيش لحظة من غير مقالب ومزاح ، أحقاً ما جرى وما يجري جملة ملابسات خلطت أوراق ذهنه ، ظلّ يبحث عن مخرج ، رصد الكهل حيرته ، قبل أن يسعفه :

«صحيح كان جندياً .»

«إنه احترق كما جاء في أوامر القسم الثاني .»

«دعك من قضيّة الاحتراق ، إنه ما زال حياً يرزق حسب أوامر الواقع .»

«أكاد أشعر بدوار يا عم .»

قالت أمّه :

«لسنا في حساب وكتاب ، دعنا نكمل مشوارنا .»

«ماجد . . ما زال يعيش .» قال الكهل .

قالت أمّه :

«دعنا من – ماجد – إن كان هو أو هناك من كان يشبهه ، كل إنسان له أربعون شبيهاً .»

«وهل بوسعي رؤية – ماجد – » قال (ماهر) .

«موجود . . »

«لن أصدق ما لم أتأكد ، ولو تأكدت هل بوسعي أن أتحمل **صدمة** رؤيته؟!»

«يمكنك أن تراه .»

قالت أم (ماهر) :

«جئنا نطلب أم الأعشاب .»

«زوجتي . . »

«زوجتك» قال (ماهر) .

«زوجتي تمتلك خبرة نادرة في علاج مستعصيات العلل .»

«جئنا نطلبها» أجابت أم (ماهر) .

صمت .

نهض الكهل ، بدأ يخطو متعكزاً و (ماهر) يمسك يده ، عند الظهيرة وقفا على مرتفع ، كانت البيوت تتناثر ، جملة صبيان وصبايا يلهون ، أشار الكهل بأصبعه :

«ذاك بيتنا .»

«هل بوسعنا مواصلة السير .؟»

«أشكو من مفاصل ليس بوسعي السير كثيراً .»

«لا نملك الشجاعة كي نذهب .» قالت أم (ماهر) .

«حسناً لنلتقط بعض الأنفاس قبل أن ننطلق .»

جلسوا صامتين ، كان الرجل الكهل ، يرمق أم (ماهر) لحظة تنبهت لنظراته شعرت بخوف .

بتر (ماهر) الأمور :

«يبدو أنك شخت قبل الأوان .»

«عندما نعيش زمن الحرب أعمارنا تسبق الزمن .»

«كيف تعيشون في هذا القفر .؟»

«تلك قصة طويلة ، نحتاج لذاكرة طرية كي تسرد خلفياتها .»

صمت .

«أأنت من الأصليين في – جلبلاء – »

«أنا سليل رابع أربعة بيوت سكنت البلدة .»

«كل من تلتقيه من أبناء البلدة يقول هذا الكلام .»

«أنا سليل بيت الدين يا عم .»

«وهل في البلدة دين كي يكون له بيت .»

«أتعرف صاحب الكرامات؟»

«هناك جملة أنفار ينسبون أنفسهم لأصول كريمة .»

«لكن جدّي تعرفه الناس .»

«وأنا لا أعرفه .»

«ربما لم تزره .»

«زرت الكثيرين منهم ، كنت من باب الخير أرافق طوابير الناس إليهم .»

«أما ألتقيته؟»

«من؟»

«جدّي أبو الكرامات .»

«كلهم أصحاب هذا الادعاء .»

«لكن جدّي تشهد له الناس ، وهو من شفى أبي من وجع رأسه .»

فتح الكهل عينيه ، وقرأ عيني (ماهر) ، وجد جواباً لسؤال قديم ، نقل نظراته إلى أم (ماهر) .

«أأنت ابن الرجل الذي دهس؟!»

«أتعرفه؟»

«هناك الكثير من الشبه بينك وبينه .»

«أتعرفه؟»

«قل لي هل أنت ابن عبد الكريم عبد الخالق؟»
«أنا ابنه .»
«أحقاً أنت ابنه؟»
«وكيف عرفت؟»
«خطب بنتاً من – تل الجن – كان على أنفها خال .»
تدخلت أم (ماهر) :
«أكنت من رافقه؟»
صمت .

دمعت عينا الكهل ، وجده (ماهر) يمسح دموعه ، أراد أن يشاركه البكاء ، تعذر عليه استدرار دموعه .

«كان نصفي الذي ضاع .»
«أكنت صديقه؟»
«نعم . . رأيته كيف مات .»
صمت .

قاموا وساروا نحو البيوت ، دخلا غرفة طينية ، بعد دقائق دخلت امرأة في الـ **ستين** ، تحمل طاسة لبن ، قال الكهل :

«هذا – ماهر – ابن صديقي عبد الكريم وهذه أمّه بنت صاحب الكرامات .»

«أيهم؟»
«أبو – تل الجن – »
«وهل أمه مسكت الطريقة .»
تدخلت أم (ماهر) :
«كلا . . البلدة أتعبتني وأضعفت ذاكرتي .»

«هذا بيتكم ، لا تشعروا بالغربة!»

خرجت المرأة .

بعد دقائق لم يجد (ماهر) نفسه إلاّ واقفاً ، شخص وقور يلتف بعباءة دخل عليهم الغرفة :

«لا تقل إنك خرجت من الحريق .» .صرخ (ماهر)

«كيف حالك ماهر؟»

«كما تراني بلا يد .»

«كان يجب أن تهرب .»

«قل كيف نجوت؟»

«قصة طويلة أخشى أن تشيع .»

جلسا معاً . . قال الكهل :

«أنا وأبوه كنّا زملاء عمل .»

قال (ماجد) :

«ها نحن الأبناء نكمل سلسلة حقائق الحياة .»

«كيف نجوت وماذا تعمل؟»

«في التهريب ، أهرّب **الفافون** إلى الشمال .»

«كان يجب أن تخبرني كي أكون جنبك .»

قالت أم (ماهر) :

«فقدان يدك أهون علي من الهروب .»

«وحالتي» قال (ماهر) .

دمعت عينا أمه ، رأى (ماجد) صبغة الذهول تغلفهما . . قال :

«ماهر . . هل من شيء؟»

«تلك قصة طويلة .»

دخلت امرأة ، قال (ماجد) :

«خالتي . . أم زوجتي»

(ماهر) عاش غيبوبة ، أمّه ظلّت فاتحة فمها ، وجد الكهل منتظراً حرّك لسانه :

«خبرونا عن الذي يحصل .»

قال (ماهر) :

«هي من بلدتنا ، أم – ماجدة – »

جلست المرأة بعد جملة ترحيب ، كانت تنظر بـ **عين** متسائلة في عيني أم (ماهر) .

قال (ماجد) :

«ماجدة زوجتي في المطبخ .»

بلع ريقه ، قام الكهل :

«حان موعد الصلاة .»

انشغل (ماهر) و(ماجد) بحوار الذكريات ، متذكراً قول الآمر بخصوص وقف **تراشق** الأدبار في ساحة العرضات برحيل (ماجد) ، كلام نقله (موحان) على الساتر ، قبل أن يرحل منحوراً ، قد يفاجأ في يوماً ما بـ (موحان) عائداً من الموت ، ما الذي يجري في بلاد تحارب ، هل الشهداء حقاً أحياء يرزقون ويعودون متى يشاؤون إلى الدنيا كما يرغبون ، كلام مر بخاطره ، ها هو (ماجد) بلحمه ودمّه يجلس لصقه ، وإن كان غير ذلك الإنسان المرح ، صاحب المقالب ، كيف نجا؟ ألم يكن داخل الحافلة التي احترقت؟

كانت أم (ماهر) مع أم (ماجدة) تتهامسان . . قالت أم (ماجدة) :

«مجيئكم يحيرني .»

«لم نجىء من أجل ما حصل .»

«هذا شيء لم يحصل .»

«كلا لم يحصل .»

«الماضي غبار فليذهب مع الريح .»

«يا أختي لم نتوقع هذا حين قررنا أن نجيء .»

«سأفهمها الأمور .»

«مجيئنا من أجل ماهر .»

نظرت إليه . . قالت :

«فقد الكثير من حيويته .»

«ليت الأمر كان متعلقاً بحيويته .»

«ويده . . »

«لم يعد يتذكر كيف بترت يده ، كانت ليلة دامية عليهم .»

قامت وخرجت .

عاد الكهل .

«الغداء جاهز . . »

سقطت طاسة الماء من يد (ماجدة) ، ظلّت ناحتة عينيها في عيني (ماهر) ، لسان حالها ينطق (هلو ماهر) ، عالج (ماجد) الأمر :

«ماجدة . . خجولة دائماً تسقط شيئاً في حضرة الغرباء .»

صمت .

قال الكهل :

«الماء يهون ، إنه فأل خير ، المهم أنها لم تحرمنا من الطعام .»

تناولوا الغداء .

عندما صبّت (ماجدة) الماء على يدي (ماهر) . . همست :

«لن نعرف بعضنا ، أليس كذلك .»

صمت .

«ما حصل لم يحصل .»

صمت .

«هل فقدت لسانك أيضاً؟»

صمت .

«هل تزوجتها؟»

تحرك لسان (ماهر) :

«ليس هذا وقت كلام .»

«بل وقته . . »

«ماجد . . كان أخي .»

«لم يحصل شيء بيننا هذا ما أريده .»

«وأنا أيضاً أريد هذا .»

قام ودخل الغرفة .

(ماجد) حكى قصة هروبه ، السيد الآمر ، كان ابن **شيخ** عشيرتهم ، ربط مسمار رمّانة يدوية مهيأة للتفجير داخل إحدى البطقات في مؤخرة الحافلة ، رتب له الأمور وأعطاه ورقة إجازة كي يتخلص من السيطرات وأفواج رجال الانضباط ببيرياتهم الحمر وهم يشغلون الأسواق ورؤوس الأزقة بحثاً عن الفارّين من الحرب .

وجوده في قرية أم (العاقول) وفر له الأمان ، لعدم وجود **جواسيس** من جهة ، ومن جهة رجال السلطة حضروا مأتمه يوم أشيع موته محترقاً ، ومن يومها **قفلوا** عدساتهم التلصصية عن بيوت **تقطن** وادي يعج بنبات (العاقول) .

على مائدة الغداء .

«لم أشعر بفعل دوائك .»

«عليك الصبر .»

«سأمت . . »

«اعقل يا بني .»

«كيف أصبر ، بعد يومين تبدأ عربداتهم .»

«أكتب أي شيء .»

«كيف أكتب ، لم يعد الشعر ينادمني .»

«الحكومة غبيّة ، أي كلمات تكتبها ستنفخها كالبالون .»

«لكنهم يريدون منّي شعراً ألقيه في المهرجان .»

«أنظر إلى رجال الحكومة ، إنهم **حفنة** عاطلين وغفلة وأصحاب **ضمائر** مريضة .»

«لا . . لا . . الشعر – ضراط – الرؤوس الفارغة ، الرؤوس الغازية ، الرؤوس الخالية ، كما قال السيد الآمر»

«لا ترفع صوتك . . أجننت؟»

«لا أريد أن أكتب شعراً بعد اليوم .»

«سأذهب إلى مدير الأمن ، وأعتذر لك منه .»

«لا . . إيّاك أن تذهبي .»

«أكتب أي شيء ، لا تزجنا في ورطة جديدة .»

قام وخرج .

لم يعد (ماهر) إلى البيت .

سهرت الليل تنتظره ، «ربما عاود الجلوس في المقهى» ، أمل عاشت عليه ، طال الليل وانقضى ، وجاء صباح البلدة مثلما يجيء مبشراً بأدخنة وتراب وغبار وصيحات باعة متجولين حافظت حناجرهم على متانتها .

***

في (أم العاقول) ، توقفت عدة مركبات ، هبط **فوج** عسكر ببيريات حمر ، يرافقهم **رهط** رجال حزبيين ، شاهرين أسلحتهم ، اقتحموا الغرفة الطينية ، وتم إلقاء القبض **على** (ماجد شبوط) ، سائقين معهم (ماهر) .

وقع الخبر على رأس أمّه وقوع صخرة غير مميتة ، سقطت في بئر العذاب . . قالت جارته :

«لا داعي أن تقتلي نفسك ، سيطلقون سراحه .»

«الحكومة لا ترحم .»

«ألم يخرج لأسباب صحيّة .!»

«ليت هذا ينفعه .»

مرّ شهر على اختفاء (ماهر) ، كانت الحرب **تزبّل** الحياة ، طائرات تلقي بحمولتها القاتلة وتهرب ، المساعي المزعومة فشلت في تقريب **وجهات** النظر ، كل طرف تمسك بفرضيات عقله ، شباب يذهبون ويعودون معوقين أو جثثاً على الأكتاف .

أم (ماهر) نضجت على نار الكآبة ، شاخت سريعاً ، ولم تعد تصوّر

الأشياء بوضوح بتلسكوبات عينيها .

***

في مساء دامع ، سمعت أصوات مركبات تطلب من الناس الخروج إلى ساحة ألعاب معسكر البلدة صباحاً ، كانت الأفواه تتناقل ببهجة وهلع : «الرئيس سيشرِّف – جلبلاء – » ، من لديه مظلمة ، أو مطلباً شخصياً ، من يريد قطعة أرض ، أو تعيين أبنائه وبناته ، من يريد التعبير عن ولائه ، فليلبس أجمل ثيابه ، وأصحاب الطلبات ، يهيئوا مظاليمهم في عريضة .

لبست عباءتها وهرعت إلى السوق ، وجدت نفسها تختنق بين **نصف** أهالي البلدة ، نساء ورجال وفتيان ، يتجمهرون حول رهط متقاعدين يجلسون تحت مظلّة بشرية تتصايح ، كأنهم **كوَّر** زنابير انتفضت لخطر داهمها ، بصعوبة يحررون مظاليمهم عبر خطوط غير مهذبة ، وعبارات شعبية نسفت **أخلاق** اللغة .

أم (ماهر) بعد مشقة ، عادت تطوي **مظلمتها** تحت عباءتها .

***

صباحاً . . بعد ليلة قلق ، مع صعود قرص الشمس قدر رمح ، صلّت ركعتي الضحى ، رفعت كفيها وتوسلت بعينين دامعتين ، أن يتحقق مرادها ، تتمكن من رؤية **سيادته** وطرح مظلمتها ، ابنها ليس بهارب ، أوراق (شرحبيل) ممهورة بأختام سلطته ، وجوده في بيت جندي هارب من أجل إيجاد علاج ، كي يعطي البلاد جيش فتيان يحملون السلاح لحراسته من غيرة أعدائه ، كانت **زغاريد** النسوة تنطلق في مجموعات وهي تجرجر **أعراسها** الأبدية إلى حيث الأرض التي تتشرف بأقدام الخير والنصر المؤزر كما تقول الناس ، من خلال شق

الباب وجدت الناس أفواجاً **يهرعون** إلى ساحة التجمعات الجماهيرية ، طوت عريضتها بين إبطيها داخل عباءتها وسارت تتبعهم .

وسط الزحمة ، وقفت تنتظر **حاكم** البلاد ، أبو (حجي الذهب) كما سمعت من فم مطرب ، **صدع** آذانها عبر مكبرات صوت موضوعة فوق رؤوس الـ (عرضحالجية) ، فركت عينيه ، كي ترى بوضوح ، وجدت نفسها ، لا تلمح إلاّ أشباح بشرية ، تتغوّش في مقلتيها ، يأسها بدأ يعصف ، كيف الوصول إليه؟ آلاف الأيدي تشهر عرائض ، أجساد تعافت من أجل الفرصة التاريخية ، كلهم يلبسون حللهم وحليّهم كأنهم **خارجين** في يوم عيد .

في الجهة الشمالية للساحة ، **جدار** حديث مبني من أكياس الخيش مملوء بالرمل .

بعد ساعتي **خطب** حماسية حررتها أفواه تمتلك **حناجر** سياسية ، وتقديم **عروض** ترفيهية لأطفال طلائع ، ناشدين أناشيد وطنية ، تصم الآذان عبر مكبرات أصوات تتوزع على الأشجار .

كانت العيون تحلق في الفضاء ، لم **تتكسر** رقابهم ، الكل يريد رؤية الطائرة الرئاسية ، ستهبط (سمتيّة) وسط الجماهير المتكاتفة ، الدنيا ملتهبة والحرب وصلت **بطون** المدن ، الصواريخ بعيدة المدى تصل إلى كل شبر أرض عليها منشآت حيوية ، لابد أن سيادته قد **تحوط** بالأمان ، أسراب طائرات مقاتلة تحرسه وأسراب مروحيات تحوم معه ، تحسباً لأي عدوان داخلي وخارجي ، في خضم اللهفة ، في خضم الهلع والفرح المتفاقم ، وصلت مركبة حوضية مغطى ، الكل نده آهة الراحة ، ها هم رجال القصر الرئاسي قد وصلوا براً كي يشكلوا ساتراً قبل أن يطلع بدر زمانه .

توقفت المركبة عند منتصف الناس ، وسط الساحة ، صاحت الحناجر **صيحة** الاستقبال ، العرائض وحدها كانت أعلى من الرؤوس ، ترفرف مثل رايات في مهب الريح ، رجال عسكر لم يعد يعرف أحدهم كيف ومن أين خرجوا ، توزعوا وشكلوا دائرة كبيرة ، شاهرين أسلحتهم بوجه الجميع ، فتحوا الباب الخلفي للمركبة ، أنزلوا أحد عشر شاباً بأسمال بالية ، معصوبي العيون ، أيديهم مقيدة ، قادوهم دفعاً إلى الجدار الرملي .

توقفت الحناجر عن الصياح ، وهبطت العرائض لتنسل **بهدوء** إلى تحت الأقدام ، معظمها ممزق .

زلزل صوت بعد رشق خرخشات :

«أيها المواطنون النجباء .

يا رجال الثورة وعنوان كرامتها .

في الوقت الذي نحارب أعداء الوطن والأمّة ، ثمة أنفار من ضعاف النفوس تخلت عن رجولتها لتهدر كرامتها ، فئة ضالة باعت شرفها بثمن بخس ، لتنخر في جسد بلادنا المباركة بمخالب الخيانة ، كي تمهد الفرص لأعدائنا أن تحققوا نصرهم ، ويغتصبوا حياتنا الكريمة ، في ظل ثورتنا العملاقة المعطاءة .

أيها الحضور . . عيوننا الساهرة وقفت لهم في كل مرصد وأسقطتهم في حبائل القصاص العادل ، ها هم أحد عشر هارباً ، سينالون قصاصهم العادل عبرة لكل من تسوّل له نفسه أن يرتد ويتخاذل في معركتنا المقدسة في الدفاع عن حياض الوطن .»

أظلمت الدنيا في عيني أم (ماهر) ، سمعت الكلام ، فرحت لأن (ماهر) ليس هارباً ، لابد أنه سيعود سالماً ، تساءلت : «لم يخدعوننا

في كل مرة؟» ، من بين الأجساد المتزاحمة ، لمحت أشباح هياكل بشرية ، وجوههم على الجدار الرملي ، وفي لحظة صمت ، وغمض **جماعي** للكثير من العيون ، سقطوا على رشق بنادق من يدي **أحد عشر** جندياً باركين خلفهم بمسافة عشرين متراً .

انسحبت الجموع البشرية ، وهي تدوس بأقدامها أكواماً ورقية وكرتونية ممزقة ، خرس شامل ، شعور عام وحد فيهم هاجس اليأس ، إنهم ضحايا أبدية و**مخدوعون** إلى إشعار آخر .

استفاقت أم (ماهر) على يد سقطت على كتفها :

«قدر مكتوب .»

من بين الغشاوة لمحت أم (ماجد) :

«ماذا حصل؟»

بكت أم (ماجد) ، شاركتها البكاء .

وصلت (ماجدة) ، مسحت دموعها :

«ماذا تنتظران؟»

قالت أم (ماجد» :

«لن أرجع من غير جنازته .»

«وهل يعطوننا جنازته؟»

قالت أم (ماهر) :

«ماذا تقولين؟»

«لم يعد لدينا ما نقوله» . قالت (ماجدة) .

«قتلوهم الكلاب .» . . صاحت أم (ماجد)

تقدمت الأجساد خائرة .

أحد عشر شاباً ساقطاً ، يسبحون في برك دماء صغيرة ، كان

الكهل أبو (ماجد) يقلب الجثث **وسط** جوقة ناس ، سقط على جثة :

«ألم أقل إنك **تعمل** غلطاً يا – ماجد – لكم نصحتك أن تكشف عن ملابسات قضيتك .»

من بين الجثث ، كان (ماهر) معروفاً ، بيد واحدة ، مربوطة إلى عنقه ، عكس البقية ، كلهم كانوا **مثقوبي** الظهر ، وحده كانت الرصاصات **تسكن** صدره ، فقط القليل من الجماهير المحتشدة ، والذين لم يغمضوا عيونهم لحظة الإعدام ، رأوا بوضوح ، أن من بين الأحد عشر **كوكباً** من كواكب **رافضي** الحرب ، **واحداً** . . فقط من بينهم **قفز** إلى الوراء واستقبل الـ **موت** برحابة صدر .

عيناه تبتسمان ، وبقايا **صرخة** عالقة بشفتيه .

ربما كان يعيد مقولة (موحان) :

«صوت الرصاص **دائماً** أعلى من صوت الشعر في شرقنا الذبيح .»

وربما كان يستذكر ما قالته (مها) في ليلة حب :

«حلمت أننا نشنق في الزقاق .!»

وربما كان **يصطاد** كلمات قصيدة جديدة ، هبطت عليه وهو يموت .

بعدما . .
زقوني الموتِ زقّا
(زقنموت)
ها هم يرمونني في العراء
ناسين
أنَّ الشعر ضياء

والضياء
لا يموت
بصلية عتاد!

***

نسوا . .
أنهم ينقلونني إلى اللون (الأخضر) في علم البلاد
إلى روضة من رياض الحلم
إلى . .
الفردوس الذي يقضي
منام كل جلاّد!

***

نسوا . .
أنهم أدخلوني إلى محيط اللون (الأحمر)
دم الحالمين
الفقراء
دم المساكين
الأبرياء
الذين صنعوا أسطورة هذه البلاد!

***

ناسين . .
أنّ اللون (الأسود)
أسوء كساء
يلطخ وجوههم المزيفة

بلعنة الخسوف
ويطمس أحلامهم الجائفة
بوابل رماد!

***

(أبيض) هو تأريخي يا أوغاد!

***

أقوالي . .
ترفض تلوين فرسان الغبار
حنجرتي
لا تبيع هويتها
لحشد لصوص
أحفاد الصراصير
أبناء
الجراد!

***

يا ناس
خلّوني أسكن هذا العراء
واحة الكلم
منبت المعلقات
نخيل
فطاحل الشعراء
كفاكم صمتاً
كفاكم بكاء

يا عباد!

****

في الصحراء

مناجم للحرية

لا تخنقها أعواد مشانق

ومزارع غناء

لا تخرس ألحانها

قيح بنادق

لساسة أوغاد!

****

(شتاء ٢٠١٠ / شتاء ٢٠١٣)

تحسين كرمياني

- تولد : ١٩٥٩ - جلولاء - ديالى - العراق .
- قاص وروائي وكاتب مسرحي ومقال .
- عضو اتحاد الأدباء والكتّاب/العراق منذ ١٩٩٥ .

كتب صدرت:

(١) هواجس بلا مرافئ (مجوعة قصصية) دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - ٢٠٠١ .

(٢) ثغرها على منديل (مجموعة قصصية) ط ١ - دار ناجي نعمان - لبنان - ٢٠٠٨ .

(٣) بينما نحن . . بينما هم (مجموعة قصصية) ط ١ - دار الينابيع - دمشق - ٢٠١٠ .

(٤) الحزن الوسيم (رواية) دار الينابيع - دمشق - ٢٠١٠ .

(٥) بقايا غبار (مجموعة قصصية) دار تموز/رند - دمشق - ٢٠١٠ .

(٦) بعل الغجرية (رواية) ط ١ - دار الكلمة- مصر - ٢٠١٠ .

(٧) قفل قلبي (رواية) دار فضاءات - عمّان - ٢٠١١ .

(٨) خوذة العريف غضبان (خمس مسرحيات) دار - تموز/رند - دمشق - ٢٠١١ .

(٩) من أجل صورة زفاف (مسرحيتان) دار - تموز/رند - دمشق - ٢٠١١ .

(١٠) أولاد اليهودية (رواية) دار - تموز/رند - دمشق - ٢٠١١ .

(١١) ليسوا رجالاً (مجموعة قصصية) دار - تموز/رند - ٢٠١١ .

(١٢) البحث عن هم (مسرحية) دار – تموز/رند – دمشق – ٢٠١١ .
(١٣) بينما نحن بينما هم وثغرها على منديل (مجموعتان) طبعة ثانية ، دار – تموز/رند – دمشق ، ٢٠١١ .
(١٤) (حكايتي مع رأس مقطوع) رواية – المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت – ٢٠١١ .
(١٥) امرأة الكاتب (مقالات ودراسات أدبية) دار – تموز/رند – دمشق – ٢٠١١ .
(١٦) بعل الغجرية (رواية) ط ٢ – دار – تموز/رند – دمشق – ٢٠١٢ .

جوائز :

- المرتبة الثالثة عام ١٩٩١ عن قصة (كرنفال للشهيد) .
- المرتبة الأولى عام ٢٠٠٣ عن قصة (يوم اغتالوا الجسر) .
- جائزة الإبداع عن المجموعة القصصية (ثغرها على منديل) ضمن مسابقة ناجي نعمان الثقافية الدورة الخامسة ٢٠٠٧ لبنان .
- المرتبة الأولى عام ٢٠٠٨ عن قصة (مزرعة الرؤوس) في مسابقة (مركز النور- السويد -) .
- المرتبة الثانية عام ٢٠١١عن رواية (أولاد اليهودية) في مسابقة مؤسسة – الكلمة – مصر – مسابقة نجيب محفوظ للقصة والرواية – الدورة الثانية – ٢٠١٠ .